سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر

منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر

رئيس المشروع : أ.د. صالح بن قربة
الأعضاء : د. سامية بوعمران
د. خالف محمد نجيب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين بمناسبة
الذكرى الـ 45 لعيد الإستقلال والشباب

منشورات المركز الوطني للدرسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

تدمك : 7 - 37 - 846 - 9961 - 978
الإيداع القانوني 1587 - 2007

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقّق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها .

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا

وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال .

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

السيد : محمد الشريف عباس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد محمد الشريف عباس، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون ،وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

المقدمة

لم تكن فكرة هذا الكتاب الجامع لأعمال فرقة بحث (مصادر تاريخ الجزائر في العصر الوسيط) التي إستمرت سنتين كاملتين من البحث و الدراسة في بطون أمهات الكتب المصدرية بمختلف أنواعها ; عربية كانت أو أجنبية. من أجل حصر وجمع المادة العلمية المتعلقة بجزائر العصر الوسيط في جميع الميادين، وليدة الصدفة فحسب بل ولدت فكرة تأليفه لإبراز مكانة الجزائر، الفكرية والعلمية والسياسية في تاريخ حضارة الغرب الإسلامي منذ الفتح العربي إلى نهاية العصر الزياني ؛ وفق منهج علمي وبحث أكاديمي راعينا فيهما الأصول والفصول دراسة ونقد وتحليلا. إذ كما جاء هذا الكتاب أيضا إستجابة للرغبة الملحة من قبل مدير المركز الذي تحدوه الغيرة والحرص الشديدين في أن يرى جزائر العصر الوسيط وثراتها الحضاري في شكل كتاب جامع يكشف عن مساهمة بلاد المغرب الأوسط في حضارة المغرب الاسلامي، علما بأن هذه الفترة الزمنية الطويلة تعتبر من أهم الفترات في تاريخ المغرب الإسلامي عامة و المغرب الأوسط جزائر بني مزغنة على الخصوص، حفلت بتطورات كانت بعيدة الأثر في الحضارة العربية الإسلامية، وضحت فيها شخصية الجزائر المسلمة. ويتجلى ذلك كله من خلال فصول الكتاب الذي عالجنا فيه قضايا هامة من تاريخ الجزائر الوسيطية.

والكتاب يحتوي على مقدمة وتسعة فصول وخرائط ومخططات مع ثبت بمصادر ومراجع كل فصل، و قد خصصنا الفصل الأول (مصادر الجزائر في مرحلة الفتوح الإسلامية لبلاد المغرب)، ويشتمل الفصل على تمهيد و توجيه إلى المصادر والمراجع مع التركيز على حملة حسان بن النعمان الأولى وسقوط قرطاجنة، أما الفصل الثاني فقد عالجنا فيه حملة حسان الثانية والقضاء على النفوذ البيزنطي، بينما ناقشنا في الفصل الثالث نتائج حملته وآثارها على المجتمع وقد أنجز هذه الفصول الثلاثة السابقة رئيس فرقة البحث الدكتور صالح بن قربة.

كما قام أيضا بإنجاز الفصل الرابع بعنوان (دراسة نقدية لأهم المصادر المعتمدة في تاريخ بنى زيان) والخامس بعنوان (مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزياني) والفصل السادس بعنوان (مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد المريني).

أما الفصلان السابع والثامن بعنوان (المغرب الأوسط في كتابة الرحالة الجغرافيين العرب) و (أوصاف الجزائر في كتابات أبي عبيد البكري) فقد أنجزهما الدكتور خلف محمد نجيب.

وفيما يخص الفصل التاسع بعنوان (الجزائر الوسيطية في المصادر الأجنبية) فقد كتبته الدكتورة سامية بوعمران، ونرجوا أن تكون هذه الدراسة لبنة في صرح البحث العلمي و مرجعا للدارسين والباحثين، والمهتمين بمسائل تاريخ المغرب الأوسط في العصر الإسلامي.

و الله من وراء القصد

صالح بن قربة

الجزائر في 20 فيفري2005

تمهيد

مما لا شك فيه، أن دراسة حركة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، تعتبر مهمة صعبة للغاية، لأن هذا اللون من الدراسات،يحتاج إلى المعرفة الواسعة، وتفحص المصادر العربية القديمة، التي نجد فيها المادة التاريخية متناثرة هنا وهناك، فهي إذن تحتاج إلى غربلة وإحصاء جديدين،بهدف تصنيف المعلومات التاريخية، التي كثيرا ما نجدها في المؤلفات الحديثة بنفس الصيغة، دون تحليل ونقد أو محاولة وضعها في منظور جديد، خصوصا وأن مثل هذه الدراسات تتطلب إدراكا واعيا وفهما دقيقا تجاه هذه الحركة، والصعاب التي واجهت الفاتحين لهذه البلاد.

وهناك حقيقة، لابد من الإشارة إليها، وهي أن معظم الأبحاث والدراسات التي ألفت عن تاريخ المغرب في ظل الإسلام، كانت تتسم بالنظرة العمومية، دون تسليط الضوء على كثير من الشخصيات المغمورة، التي كان لها الفضل السبق في نشر الإسلام من ناحية، واللغة العربية من ناحية ثانية، بالمغرب، والعمل على تمصير البلاد وتشجيع ظاهرة الامتزاج بين العرب والشعوب التي دخلت في الإسلام، وما بين هاتين الظاهرتين من روابط وقد لا نبالغ إذًا قلنا أن الحضارة العربية الإسلامية، قامت على هاتين الظاهرتين (الإسلام واللغة العربية)، أو بعبارة أدق قامت على دعامتين كبيرتين، هما العروبة والإسلام.

بحيث كانت اللغة العربية هي الأداة التي عبّرت فيها هذه القوة الحضارية عن نفسها، في حين كان الإسلام القوة الروحية التي أكسبت شخصيتها ومثلها وفلسفتها ونظرتها إلى الحياة*.

لقد تناول الباحثون والمؤرخون مختلف مجالات الحياة الإسلامية في المشرق والمغرب على حد سواء، بما فيها دراسة الشخصيات التاريخية التي غيرت مجرى الأحداث من أمثال : عقبة ابن نافع الفهري، وموسى بن نصير، وعبد المؤمن بن علي الكومي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر ببرس، وأبو حمو موسى الزياني وغيرهم.

على أنهم، أهملوا أو تناسوا دراسة العديد من الشخصيات التاريخية الإسلامية، التي كان لها شأن عظيم في تاريخ وحضارة هذا الإقليم.

وساهمت في دفع حركة التاريخ قدما إلى الأمام، وصنعت أبرز الأحداث التي غيرت مسيرة المجتمعات، وعله، فإن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عامة، لم يكن مجرد حدث سياسي وعسكري فحسب، إنما حدثا حضاريا ومنهج حياة ونظام وأسلوب عمل.

ولهذه الأسباب المجتمعة، ارتأينا أن نستهل مشروع بحث "تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر" بدراسة الجزائر خلال حركة الفتوح العربية الإسلامية لبلاد المغرب، وتحديدا في مرحلة "القائد الفاتح حسان بن النعمان" الذي نكاد لا نجد له ذكراً بّين روّاد الفتح الإسلامي للمغرب، إلاّ عرضاً في نطاق السرد التاريخي المعروف الذي يقتضيه المكان والزمان.

فإليه يرجع الفضل في دفع مسار حركة الفتوحات التي توقفت فجأة، والعمل على نشر الإسلام وتثبيته واستقراره، بأرض الجزائر وإشراك أبنائها في الحياة الإسلامية لأول مرة في التاريخ.

وبعد هذا التمهيد، لنا وقفة مع المصادر والمراجع التي تناولت أحداث هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الجزائر في ظل الإسلام.

---

* سعيد عبد الفتاح عاشور "الإسلام والتعريب" مجلة عالم الفكر - المجلد - 10 الكويت 1979 م ص 169 وما بعدها.

توجيه إلى المصادر والمراجع

لاشك أن المهتم بالعلوم الإنسانية عامة، والتاريخ بصفة خاصة، يطالع هذا السؤال : لماذا التاريخ كعلم، ولماذا نهتم بدراسته ؟

المعروف، أن التاريخ، هو جزء لا يتجزأ من العلوم الإنسانية، وأحد أهم عناصرها لكنه كما أشار إليه المؤرخ هرنشو[1]، فهو ليس علم معاينة وتجربة كالعلوم الدقيقة، ولكنه علم نقد وتحقيق، وإذا كانت أقرب العلوم الطبيعية شبها به الجيولوجيا، فإن علم الجيولوجيا يدرس الأرض كما هي ليفسر التحولات التي أعطتها شكلها الحالي[2] ؛ فالمؤرخ يتناول بالتحليل الحضارة الإنسانية من خلال مراسيمه الاحتفالية المتمثلة في العادات والتقاليد من خلال معتقداته وفنونه، ومن خلال الآثار المتخلفة عن الماضي (من سكن ومعابد ومساجد، وقصور، وفنون** ليفسر بواسطتها قدر الإمكان ظاهرة الحاضر.

ولعل الباحث في التاريخ الوسيط (العصر الإسلامي) بصفة خاصة يجد نفسه معتمداً بدرجة كبيرة على نوعين من هذه المصادر، مصادر كتابية، بما فيها المصادر الأدبية، ومصادر مادية تتمثل في الشواهد والمخلفات الأثرية، وجميعها تعد أدوات البحث في التاريخ والآثار.

ودون الدخول في التفاصيل، سنسلط الأضواء على أهم (أدوات، مصادر) البحث في تاريخ الجزائر العصر الوسيط.

وقد لا نبالغ إذا قلنا، بأن الباحث في التاريخ الوسيط، يستند بالدرجة الأولى على علم الآثار الذي يمثل العمود الفقري في فهم التقدم البشري.

ولما كان هذا الموضوع يتميّز بمحدوديته الزمانية والجغرافية والمنهجية، فإننا سنركز دراستنا في الصفحات التالية، على كتب الفتوح الإسلامية التي تعد مصادر أساسية لدراسة تاريخ الجزائر في العصر الوسيط.

يعتبر تاريخ الفتوح والجهاد، من أهم الموضوعات في التاريخ الإسلامي عامة، حيث تمثل أحداثه مساحة واسعة في المصادر التاريخية.

وتلك الأحداث مقرونة دائما بامتداد الإسلام وانتشاره، وتأمين الإسلام والمسلمين في بلادهم والبلاد المفتوحة، ولا يعني ذلك بتاتاً، أن الإسلام انتشر بقوة السيف، وكان الفتح عسكريا، كما يدعى ذلك بعض المغرضين، بل نجد العكس هو الصحيح، فقد كان الفتح الإسلامي فتحا دينيا وحضاريا، لأن الإسلام نفسه هو دين فطرة فيه من المقومات الذاتية، ما أقنع الناس على الدخول فيه[3].

اهتم المسلمون بالتأريخ له في كتب مستقلة خصوصا في القرون الأولى، فألفت في كتب مختلفة، مثل (فتوح البلدان) للبلاذري و(الفتح) لابن أعثم الكوفي[4]، وقد طبع الكتاب عدة طبعات، والكتاب مليء بالمبالغات والأساطير التي لا تصدق، ومع ذلك، فالكتاب لا يخلو من روايات، يمكن الاستفادة منها من بعض الوجوه[5].

وكتاب (الردة والفتوح) لسيف بن عمر التميمي الأسيدي[6]، وفيه روايات كثيرة يستفاد منها في جوانب تاريخية مختلفة.

وهناك كتاب (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكيم[7]. وقد أجرى عبد الله أنيس الطبّاع دراسة على الكتاب بعنوان (فتوح إفريقيا والأندلس) طبعة مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 1964 م، وهو كتاب جيد في بابه ومرجعا هاماً للباحثين في (تاريخ المغرب والأندلس).

ولعبد الله بن عمر الواقدي[8] (136 - 207 هـ) العديد من الكتب المتعلقة بالفتوح إلاّ أن الكثير مما طبع منها، كتب أسطورية لا تصح نسبتها للواقدي، وإن كان من

المتوقع، أن كتبه الأصلية، ربما لا يزال بعضها موجوداً ضمن المخطوطات المحفوظة في المكتبات، لكنها لم تر العناية من الباحثين، كما أن المخطوط منها لا يتفق بعضها مع بعض في الغالب وإن اتفقت في التسمية، مما يدل على استخدام القصاص لاسم الواقدي ونسبوا أساطيرهم، وما نسجوه من روايات إليه، وبالتالي ضياع كتبه الأصلية أمام هذا الكم مما نسب إليه[9].

من هذه الكتب المنسوبة للواقدي والتي لها علاقة بتاريخ المغرب نذكر :

1. فتوح إفريقيا[01] :

ونشير بهذا الصّدد، إلى أن المصادر الفتوح الإسلامية كثيرة، إلا أنها مبعثرة هنا وهناك في المكتبات ودور المحفوظات، أو مبتورة غير كاملة، والكثير من تلك الكتب مفقودة، باستثناء بعض المصادر التاريخية التي اهتمت بوجه خاص بالمد الإسلامي وانتشار الثقافة العربية الإسلامية.

وتزخر هذه الكتب المتعلقة بالفتوح، بالأحداث الأخرى للروايات المتعددة في موضوعات شتى ذات صلة بقضايا حضارية مختلفة.

ولا شك أن رصد هذه الكتب، يتطلب العودة إلى الكتب المتخصصة في الفهرسة إذ أن معظم ما كتب منها، يعد مفقوداً أو مدمجا في كتب أخرى، وقد رصد فراتر روزنتال تسعة وعشرين ومائة[11]، كتاب في الفتوح، غير أنه بنظرة متفحصة للعناوين التي أوردها يتبين لنا، أن ما عنون بالفتوح منها هي تسعة وعشرين بحثا، وبقية ما أورده منها جاءت في مسائل جهادية عامة، أو في تاريخ قادة أو بلدان بذاتها[12]، ويبدو أن روزنتال قد استفاد من قوائم ابن النديم في (فهرسته)[13].

ومهما يكن أمر الرقم الذي أحصاه روزنتال، عن كتب الفتوح، فالذي يهمنا في هذا النطاق، هو كتب الفتوح الخاصة بالمغرب الإسلامي والأندلس، وجميعها مشرقية، وجلّها تقريبا مطبوعاً. أما فيما يتعلق بكتب الفتوح من تأليف مغاربة، فهي

مجهولة أو مفقودة، لا نكاد نعثر لها على أثر، وعلاوة على ذلك، وحتى تلك التي وصلت إلينا، فهي من القلة، بحيث لا تفي بالمطلوب، وجل اهتمامها ينصب على الأندلس، مثال ذلك، كتاب (أخبار مجموعة) لمجهول، وكتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) لابن القوطية القرطبي[14].

ولهذه الأسباب، فإننا نلجأ في كثير من الأحيان إلى كتب الفتوح المشرقية من أمثال كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري، الذي يعد من أوثق كتب الفتوح وأكثرها دقة وشمولية[15].

يليه من حيث الأهمية التاريخية كتاب (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكم المتوفى257 هـ/871 م، الذي حققه عبد المنعم عامر وطبع بمطابع لجنة البيان العربي بالقاهرة سنة 1961 م، وهو كتاب جيد في بابه، ومرجع هام للباحثين في تاريخ مصر والمغرب والأندلس.

يهمنا من هذا الكتاب الجزء الخاص المتعلق بافتتاح المغرب والأندلس الذي قام بتحقيقه والتعليق عليه بعنوان (فتوح إفريقية والأندلس) الأستاذ عبد الله أنيس الطّباع طبعة دار الكتاب اللبناني بيروت 1964 م.

نجد فيه معلومات في غاية الأهمية عن فتح العرب للمغرب عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، بدءاً من عهد الفاتح عقبة بن نافع الفهري وخليفته أبي المهاجر دينار، فحسان بن النعمان وجهوده في نشر الإسلام، وقصة صراعه وحروبه مع زعيمة الأوراس الكاهنة، التي انتهى مصيرها بالقتل، ودخول المغرب الأوسط في الإسلام، وانفعل سكانه بروح الإسلام وتشبّعوا بتعاليمه وتعوّدوا بعاداته وتقاليده، ولم يمض إلاّ وقتا قصيرا حتى حمل أبناء الجزائر لواء الإسلام والدفاع عنه ونشره في بقية المناطق : ويواصل ابن عبد الكريم حديثه غن أخبار الفتح

أيام موسى بن نصير، الذي استكمل عملية الفتح الإسلامي وهكذا، وعلى الرغم من قلة المادة الخبرية التي نجدها بكتب الفتوح، فهي ترصد كل ما يتعلق بالخراج

والعطاء من الناحية التشريعية، واتخاذ القرارات بشأنها، حيث يحدثنا البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) في عنوان مستقل عن (أحكام أراضي الخراج)، ويذكر هذا الأمر أصول تشريع الخراج، وأقوال الفقهاء فيه، وما يعتري الأراضي الخاصة من إصابات، وما تنتجه من غلات وتغيير الأحكام بتغيّر أحوالها، وغير ذلك من التفاصيل المتعلقة بها[16].

وبالإضافة إلى ذلك، تتحدث بعض الكتب عن اختلاف الفقهاء والمشرعين حول معاملة بعض الأراضي في مصر والمغرب،وهل كان عنوة أم صلحًا،وما بين علم ذلك من أحكام شرعية[17].

كما أن كتب الفتوح، وتعتبر من جهة أخرى، مرجعًا في عهود الصلح التي عقدوها مع أهل البلاد الأصليين، ولم يفت كتب الفتوح أيضًا تدوين المناظرات الفكرية والدينية التي دارت بين المسلمين الفاتحين، وبين أعدائهم من الفرس والروم، والتي كان محورها الحديث عن الإسلام وأصوله، يأتي على رأسها توحيد الخالق، وهي ديّانة الأنبياء كلهم، والحديث عن بعثة النبي صلّى الله عليه وسلّم والشريعة التي بُعث بها، وهذه المناظرات كثيرة ومتعدّدة ومنتشرة في أخبار الفتوح ورواياتها، ولا تقتصر كتب الفتوح على هذه الأمور فحسب، بل تحتوي أيضًا، على رصد لحياة فقهاء الصحابة وعلماء الشريعة، والتعريف بالقواد والأمراء المسؤولين، عن تسيير أمور الأقاليم وإداراتها بعد الفتح، وما يتصل ذلك من عزل وتعيين ومحاسبة ومراقبة وتأديب، فضلا عن ذلك فهي مصدرًا للتقسيمات الإدارية في عصور الفتح وقبلها، فمن خلالها يمكن التمييز بين الإدارة والقضاء والشرطة[18].

وهكذا فإنه برغم الأهمية التي تمثلها كتب الفتوح كمصادر لتأريخ انتشار الإسلام وإسلام المناطق والأقاليم والبلدان ودخولها في دائرة الحضارة الإسلامية، فإن مادتها الخبرية لا تفي بالحاجة، إذ ترك فجوات كبيرة تخص مسائل تاريخية وقضايا حضارية لذلك لا يقف عندها المؤرخ لفترة ما ومكان ما، بل ينبغي عليه أن

يتجاوزها إلى مصادر أخرى، فقد تبيّن لنا بعد استخلاص، ما أمكنه استخلاصه، من معلومات وحقائق، أنها لا تسمح وحدها من إنجاز بحث واضح ومتماسك العناصر، عن تاريخ الجزائر في مرحلة فتح العرب للمغرب، لا سيما في عهد حسان بن النعمان، الذي يعتبر بالنسبة للجزائر نقطة تحوّل كبرى في حياتها الروحية والسياسية والحضارية.

ولما كان موضوع الدراسة هو (تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر) فإن البحث العلمي، يحتم علينا اعتماد مصادر أخرى، لا تقل أهمية عن كتب الفتوح نفسها مادة وإحاطة وشمولية، بأحداث الفتح الإسلامي، وفتح بلاد المغرب بصفة عامة.

ولا شك، أن المؤلفات القديمة، تشكل ثروة مصدرية رائعة، وهي كثيرة ومتنوّعة، يجد فيها الباحث مادة علمية غزيرة فيما يتعلق بحركة الفتوح الإسلامية وما واكبها من أحداث ومعارك وغيرها، وهذه المصادر القديمة المتنوعة، العامة، تنقسم إلى نوعين رئيسيين :

أ - مصادر مشرقية ألفها كبار المؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبي والطبري، وابن قتيبه وابن كثير، وابن الأثير، والقلقشندي وغيرهم.

وهي من الكثرة بحيث لا نستطيع في هذه العجالة أن نذكرها جميعها، ولكن سوف نشير إليها ضمنيًا أثناء كلامنا على حملات الفتح الخاصة بفتح بلاد المغرب.

ب - مصادر مغربية لمؤلفين مغاربة أو أندلسيين، وهي التي تهمّنا أكثر لارتباطها الوثيق بموضوع بحثنا، لذلك فقد اعتمدنا أهم النصوص التاريخية عن فتح بلاد المغرب الأوسط" كالمغرب في ذكر بلاد إفريقية والغرب " لأبي عبيد البكري المتوفى في سنة (487 هـ/1094 م)، وفيه أخبار وتفاصيل كثيرة تهم فترة الدراسة، وكتاب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لابن عذاري المراكشي، الذي يعدّ مصدرًا مهمًا للتأريخ لهذه الفترة المتميزة من تاريخ إسلام الجزائر، لما تضمنه

من أخبارها وبيانات دقيقة بأسماء المعارك والقادة، والقبائل، علاوة على ذكر الخطط الحربية وأساليب القتال.

ومن المؤلفات التاريخية الأخرى، التي لها علاقة بأحداث الفتح كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لأحمد بن عبد الوهاب النويري المتوفى في سنة 733 هـ، ولا سيما الجزء الخاص بـ : تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط (إفريقية والمغرب، الأندلس، صقلية واقريطش 27-710 هـ) المأخوذ أصلا عن كتاب الأم (نهاية الأرب)، والذي قام بتحقيقه والتعليق عليه د. مصطفى أبو ضيف أحمد، ونشر بدار النشر المغربية بالدار البيضاء سنة 1983 م.

وهناك كتاب (رياض النفوس) للمالكي، الذي قام بتحقيقه ونشره د. حسين مؤنس - طبعة القاهرة 1951 م -- ففيه معلومات وتفاصيل تهم قضية الفتح بشكل عام. ومن أهم النصوص التاريخية ذات العلاقة المباشرة بموضوع البحث (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) لعبيد الله بن صالح، حققه ونشره ليفي برفنصال، بصحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد سنة 1954 م.

كما يعتبر كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) لعبد الرحمان بن خلدون، عميد مؤرخي تاريخ البربر. من أهم المصادر التاريخية التي نجد فيها مادة علمية جامعة شاملة عن ظروف الفتح الإسلامي ومصوغاته ولاسيما المجلد السادس من كتاب " العبر " الذي احتوى تفاصيل وبيانات دقيقة حول دوافع الفتح والأسلوب القيادي الذي انتهجه قادة فتح بلاد المغرب في التعامل مع طبيعة البلاد والمعاملة الحسنة مع السكان.

وخاصة تصويره لبيئات البربر، طرقة عيشهم وعاداتهم وتقاليدهم وموقفهم من الدين الجديد، ولم ينس ابن خلدون الحديث عن ملكة الأوراس (الكاهنة) وشخصيتها وأسلوبها العسكري في التصدّي للفاتحين العرب، ولاسيما موقفها من

حملة حسّان بن النّعمان وتصرفها تجاه الإسلام ووصيتها لأبنائها بالدخول في الدين الجديد.

والمصادر التاريخية التي عرضت لأحداث فتح العرب للمغرب من الكثيرة بحيث لا يمكن حصر مادتها وتقييمها في هذا التمهيد البسيط لأن ذلك يتطلب وضع مؤلف قائم بذاته، ليس هذا مجاله، وسوف نشير إلى بعضها عندما نتناول مسألة فتح المغرب الأوسط وإسلام سكان الجزائر ودورهم في حمل لواء الإسلام ونشره وتثبيت أركانه وتعاليمه في بقية أجزاء المغرب الكبير وخارجه.

حواشي

1. هرنشو ج.، علم التاريخ (تزو تعليق. ع. عباري)، دار الحداثة. ط - 1 بيروت، 1988 ص 16.
2. عبد الله فيلال، "مصادر الباحث في التاريخ القديم" – مجلة كلية الأدب تطوان – عدد 1999، 9 م، ص 187.
3. عبد العزيز بن إبراهيم العمري، "كتب الفتوح مصادر للدراسات الحضارية" مجلة التاريخ العربي. العدد 14، 2000 م، ص. 223-228.
4. هو أبو محمد أحمد بن محمد بن علي ت 314 هـ. أنظر نعين زرزور "مقدمة كتاب الفتوح"، ص 18.
5. عبد العزيز بن إبراهيم العمري، المرجع السابق ص229، ومن أشهر طبعات هذا الكتاب. طبعة بيروت. دار الكتب العلمية 1406 هـ.
6. هو سيف بن عمر الضبي الأسدي البرجمي السعدي الكوفي، كان اخباريا، عالما. عاش في العراق وتنقل في البلدان (ت 180 هـ). أنظر الذهبي، ميزان الإعتدال، ج 2، ص 255.
7. ابن الحكم هو : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري (ت 257 هـ).
8. هو أبو عبد الله بن محمد بن عمر والواقدي السهمي الأسلمي ولاء، ولد بالمدينة المنورة سنة 130 هـ.
9. عبد العزيز بن إبراهيم العمري، نفس المرجع السابق، ص 234.
10. نشر في تونس1315 هـ، أنظر (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع) معهد المخطوطات العربية 1995 م، ص 323.
11. فراز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة د. صالح العلي) بيروت مؤسسة الرسالة 1403 هـ، ص 283-287.
12. روزنتال، علم التاريخ، 273.

13. هو ابن الفرج، يعقوب بن إسحاق المعروف بالوراق (ت 380) وقد عرف اسم كتابه (لفهرست ابن النديم)، ويعتبر كتابه هذا أول مرجع بيبليوغرافي في علم المكتبات وتنظيمها وتصنيف الكتب حسب مواضيعها.

14. هو أبو بكر محمد بن عبد العزيز من علماء القرن الرابع الهجري، حقق كتابه عبد الله أنيس الطباع، وأخرجت طبعته الأولى، دار المعارف – بيروت 1415 هـ.

15. أقدم طبعات (فتوح البلدان) هي طبعة لندن 1866 م ثم طبعة الرحمانية بالقاهرة1901 م. ثم طبعة القاهرة 1932 م. ثم طبعات بيروت 1956-1957 م و1958 و1978م وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية والفرنسية. انظر، المشهداني محمد جاسم حمادي موارد البلادية عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف ج 1، ص 162.

16. أنظر، فتوح البلدان، ص 433.

17. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص 151-152.

18. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص 218.

الفصل الأول

حملة حسان الأولى وسقوط قرطاجنة

1. نسب حسان بن النعمان
2. حسان والفتح الحقيقي للمغرب
3. خط سير الجيش الفاتح
4. خطة حسان الحربية
5. الوقف السياسي والعسكري في المغرب الأوسط
6. شخصية الكاهنة
7. معركة وادي نيني
8. الوضع بعد المعركة

أ.د. صالح بن قربة

حملة حسان الأولى وسقوط قرطاجنة

1. نسب حسان بن النعمان :

هو حسان بن النعمال بن عديّ بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن الأزد، يتصل نسبه بالغساسنة الذي ينتهي نسبهم إلى آل عمرو المعروف بمزيقياء[1]، وعمرو هو ابن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن أمرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد بن الغوث[2].

ويدعى الغساسنة كذلك بآل جفنة وبأولاد جفنة، الذين قال فيهم الشاعر حسان بن ثابت هذا البيت :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبر بن مارية الكريم المفضل.

واستقر الغساسنة في البلقاء حول نبع عرف باسم (غسان) فصاروا منذ ذلك الوقت يعرفون باسم الغساسنة، وقد أشار إلى ذلك الشاعر السابق في هذا البيت :

أما سألت فأنا معشر نجب   الأزد نسيتنا والماء غسان.

خضع الغساسنة للبيزنطيين من الناحية السياسية في القرن الخامس الميلادي واعترفت بإمارتهم وقرّبوا أمراءها إليهم لتكون حليفتهم ضد الفرس.

وقد حارب آخر ملوكهم جبلة بن الايهم المسلمين في اليرموك سنة 15 هـ/636 م إلى جانب الروم،ثم أسلم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد انهزام الروم، فاسلم بعضهم وبقي بعضهم نصراني[3].

هكذا نشأ حسان بن النعمان وترعرع في بيت عريق، له ماض مجيد في القيادة والحكم، انتقل جدّه عمرو مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن إلى أرض الشام، وبذلك تتأكد نسبة حسان إلى أمراء بني غسّان الذين استقروا بالشام قبل ظهور الإسلام.

يبقى ميلاد هذا القائد العظيم مجهولا لدينا بسبب غموض تاريخ الغساسنة الذي دوّن معظمه في المراجع اليونانية، فضلا عن ما دوّن عنهم لم يكن وافيا، يضاف إلى ما سبق أن الغساسنة كانوا أقل استقرار من ملوك الحيرة، كما أن مواردهم لم تكن ثابتة دائما، ولعل السبب في هذا المشكل هو عدم اهتمام العرب أنفسهم في هذه المناطق بتدوين تواريخ الميلاد.

والملاحظ أن المصادر التاريخية التي أرّخت للفتوح الإسلامية عامة والمغربية على الخصوص لم تتحدث عن حسان بن النعمان قبل تولّيه مهمة فتح بلاد المغرب بدليل ما ذكره المالكي في كتابه (ريّاض النفوس) من أن حسان : (أول من دخلها من أهل الشام في زمن بني أمية[4].)

كان حسّان من التابعين، وقد حدّث عمر بن الخطاب رضي الله عنه[5]، كما أنه حظي بمنزلة مرموقة عند بني أمية والناس، ونظرا لخدماته وسلوكه في هذا العصر الذي تفجّرت فيه الفتوح الإسلامية فقد استحق لقب (الشيخ الأمين[6]) لثقته.

على أي حال فإن القائد الشامي الجديد الذي رشحته الخلافة الأموية لهذا العمل الحربي في مستوى القيادة الناجحة المعروفة بالانضباط والحركية.

كان لحادث استشهاد زهير بن قيس البلوي في برقة على يد الروم البيزنطيين أثر عميق في الخلافة الإسلاميه تجاه بلاد المغرب ولذلك سيكون هذا الحادث المؤلم الباعث الحقيقي على إتمام فتحها على قوة خلافة العسكرية وهيبتها أمام الروم، لاسيما بعد أن هزموا جيوش المسلمين وقتلو قادتهم الأوائل – فكان هذا العامل هو السبب الرئيسي المباشر الذي حفّز الخليفة عبد الملك بن مروان بعد أن فزع من معركة ابن الزبير، أن يعد جيشا كبيرا ليقوم بهذه المهمة العظيمة –

اختار له قائدا هو (حسان بن النّعمان الغساني[7]) – فسيّره إلى بلاد المغرب وقد جعل له الولاية عليها.

وقبل تتبع أعمال الفاتح الجديد في هذه البلاد، تتبغي الإشارة إلى تاريخ هذه الحملة ؟

فالمؤرخون جميعا لم يختلفوا في نسبة هذه الحملة إلى حسان بن النعمان بقدر اختلافهم في التاريخ الذي سارت فيه بدليل ما ذكره ابن عذاري حيث يقول : (وغزوات حسان لم تتضبط بتأريخ محقق، ولا فتحه لمدينة قرطاجنة وتونس ولا قتله للكاهنة[8].)

فابن عبد الحكم يؤرخ سير الحملة بعام 73 هـ[9] ويجعل نهايتها سنة 76 أو78 هـ، بينما يحددها ابن الأثير بسنة 74 هـ[10] كما تضاربت أيضا أقوال الغربيين في ضبط زمن قيام الحملة - فلنبحث طبيعة هذا الاختلاف الذي ربما يرجع بعضه إلى أن حسانا قام بحملتين اثنتين لا حملة واحدة - فتح في الحملة الأولى قرطاجنة ثم توجه نحو ملكة الأوراس (الكاهنة) فانهزم، أما الحملة الثانية فكان محور اتجاهها الكاهنة ثم اتجه نحو قرطاجنة ثانية، فكان سببا في اختلاف المؤرخين لتشابه أعمال القائد في كلتيهما[11]، فلم يتفقوا في السنوات التي انقضت بين مسيره الأول وحملته الثانية، ويبدو أن الخليفة عبد الملك قد أعد حملة حسان بن النعمان، ثم أبقاها في مصر فترة من الزمن نظرا لما كان يحيط بالدولة من أخطار فلما استقامت له الأمور أمر حسّان بالمسير إلى المغرب فسار.

ويرى بعض المؤرخين أن قائد الحملة سار بها إلى المغرب بمجرد ما أمّره الخليفة الجيش.

الواقع أن الخليفة الأموي لم يكن يستطيع الاهتمام بشؤون المغرب بجدية إلا بعد أن تهيأت له الظروف السياسية والعسكرية وتمكن من القضاء على ثورة الزبيريين سنة 73 هـ.

إذا ليس منطقيا أبدا أن يتخلى الخليفة عن هذا الجيش الكبير الذي بلغ تعداده أربعين ألفا، فضلا عن الأخطار التي كانت تقلق الخلافة من جهة الخوارج والشيعة.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات السالفة الذكر، نرجح أن الأعداد لهذه الحملة والإذن لها بالمسير نحو المغرب كان سنة76 هـ، بعد تطهير الخلافة من الفتن والثورات واستعادة الوحدة السياسية للدولة - ولذلك يمكن القول بأن تفكير الخليفة في هذا العمل الحربي لم يحدث إلا بعد سنة 74 هـ، ولعل المؤرخين البيزنطيين (تيوفانيس ونقفور) اللذين أورد المؤرخ ديل[12] رأيهما يلقيان بعض الضوء على تأريخ هذه الحملة، فهما يتفقان معا على أن هجوم حسان على قرطاجنة للمرة الأولى كان سنة 695 م التي توافق سنة 76 هـ، ويتفق رأي القيرواني مع رأيهما[13] ونفس الرأي الذي ذهب إليه المؤرخ الفرنسي كودل[14].

نستخلص من هذا الركام الهائل من الآراء المتضاربة أن زمن سير حسان بن النعمان يكون بين عامي 76-78 هـ[15].

وليس من المستبعد جدا أن يكون حسان بن النعمان قد أمضى سنة 74 هـ في الاستعداد للمعركة وتنظيم القوات، يضاف إلى ما سبق أن مثل هذا العمل الكبير يتطلب وقتا أطول يكون كافيا للبحث والتشاور ومعركة نوعية المقاتلتين ومدى استعدادهم البدني والمعنوي، لأن ميدان القتال مع العدو يبعد كثيرا عن مصدر إمداد المسلمين بالمؤن والعتاد.

2. حسان والفتح الحقيقي للمغرب :

إن اختيار حسان بن النعمان كقائد عام للقوات الإسلامية لفتح بلاد المغرب، يدل على أنه كان قائدًا عسكريًا ممتازًا سبق له أن خاض معارك بطولية طويلة، لابد أن الخليفة عبد الملك كان على معرفة وثيقة بالقائد الجديد وعلى ثقة بقدراته الحربية[16]، لأن الظروف السياسية والحربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط

أثبتت فشل القواد المسلمين في هذا الميدان قبله - وتبدو لنا شخصية حسان القيادية في رأي الخليفة نفسه عندما سئل فيمن يولّي أمر إفريقية من رجاله فقال : (ما أعلم أحدًا أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني[17]).

كما تبدو شخصيته أيضا من خلال ما كتبه المؤرخون، فتظهر المرهبة القيادية العالية والمرونة الشديد التي كانت مرتبطة بأعماله الحربية، وهي أعظم صفات القائد العسكري الذي يفضل البدء بالقليل في أرض يغلب عليها الشعور بالعداء والرفض[18].

فقد دلّت تجارب مؤلمة ومثيرة دفع ثلاثة من القواد حياتهم ثمنًا لها.

ولهذه الظروف جميعها كان فتح المغرب يحتاج إلى هذا الصنف من القادة الكبار الذين توفرت فيهم صفات القيادة والدبلوماسية - هكذا اختير الفاتح الجديد لإتمام فتح المغرب - هذا الفتح الذي انقضت عليه حتى هذا التاريخ خمسون عامًا دون أن يحقق المسلمون نتيجة تذكر.

وقد فسّر ابن الأثير محور اهتمام الخليفة بهذا الجيش الكبير في العبارة الآتية : فقال : (فلما علم عبد الملك قتله (أي زهير) عظم عليه وعلى المسلمون وأهمه ذلك وشغله عن إفريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير، فلما قتل ابن الزبير، واجتمع المسلمون عليه جهّز جيشًا كبيرًا واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان الغسّاني، وسيّرهم إليها في هذه السنة (74 هـ) فلم يدخل إفريقية قط (كذا) جيش مثله[19]).

3. خط سير الجيش : (أنظر خريطة رقم 1) :

أمضى حسان وقتًا طويلاً في إنجاز استحضارات جيشه وتنظيم قواته، الذي بلغ أربعين ألف مقاتل، ولذلك فلم يبالغ ابن الأثير عندما قال : (لم يدخل إفريقية قط جيش مثله).

ومن غير شك فإن الخليفة عبد الملك بن مروان قد أعطى تعليمات لقائده بالتوقف فترة من الزمن في مصر عدة لما يحدث، كما يتضح من قول ابن عذاري : (وفي سنة 78 هـ قدم حسان بن النعمان إفريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألف وأقامه أولا في مصر بالعسكر، عدة لما يحدث). ثم كتب إليه يأمر بالنهوض إلى إفريقية ويقول له : (إني أطلقت يدك في أموال مصر، فاعطِ من معك ومن ورد عليك، واعطِ الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه[20]).

ولكن أمام هذه المعلومات التاريخية يقف الباحث حائرًا عن الوقت الذي أمضاه حسان في مصر لإنجاز استحضارات جيشه الكبير، وفي فترة زمنية أذن له بالمسير إلى أفريقية ؟

والواقع أن القائد حسان لم يقض هذه المدة الزمنية في مصر دون العمل على تجهيز جيشه وأخذ كل الاستعدادات لهذا الدور الهام الذي أنيط به.

يتجلّى ذلك من عبارة ابن عذاري السالفة الذكر، من أنه كان يعمل على جمع عدد كبير من المصريين للانضمام إلى الجيش الغازي (فأعط من معك ومن ورد عليه).

وحسب الباحث محمود شيت خطاب[21]، فإن الوقت الذي يستغرقه إنجاز استحضارات مثل هذا الجيش، تسليحه وتجهيزه وتأمين قضاياه الإدارية لا يقل عن عام أو أكثر أو أقل من عام بشهور قليلة.

كانت المسافة بين مصر والقيروان في تونس حوالي 1530 ميلا[22] نفترض قطعها في 47 مرحلة نظامية في أوقات السلم، لقوات قليلة كالحملات الاستطلاعية التي لا تحتاج إلى محطّات استراحة، لكن القوات الضخمة الجرارة كجيش حسان بن النعمان، لا يمكنها قطع هذه المسافة والأميال في وقت قصير جدًا خصوصًا وأنها تحتاج أثناء مسيرها الطويل إلى محطات استراحة لجمع القطاعات المتحركة والتأكد من تجهيزها ونقليتها[23]، فضلا عن أن مثل هذه الحملة لابد أن تتحرس من العدو الذي يتربص لها بالمرصاد، بل ينبغي عليها أن

تكون في حذر مع اتخاذ الإجراءات التعبوية لحمايتها إذن فيكون مسيرها مسيرًا تعبويًا الشيء الذي يؤدي إلى تأخر حركتها.

فإذا افترضنا كل هذه المعطيات وأضفنا إليها نقاط استراحة بوحدات الجيش أدركنا أن الوقت الذي يمكن أن يستغرقه هذا الجيش من الفسطاط إلى القيروان لا يقل عن ثلاثة اشهر.

ومهما يكن من شيء فإن الغموض ما زال يكتنف تاريخ انطلاق هذا الجيش من مصر إلى إفريقية، لأن غزوات حسان بن النعمان ما زالت تستحق الدراسة والتحقيق فهي لم تنضبط بتاريخ محقق كما قال ابن عذاري، وتنتظر الباحثين الشباب المزيد من الدراسة والبحث والتقصير في المسألة.

بعد تحرك هذه الحملة من مصر، سلك حسان نفس الطريق التقليدي، فاجتاز برقة وطرابلس فلم يجد مقاومة، حتى دخل سهل تونسي، ويبدو أن القائد قد رسم استراتيجية كأساس لتحركه في المغرب، وهي الاتجاه نحو الشمال حيث كانت (قرطاجنة) مركز نفوذ البيزنطيين.

لما توقف حساب بطرابلس أعاد تنظيم قواته وجمع المعلومات ووضع مخطط العمليات[24]، وهناك انضم إليه المسلمون من الأفارقة وعين عليهم هلال بن ثروان اللواتي وهو أول قائد إفريقية يتولى مسؤولية القيادة (فمضى في جيش كبير حتى نزل طرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من أفريقية وطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي[25]).

وهلال هذا لا نجد له ذكرًا في المصادر الإسلامية، باستثناء ابن عبد الحكيم، كما أن شخصية هذا اللواتي لم يشرحها لنا هذا المؤرخ، ولكن ورود هذا الاسم في هذه الفترة بالذات يثير عدة تفسيرات، منها أن هلالاً اللواتي كان مسلمًا فانضم إلى جيش المسلمين وناصرهم فمنحوه القيادة في جيشهم، والتفسير الآخر الذي يمكن فهمه هو أن معظم أنصار المسلمين في مسيرهم هذا كانوا من البربر (البتر).

ثم واصل حسان مسيره حتى بلغ قاعدة المسلمين القيروان، والملاحظ أن المسلمين لم يصادفوا مقاومة من السكان في القيروان، الشيء الذي ساعد العرب على اتخاذ خطة حربية جديدة لقتال العدو.

4. خطة حسان الحربية :

ذهب المؤرخ الفرنسي (ديل – Diehl) إلى أن البيزنطيين عندما استولوا على برقة استطاعوا أن يعيدوا الولاية الداخلية، ولكن الواقع السياسي عكس ذلك، إذا لو كان الروم فعلاً قد سيطرت على إفريقية لوقعت اشتباكات بينهم وبين المسلمين وهم في طريقهم إلى القيروان.

كانت خطة القائد حسان التوجه نحو الشمال حيث كانت (قرطاجنة) دار ملك إفريقية وبها يومئذ من جموع الروم أمم لا تحصى ولم يكن المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة،بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها أموالاً أو يقتطعون منها بلادًا مجاورة كما فعل أبو المهاجر دينار عندما اقتطع منها جزيرة شريك ثم يتركونها لأهداف أخرى. لذلك كانت استراتيجية حسان هي القضاء على قوة البيزنطيين المتمركزة في الشمال حيث (قرطاجنة) التي استعادت قوتها ويشرح لنا عبد الله بن صالح تصميم حسان بن النعمان على قتال الروم في مصر... : (فسار حتى دخل القيروان، فسأل عن أي ملك عظمت شوكته بالمغرب الأوسط فقيل له (ملك قرطاجنة) بين تونس وقرطاجنة اثنا عشر ميلا،وبين تونس والقيروان مائة ميل، فذهب حسان حتى دخلها بالسيف فجمع من حولها وخرّبوها[26]).

5. لقاء الطرفين وسقوط (قرطاجنة) :

لم يتوقع الروم البيزنطيين مفاجأة المسلمين لهم بهذه السرعة المذهلة فقد أحدثت هذه المفاجأة أو المباغتة الرعب والخوف بين القوات البيزنطية التي

أسرعت لحماية عاصمتها، وقد صوّر المؤرخ ابن الأثير الصدام بين الفريقين أصدق تصوير حيث قال : (فلما ورد القيروان تجهز منها وسار إلى قرطاجنة، وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، ولم يكن المسلمين قد حاربوها، فلما وصل إليها (أي حسان) رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة فقاتلهم وحاصرهم وقتل منهم كثيرًا، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلاً ذريعًا. وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا إليه خوفًا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في صطفورة وبنزرت وهما مدينتان فسار إليهم وقاتهلم ولقي منهم شدّة[27]).

نستنتج من كلام ابن الأثير ظهور قوتين كبيرتين في هذه الحرب هما البربر والروم، وتحالفهم على حرب المسلمين، لذلك أظهر حسان بلاء في القضاء على كل روابط هذا التحالف بين البيزنطيين وأهل إفريقية بتدمير تجمعهم في الساحل، هكذا انتصرت القوات الإسلامية الفاتحة على العدو وسقطت عاصمته التي تعتبر أقوى معقل بيزنطي عرف في المغرب.

يضاف إلى ما سبق أن المسلمين لم يسبق لهم أي اتصال بقرطاجنة منذ دخولهم إلى بلاد المغرب، ويرجع الفضل في هذا العمل العسكري الرائع إلى القيادة الناجحة التي جعلت من حسان بن النعمان أول فاتح مسلم طرق أبواب قرطاجنة.

بعد أن قضى على فلول الروم والبربر، قرّر العودة إلى القيروان - لكن الروم عادوا إلى (قرطاجنة) للاعتصام بها – لأن سياسة البيزنطيين بعد فرارهم منها كانت تهدف إلى محاولة الهجوم عليها بعد خروج المسلمين منها[28]. – فحصنوا المدينة من جديد للاحتماء بأسوارها في حالة عودة القوات الإسلامية لمحاربتهم.

وهذا ما حدث فعلاً وصول الأخبار إلى حسان أسرع بمن معه مرة أخرى إلى قرطاجنة كما يتضح ذلك من نص ابن عذاري الذي يقول فيه : (ترحل حسان ونزل

عليها فحاصروها حصارًا شديدًا حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلا ذريعًا، وسباهم ونهبهم، وأرسل لمن حواليها، فاجتمعوا إليه مسرعين، خوفًا من عظم سطوته، وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد أمر بتخريب قرطاجنة وهدمها حتى صارت كأمس الغابر[29]).

ونلاحظ مبالغة ابن عذاري في وصف خراب مدينة (قرطاجنة) فقد دلت الأحداث فيما بعد على أن المسلمين لم يخربوا المدينة كلها، بل بقيت على درجة كبيرة من القوة والمنعة حتى أن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد سنوات، وهذا ما ذكره النويري بقوله : (فهدم المسلمون ما أمكن منها[30])، ولم تصبح قرطاجنة قاعًا صفصفا كما ذكر ابن عذاري.

6. المطـاردة :

بعد أن تمكن القائد حسان من تتبع فلول البيزنطيين والبربر الذين التجأوا إلى مدينتي (باجة) و(البونة) عاد بجيشه إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا[31]، ويستريحوا من هذه الحرب الطويلة.

ولكن قائد القوات المسلحة الإسلامية لم يتفطن إلى أن الروح ما داموا يحتلون بعض القلاع والحصون على الشريط الساحلي سوف يتصلون بالإمبراطورية البيزنطية لطلب النجدة، ظنا منه أن الجبهة الشمالية قد خصلت للمسلمين. لقد كانت معركة قرطاجنة الأولى حاسمة لأنها أدت إلى اندحار الروم اندحارًا حاسمًا في المغرب، كما كانت قرطاجنة الثانية ومعركتي صطفورة[32] وبنزرت[33] من المعارك التي تشتيت قوات البيزنطيين وحلفائهم من البربر، ومن نتائجها استثمار النصر الذي أعقبه إخلاء منطقة قرطاجنة من تمركز بقايا قوات الروم،ومنها يبدوا قرار حسان في الإقدام على هذا المعارك الثانوية قرارًا صائبًا، لأنه لو تلاك تلك القوات دون حرب لتجمعت من جديد ولساعدت في عودة الروم مرة ثانية إلى

قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من جزيرة صقلية أو من الأندلس فيستعيدون كل ما خسروا من مدن ومناطق أخرى.

كان حسان بن النعمان موفقًا في إصدار قراره بالعودة إلى القيروان، وإقامته فيها حتى برئت جروح أصحابه[34]، وأراح بها أيامًا[35]، فقد أتاحت له هذه العودة تحقيق أمرين مهمين :

1. فرصة استكمال تدابير الجيش الإدارية، وإعطائه فترة راحة حتى يشفوا من جراحهم ويكونون على أهبة الاستعداد للدور القادم.
2. النظر في الاستحضارات اللازمة واتخاذ خطة حربية جديدة هي التوجه رأسا إلى المنطقة الداخلية للقضاء على حركات التمرد التي تزعمتها ملكة الأوراس الكاهنة.

7. الموقف السياسي والعسكري في المغرب الأوسط :

بعد مقتل كسيلة زعيم قبيلة أوربة البرنسية انتقلت زعامة البربر إلى قبيلة جراوة البترية، وقد صور ابن خلدون الحالة السياسية أصدق تصوير حيث يقول : (واضطربت إفريقية نارًا، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظمهم شأنًا يومئذ الكاهنة ذهيا بنت ماتيه بن تيفان ملكة جبل الأوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعمائهم[36]).

تلك أيضا صورة الأوضاع السياسية في المغرب الأوسط عن البربر، فماذا عن الموقف السياسي للمسلمين في القيروان ؟

لم يكن قائد القوات الإسلامية يعلم بأمر الكاهنة وقومها وما كانت عليه من قوة السلطة بدليل ما يرويه ابن عذاري في النص التالي... : (ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية، ليسير إليه فيبيده أو يسلم فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة وجميع من بإفريقية من الروح منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون، فإنه قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضد ومعاند[37]).

8. شخصية الكاهنة هل هي حقيقية :

إن اسم الكاهنة كشخصية تاريخية ما زال يحيطها الكثير من الغموض، فقد تضاربت حولها الآراء واختلفت وجهات النظر عند المؤرخين اختلافًا بينًا،فالبعض يميل إلى إنكار وجودها أصلاً معتمدين في ذلك على ما يشوب أخبارها من أساطير، ومن هؤلاء (ليبو) الذي ذهب إلى أن الكاهنة كشخصية تاريخية ما هي إلا البطريق يوحنا[38]، فنحن لا نؤيد هذا الرأي الذي لا يعتمد على أساس علمي صحيح، فالمصادر العربية الإسلامية لا تؤيده، فقد اتفقت كلها على حقيقة وجود البطريق يوحنا الذي استولى على مدينة قرطاجنة في فترة زمنية معروفة، كما أشارت تلك المصادر إلى الدور السياسي والعسكري الذي لعبته الكاهنة كملكة في مقاومة زحف المسلمين الفاتحين دفاعًا عن سلطانها وحدود مملكتها.

ولكن ابن خلدون الذي يعتبر من أوثق المؤرخين في تاريخ البربر يؤكد حقيقة هذه الشخصية التاريخية في العبارة التالية : (وكانت زناتة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعًا وبطوناً،وكان موطن جراوة منهم جبل أوراس... وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت ماتية... وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم من سلفهم وربوا في حجرها فاستبدت عليهم وعلى قومها بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم[39]).

وقد نص ابن الأثير أيضا على وجود هذه المرأة التي حضيت في قومها من الناحية السياسية بمنزلة الملك والرياسة فقال : (كانت امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة[40]).

يتضح مما تقدم أن الكاهنة حقيقة تاريخية عاشت في المغرب الأوسط في القرن الأول الهجري – الثامن الميلادي – كانت في مستهل حياتها بالأحداث السياسية عبارة عن زوجة أحد رؤساء قبيلة (جراوة) ولما توفي زوجها هذا ترك لها

ولدين من أصلين مختلفين، أحدهما بربري والآخر يوناني[41]، كانا قد أوصى لهما بالرياسة في قبيلتهم. كانت هذه المرأة مهابة الجانب، فاستطاعت بقوة شخصيتها أن تتولى الوصاية على ولديها، ولم تستأثر بالسلطة من ولديها كما يزعم ابن خلدون، لأن الأحداث التالية تؤكد عكس ذلك تماما فقد كانت شديدة بالحب لهما.

أما عن حياتها السياسية بعد وفاة زوجها فيذكر بعض المؤرخين[42]، وجود علاقة بينها وبين زعيم طائفة البرانس كسيلة الأوربي، وأن لها يد في مقتل عقبة بن نافع الفهري، فلو سلمنا بصحة هذا الرأي يكون احتكاكها بالمسلمين قد تم قبل مجيء حسان بن النعمان، غير أن الوقائع التاريخية لا تؤيد وجود أية علاقة بينهما، بدليل أن مقاومة كسيلة للمسلمين كانت تمثل بالدرجة الأولى زعامة البرانس الذين اعتنقوا النصرانية وتشربوا بالثقافة اللاتينية، فضلا عن أن حركة كسيلة نفسه كانت تتسم بروح الانتقام والثأر لما لحق بزعيم البرانس من المهانة والذل على يد عقبة بن نافع والتي كانت سببا في ارتداده عن الإسلام ومحاربة المسلمين، في حين كانت مضارب قبائل البتر بزعامة الكاهنة بعيدة عن النفوذ والثقافة البيزنطية، واحتفظت باستقلالها في الجبال والهضاب، تعيش حياة البداوة على النمط الخاص بهم، كما كان يدين أفرادها بالديانة اليهودية[43]، أو الوثنية.

بعدما عرفنا حقيقة استقلال هذه المرأة بقومها من جراوة في منطقة جبل أوراس، وأنها لم تكن على صلة بحركة كسيلة ولا بالأحداث والوقائع التي كانت تجري في إفريقية، نبحث الآن عن دوافع مقاومة زعيمة الأوراس للمسلمين، وطبيعة حركتها وآثارها على الموقف السياسي في المغرب ؟

9. موقف الكاهنة من الفتح الإسلامي :

يتبين من الأحداث والوقائع الآتية بأن حركة مقاومة قبائل البتر بزعامة الكاهنة للمسلمين – كانت ذات طابع محلي خالص، بدليل أن قبيلة جراوة لم تكن تعرف

أهداف المسلمين ورسالتهم السماوية في المغرب الشيء الذي جعلها تتخوف من اقتراب زحف المسلمين من موطن استقرارها بالأوراس، فاستعدوا لكل قوتهم لمقاومة هؤلاء دفاعًا عن استقلالهم وحريتهم.

ويبدو أن الكاهنة نفسها لم تفكر في الحرب إلا عندما بلغتها أخبار قدوم المسلمين نحوها فقد كانت من القوة والسلطان بحيث يسميها عبيد الله بن صالح بـ ((ملكة المغرب))[44]، وبالغ كثير من المؤرخين في وصف سلطان ونفوذ هذه المرأة (وجميع من بإفريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون. .. فإن قتلتها دان لك المغرب كله[45]).

يفهم من رواية ابن عذاري السابقة، أن نفوذ الكاهنة السياسي كان يشمل كل أجزاء بلاد المغرب في ذلك الوقت، وهذا غير صحيح، وبعيد عن منطق الأحداث، ولا يمكن الأخذ به، بدليل أن كلام ابن خلدون في هذا الشأن أكثر وضوحًا وأقرب إلى الحقيقة والصواب – فهل يجعل معالم حدود هذه المملكة لا تتعدى جبل أوراس... : (وكان أعظمهم شأنًا يومئذ الكاهنة... ملكة جبل أوراس وقومها جراوة ملوك البتر وزعماؤهم[46]).

وما دمنا بصدد الحديث عن شخصية الكاهنة نشير إلى أن هناك من المؤرخين الغربيين من فسر حركتها على أنها حركة محلية تمثل الجنس البربري الذي رفض الخضوع لحكم المسلمين وإداراتهم[47].

ويرى (كودل) بأن حركتها قد أثارت شعورًا وطنيًا[48].

والواقع أن حركة الكاهنة لم تكن سوى مجرد حركة محلية هدفها الدفاع عن سلطتها وكيانها السياسي لمملكتها - فلما أدركت الأخطار التي تحيط بها من جراء قدوم القوات الإسلامية الفاتحة نحوها رأت في هجومهم على منطقتها قضاء على سلطانها وزعامتها الروحية، فاستعدت لمحاربتهم وقتالهم اعتقادا منها أن هدفهم هو السلب والنهب – ولكنها لما أدركت الغاية التي ينشدونها وأهدافهم السامية

أوصت أبناءها بالدخول في الإسلام وتبع ذلك بطبيعة الحال دخول جميع قبائل البتر في الإسلام. والأحداث الآتية تكشف لنا عن نوايا هذه المرأة البطلة التي وقفت موقفا صامدا في وجه الجيش الإسلامي الفاتح.

10. معركة وادي نيني : (خريطة رقم 1) و (خريطة رقم 2) :

سبق أن رأينا كيف أن القائد العربي حسّان لما وصل إلى القيروان اتخذها مركزا لعملياته العسكرية، ونجح في تطبيق خطة حربية جديدة تقوم على مواجهة الروم والبربر منفردين، فهذا الأسلوب التاكتيكي الجديد، يضمن للمسلمين القضاء على القوات الطرفين الواحدة بعد الأخرى.

هكذا كانت خطة حسّان هي التوجه نحو الداخل حيث تتجمع قوات الكاهنة، عزم القائد العربي على حربها، فخرج إليها بجيوش المسلمين، فلما بلغ مكان يقال له (مجانة[49]) نزل بها، وكانت قلعة تحصّن بها الروم، فلم يحاربهم وتركهم[50]، فلما بلغ الكاهنة نبأ زحف المسلمين إليها، زحفت من جبل أوراس (في عدد لا يحصى ولا يبلغ بالاستقصاء[51] وسبقته إلى مدينة باغاية[52]).

لقد كانت خطة الكاهنة السير بجيشها إلى باغاية الحصينة (التي تقع على سفح الجبل والتحم في الدروب الموصلة إليه)، كانت موفقة في اختيار هذا المكان الاستراتيجي لترقب تحركات المسلمين، وتكون في الوقت قريبة من قبيلتها (جراوة) الأوراس – كي يسهل عليها طلب الإمداد - ولكن الذي حدث لم يكن متوقعا تماما، فقد عمدت إلى هدم مدينة باغاية التي قد يتحصن بها المسلمين – كانت خطة حسّان هي المباغتة في الهجوم قبل أن يتم عدوّه استعداداته.

أما أسلوب الكاهنة في قتال المسلمين فهو عدم الاعتماد على المعاقل والحصون، بل كانت تفضل اللقاء في الأرض الفضاء ومنازلة خصومها بنفس السلاح بالسيوف والحراب والأقواس والسهام وغيرها : يعني هذا الأسلوب عنف

المقاومة التي سيواجهها المسلمون الفاتحون، إذا أخذنا في الاعتبار الظروف التي كانت تحيط بجيش حسّان على أثر عودتهم من حرب البيزنطيين في قرطاجنة، ولم يفكر القائد العربي في الاحتماء بالقلاع، بل زحف إليها فالتقوا على نهر البلاد[53].

وحسب د.حسين مؤنس[54] فإن خط سير جيش المسلمين إلى هذه المعركة كان من القيروان وسار محاذيًا (واد فكا). ثم سار حتى وصل تسبة على المجرى الأعلى لواد ملح، ومن تبسة اتجه شمالا بشرق واد كثير النهيرات التي تصب في (جرعة الطرف وهناك عسكر وجعل ينتظر الكاهنة.

سأل حسّان يستوضح أخبار الكاهنة، فقيل له : (إنها أقبلت في عدد لا يحصى). فقال لهم : (دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه[55])،فمالوا إلى نهر نيني[56] فنزل عليه[57]، فرحلت الكاهنة حتى نزلن على الوادي المذكور. فكان هو يشرب من أعلى الوادي، وهي في أسلفه، فلما توافت الخيل دنا بعضهم من بعض، فأبى حسّان أن يقاتلها آخر النهار[58] – وأبى أن يقاتلها بالليل – فبات الفريقان على سروجهم فلما أصبحوا زحف بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالا شديد لم يسمع بمثله، وصبر الفريقان صبرًا لم ينته إليه أحد إلى أن انهزم حسّان بن النعمان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة العرب قتالا ذريعًا، وأسرت ثمانين رجلا من أصحابه، وسمى ذلك الوادي العذاري واتبعته الكاهنة حتى خرج من عملا قابس[59]، ولكن الهاكنة أحسنت معاملة الأسرى المسلمين وتركتهم إلا خالد بن يزيد العبسي[60] الذي كان أشهر رجال حسّان فحبسته عندها، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلوّ فأمرت به فلتّ بزيت، والبربر تسمى ذلك : (البسبسة[61]) وقالت لخالد : (ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولديّ) فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت، وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثدييّ ففعلا فقالت : (لفق صرتم إخوة[62]).

11. بعد المعركة :

انهزم جيش المسلمين في هذه المعركة العنيفة، وانتصرت الكاهنة عليهم فانسحبوا إلى إقليم برقة، حيث أقاموا هناك في موضع مارال إلى الآن يعرف باسم قصور حسان، وكانت آثار هذه المعركة عميقة الأثر في نفوس المسلمين كما يفهم من عبارة الدباغ حيث يقول : (وظن المسلمون أنه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير[63]).

وخرج المسلمون من إفريقية، وأسر ثمانون من جندهم المقاتلين - طيلة خمس سنين. فهل من أسباب كانت وراء انتصار البربر على المسلمين في هذه المعركة ؟

حقيقة يثير انهزام المسلمين أمام هذه القوة عدة تساؤلات، منها هل كان السبب في ذلك قلة جيش المسلمين وتفوق جيش الكاهنة عدة وعددا - فقد كان جيشهم أربعين ألفا أو يزيدون انتصروا على أقوى معقل للبيزنطيين وهو قرطاجنة،أم تراجعهم من جراء نقص التدابير الإدارية ؟[64] لكن الأحداث بينت قدرته الإدارية في التسيير حتى أنه كان يهتم بكل تفاصيل تحركات العدو.

أكان انهزام المسلمين مرهون بضعف قيادتهم، وقوة قيادة البربر؟ صحيح أن زعيمة جبل أوراس كانت تتمتع بصفات القيادة الممتازة، يتضح ذلك من سيطرتها على وحدات جيشها سيطرة تامة بحيث بعثت فيهم روح الحماس والإقدام على قتال المسلمين، يدل على ذلك مطاردتها لقوات المسلمين المندحرة حتى قابس، وهذا يعني أن الكاهنة تسير على خطة حربية

واضحة، وهي طرد المسلمين خارج حدود مملكتها السياسية، ولا يعني أبدا انتصار الكاهنة على حسان أنه لم يكن يملك قيادة ممتازة، لأن الأحداث التالية تكشف قوة شخصيته القيادية، وأنه ليس بالقائد الضعيف.

إذا أين يكمن سبب فشل المسلمين في هذه المعركة التي جمعتهم مع القوات البربرية ؟ لقد فشل المسلمون هذه المرة، لأنهم قاتلوا بدوا مثلهم يجيدون القتال في الميدان طال عهدهم بترال البيزنطيين[65]، اغتر المسلمين بكثرتهم واستهانوا بقوة عدوهم، واستخفوا بقيادة الكاهنة وظنوا أن الانتصار على هؤلاء سيكون حليفهم، وكما يقول محمود خطاب شيت: فقد وقعوا في الخطأ الذي وقع فيه جيش الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة (حنين)[66] "إذ أعجبتكم كثرتكم فلن تغني عنكم شيئا"...

والحقيقة إن سياسة التخريب التي تتزعمها الكاهنة في تصرفها الكاهنة تؤكد في وضوح وجلاء أنها لم تكن على صلة بالروم البيزنطيين – لأن سياسة هدم الحصون والقلاع التي كانت تحيط بمدينة باغاية، لا تقرها ولا ترضى بها سياسة البيزنطيين التي كانت تشجع السكان أثناء تحالفهم السابق الاعتماد على المدن والحصون لصد الزحف الإسلامي[67].

وهذا الموقف من الكاهنة يعطينا صورة واضحة على أن حركتها ذات طابع محلي، إذ اكتفت بطرد المسلمين وأمنت حدود مملكتها، وعادت إلى جبل أوراس، فسياسة الكاهنة هذه تدحض ما ذهب إليه كودل – Caudel ذن أنها كانت تريد إقامة إمبراطورية[68]. ومهما قيل بشأن تاريخ هذه المرأة، فقد شخصية ذات نفوذ وكلمة مسموعة بين أفراد قبيلتها واستطاعت أن تقود جيوش.

حواشي

1. ذكر حمزة الأصفهاني في تسمية عمرو بمزيقياء تفسيرين، أحدهما ' : أن عمرًا إنما سمي مزيقيا لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حلتين لئلا يرتديهما غيره، فسمي هو مزيقيا، وسمى والده المزاقية، فهذا قول : (إنما سمي مزيقيا، لأن الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عندهم بهم من سير العرم)، أنظر (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء – برلين 1340 هـ)، ص 77. ولن الباحث تيودور نلدكه يأخذ بالتفسير اثاني ويرى بأن أصل كلمة (مزيقيا) مأخوذة من قوله تعالى : "فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث، ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور". الآية 19 من سورة سبأ.
2. الأصفهاني، تايخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص 77. المسعودي، مروج الذهب ج 2، (القاهرة 1958)، ص 106-107، التنبيه والأشراف - بيروت، 1965، ص 186.
3. ابن خليكان : وفيات الأعيان (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) القاهرة 1948 م، جزء4، ص 439.
4. المالكي : رياض النفوس ج1، ص 31.
5. ابن عساكر : تاريخ ابن عساكر الكبير – دمشق 1329 هـ – ج. 4، ص 146.
6. السلاوي : الاستقصاء ج. 1، ص 92.
7. يعتبر حسان بن النعمان قائد عربي من خريج المدرسة العسكرية التي أمدت جبهة المغرب بالقواد - هذا القائد لم يعش حياته العسكرية أو شطرًا منها في الميدان الجديد، أمثال عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج وعقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوي، إنما عاش في الشام بعيدًا يرقب أحداثها.
8. ابن عذاري : البيان المغرب، ج.1، ص 39.
9. ابن عبد الحكيم : فتوح إفريقية والأندلس، ص 62.
10. ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج.4، ص 31، يجعل ابن خلدون تاريخ الحملة سنة 69 هـ (العبرة ج 6، ص 312) ؛ ابن عذاري سنة 78 هـ (البيان المغرب، ج 1، ص34) ؛ المالكي سنة 69 هـ (رياض

النفوس، ص 31) ؛ أما ابن ناجي والدباغ فيجعلانها سنة 69 هـ ت بينما ابن أبي دينار القيرواني فقد تردّد بين سنوات 76-77-79 هـ (المؤنس، ص 33).

11. د. حسين مؤنس : المرجع السابق، ص 235.

12. د. إبراهيم بيضون : الدولة العربية في إسبانيا (ط. دار النهضة العربية) بيروت 1980، ص 49.

13. المالكي : رياض النفوس، ص 31.

14. د. إبراهيم بيضون : المرجع السابق، ص 49.

15. ابن الأخير ؛ الكامل في التاريخ، ج 1، ص 142.

16. د. إبراهيم بيضون : الدولة العربية في إسبانيا (ط. دار النهضة العربية) بيروت 1980، ص 49.

17. المالكي : رياض النفوس، ص 31.

18. د. إبراهيم بيضون : المرجع السابق، ص 49.

19. ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 1، ص 142.

20. ابن غذاري ؛ البيان المغرب، ج 1، ص 34.

21. لجزء الأول (ط. 3. دار الفكر، 1978)، ص 176.

22. الميل يساوي 1600 متر.

23. محمود خطاب شيت : قادة فتح المغرب، ص 176-177.

24. بسّام العسلي : فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، ج 2 (دار الفكر بيروت، 1977)، ص 173.

25. ابن عبد الحكيم : فتوح إفريقية والأندلس، ص 62.

26. عبد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب – مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1954، ص 221.

27. ابن الأثير : الكامل، ج 4، ص 143.

هنري ما سيه : الإسلام (ترجمة)، ص 7.

- Diehl, op. cit, p.583.
- G. Sorogorsky ; Histoire de l'Etat Byzantine, pp.169-170.

28. البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 37.

29. ابن عذاري : المصدر السابق، ص 35.

30. د. جسين مؤنس : المرجع السابق، ص 240.

31. النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب (ط. دار الكتب المصرية القاهرة)، ص 74 ب.

32. ابن الأثير : الكامل، ج 4، ص 143.

33. بلدة من نواحي إفريقية. أنظر معجم البلدان، ج.5، ص 356.

34. المالكي : رياض النفوس، ص 32.

35. ابن عذاري : البيان، ج 1، ص 37.

36. ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 218.

37. ابن عذاري : المصدر السابق، ص 37.

38. يقول ليبو : (أحاط العرب الذين يغرمون بغريب الحديث غرامًا شديدًا، قصة هذه الثورة بحور من الخيال فيذهبون كما تزعموا روايتهم إلى أنه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الأمر، وهذه الكاهنة كما استبان لنا من أوثق العلماء ليست إلا البطريق يوحنا نفسه، أظهره المؤرخون في شكل امرأة لأنه كان خصيًا)، نقلا عن د. حسين مؤنس : المرجع السابق، تعليق، ص 242.

39. ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 218.

40. ابن الأثير : الكامل، ج 4، ص 143.

41. ابن عذاري نفس المصدر، ص 37.

أنظر أيضا :
– Encyclopedie de l'Islam, Art KAHINA,T.3, pp .67-68.
– Gautier.E.F .le padde de l'Afrique du Nord, pp .258-262.

42. ابن خلدون : نفس المصدر، ص 217-218.

43. ابن خلدون : نفس المصدر، ص 208.

44. عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب، ص 228.

45. ابن عذاري : نفس المصدر، ص 35.

46. ابن خلدون : المقدمة : نفس المصدر، ص 218.

47. Mercier, E. Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête Française (Constantine) 1888-91 : pp. 214-215.

48. Fournel H., La Berberies, Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes (1861), pp. 217-219.

49. مجانة : مدينة قديمة، بينها وبين القيروان خمس مراحل - أنظر (ياقوت معجم البلدان - ج 7، ص 386).

50. المالكي : رياض النفوس، ص 32.

51. بن عذاري : البيان، ص 35 – أشر المؤرخ (Mercier) إلى أن زعيمة الأوراس كانت في فترة انشغال حسّان بحروب البيزنطيين – تحشد وتجمع القبائل وتحرضها على قتال المسلمين.

52. باغاية : مدينة كبيرة تقع بين مجانة وقسنطينة - معجم البلدان ج 2، ص41

53. ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص 63 – نلاحظ اختلاف المؤرخين حول اسم هذا الموضع الذي جرت فيه أحداث المعركة، فابن الأثير يسميه نهر نيني (الكامل ج 4، ص 143) وابن خلدون يسميه مسكيانة (العبر ج 6، 218)، بينما يذكر عبيد الله بن صالح أن جيوش حسّان والكاهنة (اجتمعوا إلى وادي ترضى) – انظر نص جديد عن فتح العرب للمغرب، (نشر ليفي بروفنصال – Levi provençal) في صحيفة المعهد المصري – مدريد 1954 ، ص 222 – أما ياقوت في (معجم البلدان، ج5 ، ص 339) أن (نيني... هو نهر مشهور بإفريقية في أقصاها) ويسميه ابن عذاري بـ (وادي العذاري) – البيان، ص 36 – وكذلك صاحب الاستقصاء، ج1، ص 83، فيسميه هذا الأخير بوادي ترضى – وانظر أيضا بخصوص هذا الموضوع :

– CH. A. Julien Histoire de l'Afrique du Nord, p.21.

54. د. حسين مؤنس، نفس المرجع 247.

55. المالكي : رياض النفوس، ص 32-33.

56. نيني : نهر كبير بالقرب من مدينة مسكيانو.

57. ابن الأثير : الكامل ج 4، ص 143.

58. ابن عذاري : البيان ج 1، ص 36.

59. قابس : تقع بين طرابلس وصفاقس على الساحل. أنظر معجم البلدان، ج7، ص 2 – ابن عذاري : نفس المرجع، ص 36. – السلاوي، الاستقصاء، ج 1، ص 83.

- Becker, Mahomet and Islam ch.XII

- In Cambridge Medieval History – Y 2 – (V 2 Pondon 1967), p. 370.

60. المالكي : رياض النفوس، ج 1، ص 33 – الدباغ، معالم الإيمان، ج 1، ص 51.

61. المالكي : نفس المصدر، ص 33-34.

62. كانت هذه عادة رضاع عند البربر إذا فعلوها يتوارثون بينهم – البيان ج 1، ص 37.

63. الدباغ : معالم الإيمان ج 1 ، ص 62.

64. محمود خطاب شيت : قادة فتح المغرب، ص 184.

65. د. حسين مؤنس : نفس المرجع، ص 248.

66. محمود خطاب شيت : قادة فتح المغرب، ص 184.

67. د. إبراهيم أحمد العداوي : الأمويون والبيزنطيون – القاهرة 1963، ص 254.

68. أنظر : Caudel, op.cit, T.II, p. 160 –

الفصل الثاني

حملة حسان الثانية والقضاء على النفوذ البيزنطي

1. الوضع السياسي والعسكري

أ. بالنسبة للبربر

ب. بالنسبة للمسلين

جـ. الاستخبارات

2. اهتمام الإمبراطورية البيزنطية بالمغرب

أ. عودة حسان إلى إفريقية

ب. لقاء الفريقين

3. المعركة الفصلة بئر الكاهنة

أ. نهاية النفوذ البيزنطي

ب. عزل حسان بن النعمان

أ.د. صالح بن قربة

1. الوضع السياسي والعسكري في المغرب بعد خروج المسلمين منه:

أ - بالنسبة للبربر:

ترك خروج المسلمين من إفريقية بعد هزيمتهم على يد الكاهنة في معركة واحي نيني البلاد تعيش في حالة من الفوضى والاضطرابات السياسية التي شملت مصير المسلمين الضعفاء الذين تولى شؤونهم أبا صالح (واستخلف على إفريقية أبا صالح[1]).

كنا قد رأينا كيف اكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في قلب الأوراس، ثم تتبعتهم حتى أخرجتهم من حدود إفريقية، ولم تسر إلى القيروان[2] فتقضي على المسلمين فيها ساعة تشاء، (ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها من الجبل وأطلقت أسرى المسلمين سوى خالد فإنها اتخذت عنده عهدا بإرضاعه مع ولديها وصيرته أخًا لهما وأقامت في سلطاني إفريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسّان ونفت العرب من بلاد المغرب[3]).

أعجبت الكاهنة بخالد بن يزيد وتبنته ليكون لها عينًا على سياسة وخطط حسّان في الحرب. هكذا ظلت مدينة القيروان كما هي قاعدة حربية للمسلمين في قلب إفريقية، إذ لم تجرؤ الكاهنة على التقدم إليها – لأن تهديدها لهذه القاعدة الإسلامية بالدمار والخراب، وسكانها غير المحاربين بالفناء، لا يخلو من إثارة شعور البربر المسلمين على الكاهنة نفسها مما يؤدي إلى خلق المشاكل لها دون مبرر[4].

ولعل أهم من هذا كله هو أن سكان الكاهنة منطقة الأوراس جلهم من البدو يحتاجون إلى كثير مما تنتجه المدن من مواد غذائية وصناعية، يضاف إلى ما سبق ظاهرة نفسية تتمثل في ميل البربر الشديد إلى المسلمين لرحمتهم والتزامهم بمبادئ الحق والعدل[5] والإنصاف، لهذه الاعتبارات مجتمعة رأت الكاهنة في أن بقاء سكان مدينة القيروان لا يشكلون خطرًا من الناحيتين العسكرية والأمنية.

على الرغم من ذلك فإن الكاهنة لم تطمئن إلى بقاء المسلمين في (برقة) التي اتخذها حسّان قاعدة له لقربها من البربر والبحر ينظم أموره هناك وينتظر المدد – لذلك لجأت إلى تطبيق سياسية جديدة (الأرض المحروقة) التي كانت السبب في القضاء عليها، بعد أن توفرت لديها المعلومات عن عزم العرب المسلمين على معاودة الفتح، فجمعت أنصارها وأتباعها لهذا الغرض كما يصورها ابن عذاري في هذا النص : (وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسّان خمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارعة والمراعي ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر، فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحدا من طرابلس حتى طنجة، وقرى متصلة، ومدائن منتظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصون من إقليم إفريقية والمغرب، فخربت الكاهنة ذلك كله، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية[6]).

هكذا عمت الفوضى منطقة أوراس، لأن السكان أبوا الخضوع لسلطان الكاهنة التي عاملتهم معاملة الظلم والإساءة والاضطهاد، وحاولت أن تجعل منهم جبهة ترد هجوم المسلمين فيما بعد حتى عم السخط ربوع البلاد، وقد أصاب ابن الأثير في

وصف حالتها في العبارة التالية : (وملكت إفريقية كلها وأساءت السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم[7]).

نستخلص من أقوال المؤرخين السالفة الذكر، على أن حركة انتقاض الكاهنة على المسلمين لم تكن ذات أبعاد سياسية فحسب. إنما كانت حركة محلية، ولذلك لا نخطئ إذا وصفنا هذه الحركة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية إذ يغلب على قومها الطابع البدوي الذي لا يقيم للمدن وزنًا، فلبوا سياستها ونفذوا لها ما طلبت منهم، وكان القائد العربي يرقب الأوضاع من بعيد، ويفهم هذه الحركة هذا الفهم ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك[8].

والملاحظة الهامة التي يمكن تسجيلها هنا هي أننا نجد قلة من السكان البرانس الذين أخذوا الحضارة اللاتينية، واستقروا على مشارف المدن، فكانوا في مقدمة من رفضوا سياسة الكاهنة التدميرية أو التخريبية، فطلبوا المساعدة والانضمام إلى جيش المسلمين، الشيء الذي يؤكد بعد الكاهنة عن أحداث الفتح الإسلامي وصراعهم مع البيزنطيين، وأنها لم تكن تدرك تمامًا هدف المسلمين في المغرب وهو نشر الإسلام والوعي الثقافي والقضاء على نفوذ الروم البيزنطيين من تلك البلاد وتحرير أهلها من الاستعمار نهائيًا.

ب - فماذا كان يجري في الجانب الآخر... عند المسلمين ؟ :

عقب انسحاب المسلمين من إفريقية، أقاموا في طرابلس خمس سنين، ينتظرون وصول إمدادات الخلافة إليهم، ويعملون على تنظيم أمورهم واستعداداتهم العسكرية للمرحلة القادمة، وخلال تلك الفترة التي قضاها الجيش الإسلامي في برقة قام حسّان بن النعمان ببعض المنشآت المعمارية في تلك المنطقة كما يستشف من قول السلاوي الآتي : (فأقام أي حسّان ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصور[9] حسّان[10]).

ويبدو أن قائد القوات الإسلامية كان قلقا على المصير الذي آل إليه أمر المسلمين بعد الهزيمة، فكتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يخبره بما نزل بالمسلمين من الكاهنة، وقد عبر عن ذلك ابن عذاري حين قال*** : فكتب إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بدت أمة خلفتها، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم[11].

فكتب إليه أمير المؤمنين : – (قد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون، فانظر حيث لقيت كتابي هذا، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري[12]).

لكن الأحوال السياسية في الدولة الإسلامية بالمشرق لم تكن تسمح بإرسال إمدادات جديدة إلى بلاد المغرب لمساعدة جيوش الفتح، فضلا عن أن الخليفة نفسه كان لا يزال مشغولا بحروب الخوارج لذلك أمر حسّان بالمقام حتى يصله أمره، وبعد أن فرغ عبد الملك من حروب الخوارج وأتم الوحدة تفرغ لإفريقية.

جـ - الاستخبارات :

أما بالنسبة للوضع في بلاد المغرب، فلم يكن القائد حسّان بعيدا عما يجري من أحداث فيه، بل كان في حاجة إلى جمع معلومات دقيقة عن موقف الكاهنة وتحركاتها وقوتها ومخططها العسكري، لأن ذلك يساعده على تقدير الموقف بصورة صحيحة، وحدثت تطورات جديدة لصالح المسلمين، إذ كلف رجلا يثق به القيام بمهمة الوصول إلى معسكر الكاهنة والاتصال بخالد بن يزيد الذي كان أسيرًا لديها ويبلغه بهذه الرسالة : (... إن حسّان يقول لك ما يمنعك من الكتابة إلينا[13]). وبعث حسّان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور، فكتب خالد في ظهر كتاب حسّان : (إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فاطو المراحل، وجد في السير[14]) وضع خالد بن يزيد كتابه في خبزة وجعلها زادا للرجل، ووجهه بها إلى حسّان[15]، وكان خالد قد انضج الخبزة فاحترق الكتاب بالنار[16]، فلما كسر

حسّان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد وجده قد أفسدته النار، فقال له حسّان : ارجع إليه – عاد الرجل مرة أخرى إلى خالد بن يزيد وأخبره باحتراق كتابه، فكتب خالد إلى حسّان بما كتب أولا، وأودعه قربوس[17] السرج بعد أن حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه[18].

هكذا نجحت هذه الوسيلة الإخبارية التي دبرها خالد، فاستطاع بواسطته أن يحصل قائد القوات الإسلامية على معلومات قيمة عن تفرق أمر البربر وعن كل ما يحتاج إليه من معلومات.

وبدون شك فقد كانت مراسلات خالد بن يزيد إلى قائد الجيش الإسلامي من بين الأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين على الكاهنة في صراعهم الأخير - فقد كشفت تلك المكاتبات السرية الوضع العسكري والسياسي في معسكر الكاهنة الذي كان يعيش حالة من الفوضى والتشتت في صفوف أفراد جيشها، نتيجة للسياسة التي انتهجتها ضد قومها والملاحظ إن تدابير الكتمان والسرية التي اتخذها خالد بلغت الدقة والآتيان، فهو يخفي رسالته إلى قائده تارة في الخبز حتى يظن من رآه أنه زاد الرجل[19]. وهو تارة يخفيها في قربوس السرج ويطبق عليه حتى يستوي ويخفي مكانه، وكما يقول اللواء الركن محمود الخطاب شيت[20] لن يستطيع ضابط استخبارات ممتاز في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذرًا وأدق كتمانًا مما فعله خالد في تدابيره تلك.

2. اهتمام الإمبراطورية البيزنطية بالمغرب :

مهدت الأوضاع السياسية في بلاد المغرب الطريق للدولة البيزنطية على بسط نفوذ من جديد على المغرب، خصوصًا بعد انسحاب المسلمين منها، تنفيذًا لأطماعها التوسعية ورغبتها على الهيمنة من جديد على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط أرسل الإمبراطور ليونتيوس[21]. جيشًا كبيرًا وأسطولا قويًا

لاسترداد (قرطاجنة) وأسند هذه الحملة إلى واحد من أبرز قادة الإمبراطورية، وهو البطريق يوحنا – (Patricus Jean) هكذا ظهر الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط من جديد في سنة 78 هـ / 697 م، وتمكن من الاستيلاء على مدينة (قرطاجنة)[22] بسهولة دون مقاومة تذكر وطرد المسلمون الذين كانوا فيها،فانسحب أبو صالح ومن معه،فدخلها البطريق يوحنا وقد أساء معاملة أهليها ومن وقع تحت يده من المسلمين، حتى أنه كان يقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانيس ونقفور[23]، فلما تم له ذلك اكتفى به، وقضى البطريق يوحنا طيلة شتاء هذه السنة دون أن يعمل حسابًا لعودة المسلمين، فلم يكلّف نفسه عناء الشروع في عمل آخر[24].

ويرى بعض المؤرخين الفرنسيين[25]، أن السبب في عدم اهتمام المؤرخين العرب بتدوين أخبار استيلاء البيزنطيين على قرطاجنة يعود بالدرجة الأولى إلى انشغالهم بأخبار الكاهنة، ويبدو أن هذا الادعاء لا أساس له من الصحة بدليل ما دوّنه البكري عن هذه الحادثة بقوله : وأغارت الروم من البحر على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس (كذا) خرجت إليهم في المراكب فقتلوا وسلبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصّنهم من عدوّهم، إنما كانوا معسكرين هناك وبلغ ذلك حسّان فرحل إلى تونس، وأرسل أربعين رجلا من أشرف العرب إلى عبد الملك بن مروان وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء وأقام مرابطا ينتظر رأي عبد الملك[26].

يبدو أيضا أن حركة البيزنطيين كانت حركة انتقامية ليست إلا - فلو كان هدفهم من هذه الحركة هو استرداد إفريقية حقًا، لعملوا على السير نحو منطقة برقة للقضاء على القوات الإسلامية المرابطة هناك، ولكن الذي حدث العكس تمامًا، فقد اكتفى البيزنطيون باستعادة مدينة قرطاجنة وبعض المدن المجاورة لها، وفعلا استقر هؤلاء فيه محتمين بأسوارها المنيعة.

وهذا الموقف من البيزنطيين يفسر بضعف إمكانياتهم العسكرية والبشرية التي لا تمكنهم من متابعة حرب المسلمين في بلاد المغرب. ومن استعراضنا للأحوال

السياسية في إفريقية، يتضح أن النفوذ كان موزعًا بين قوتين غير متكافئتين، الكاهنة في الداخل، والبيزنطيين في الشمال.

ولكن رغم ما أصاب جيوش المسلمين بقيادة حسّان بن نعمان بالخيبة والعجز، عن ترسيخ وتثبيت أقدامهم فيها، فإن هزيمة المسلمين هذه المرة لم تفقدهم كل شيء، فقد نجحوا في المرحلة الأولى من محق البيزنطيين في المغرب، وحتى وأن تمكن هؤلاء من العودة إلى عاصمتهم القديمة بعد هزيمة المسلمين - فجميع الدلائل تشير إلى تقلص وزوال نفوذهم منذ ذلك الوقت من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

أما الواجهة العسكرية والسياسية التي تزعمتها الكاهنة في الداخل فيمكن القول بأنها اختفت تمامًا ولم توفق بعد انتصارها على قوات المسلمين في إقناع جميع طوائف البربر بزعامتها المطلقة[27] ويأتي في مقدمة ذلك سوء تصرفها في اتباع سياسة تخريبية (الأرض المحروقة) أثارت عليها سخط شعبها ومما زاد في شعور العداء وكره الناس لها اعتقادها بأن الفتوح العربية الإسلامية إنما تستهدف المدن العامرة بما فيها من خيرات وثروات ومغانم، وبناء على هذه الظروف مجتمعة يمكن القول بأن فترة غياب المسلمين عن إفريقية خلال السنوات التي قضوها في برقة كانت لصالحهم.

أ - عودة حسّان إلى إفريقية :

طالت فترة غياب المسلمين عن إفريقية خمس سنين[28]، بسبب ما استجد من أحداث في شرق الدولة الإسلامية، فقد كانت الخلافة طيلة هذه المدة مشغولة بمكافحة الفتن الداخلية وحروب الخوارج، ففي عام ست وسبعين للهجرة أرسل القائد الحجاج بن يوسف الثقفي زائدة بن قدامة الثقفي لبن عم المختار الثقفي لحرب شبيب بن قيس الخارجي الشيباني، فاستظهر شبيب وقتل زائدة وهزم قوات الخلافة عدة مرات، واستفحل أمر شبيب[29].

وفي عام سبع وسبعين هجرية بعث الحجاج بن يوسف لحرب شبيب عتاب بن ورقاء الخزاعي الرياحي،فلقي شبيبًا بسواد الكوفة فقتل شبيب عتابًا وتمكن من هزيمة الجيوش الأموية ولكن الحجاج كان مصرًا على قطع دابر شبيب هذا، فوجه إليه أبا الورد النضري فتقل. ثم وجه إليه طهمان مولى عثمان بن فقتل أيضا، عندئذ سار إليه الحجاج بنفسه فاستطاع القضاء على حركته[30]. وفي السنة خرج مطرّف بن مغيرة بن شعبة على الحجاج وخلع الخليفة عبد الملك بن مروان ولكنه قتل.وفي سنة سبع وسبعين هجرية حلّ بأهل الشام الطاعون حتى كاد يقضي عليهم من شدّته[31]، وفي سنة ثمانين بعث الحجاج سجستان[32] عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي فلما استقر بها خلع الحجاج وخرج فكانت بينهما حروب طاحنة[33].

وفي سنة إحدى وثمانين هجرية اشتدت الحروب بين الحجاج وبين الأشعث، فقام مع ابن الأشعث عامة أهل البصرة من العلماء والعباد، فاجتمع له جيش كبير، التقى بالحجاج يوم الأضحى، فانكشف عسكر الحجاج وانهزم هو. تمت بينهما عدة وقعات، قيل كان بينهما أربع وثمانون وقعة في مائة يوم، ثلاث وثمانون على الحجاج والآخرة له[34]، ويبدو وأن ثورة ابن الأشعث كانت ثورة خطيرة جدًا كادت أن تشمل العراق لو أنه قتل في سنة أربع وثمانين هجرية.

هكذا شغلت هذه الفترة الحافلة ثورات داخلية كان لابد من تجهيز الجيوش للقضاء عليها وعلى غزوات الروم، وحين فرغ المسلمين من حسم مشاكلهم الداخلية والقضاء على حركات الخوارج، تمت الوحدة، قرّر عبد الملك بن مروان تلبية طلبات حسّان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية، فأرسل إليه الجنود والموال، وأمره باستئناف الزحف على إفريقية في حدود سنة 81 هـ.

وقد ذكر ابن عذاري إمدادات الخلافة، واستعداد حسّان لمواصلة الجهاد ونشر الإسلام بقوله[35] : (ثم إن حسّان توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك، فدعا حسّان عند ذلك برجل يثق به، وبعثه إلى خالد بن يزيد

بكتاب فقرأه وكتب على ظهره : إن البربر متفرقون لا نظام عندهم، فاطو المراحل وجدّ في السّير).

نستنتج من عبارة هذا المؤرخ السابقة حقيقة هامة، وهي أن القائد حسّان كان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه وإكمال شؤونه الإدارية لاستعادة إفريقية وتثبيت الإسلام في ربوعها.

ويستشف من العبارة السابقة أيضا مدى الاهتمام الذي كان يوليه حسّان لعملية الاستخبارات ورصد المعلومات الصحيحة عن العدو، فقد تمت عملية الاتصال بخالد بن يزيد الذي أطلعه على الحالة السياسية المضرية في معسكر الكاهنة، ومدى الفوضى التي عمت بلاد المغرب من جراء سياستها التخريبية، الشيء الذي شجّع القائد العربي على المسير إلى إفريقية لقتال الكاهنة وأسلوب تاكتيكها الجديد – ولا يهمنا ما ذكره المؤرخون من تنبأ الكاهنة بقدوم المسلمين إليها وموتها على يد القائد حسّان، فلجأت إلى أخذ الآمان لابنيها من حسّان، على أن تواصل هي ومن معها من السكان حرب المسلمين[36].

الملاحظ على الكاهنة أنها أخطأت عندما عمدت إلى تطبيق سياسة تخريب المدن وقطع الأشجار ظنا منها أن المسلمين لا يريدون - غير مدركة أن هذا التصرف سيكون هو الخنجر الذي سيقضي عليها. وقد تركت هذه السياسة الجهنمية أثارا عميقة وسيئة في نفوس السكان، بدليل ما ذكره العلامة ابن خلدون عن آثار ذلك في العبارة التالية : (وكانت طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا وقرى متصلة، وشق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسّان فأمنهم)[37] وقد دافع أحد المؤرخين الغربيين على شخصية الكاهنة وما نسب إليها من مظاهر التخريب بقوله : (تنسب المراجع إلى الكاهنة في هذه المناسبة عملا كان موضع تعليق كثير، وهو أنها قررّت أن ترد بلادها إلى ما هي مهيأة له بطبيعتها من الرعي، وذلك بتخريب مراكز التمدن التي ترجع إلى العصر الروماني وقطع أشجار الزيتون،

مصدر ثروتها لكي يتسع الميدان للمراعي ومجالات الرحلة البدوية، ومن الواضح أن نسبة هذا العمل الذي يخالف طباع البربر إلى الكاهنة لابد أن يكون محل شك، فإن المسلمين المسؤولون الحقيقيون عما أصاب إفريقية من خراب البلاد الاقتصادي الزراعي بعد ذلك بسنوات، هم الذين نسبوا إلى بطلة الأوراس هذه الجريمة التي لابد أن نضيفها إلى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أو التردد)[38].

إن ما ذكره المؤرخ غير منطقي، لا يؤيده الأدلة والوقائع التاريخية، كما أنه لو كان صحيحا ما ذهب إليه هذا المؤرخ، لما أهمله المؤرخون الذين تحدثوا عن الكاهنة - بالإضافة إلى أن نسبة هذا العمل اللاإنساني إلى الفاتحين المسلمين يتنافى والسياسة التي أقرها الخلفاء الراشدون، والتي أصبحت دستورا يطبق على جميع البلدان المفتوحة، وتنص على عدم إلحاق الضرر بأهلها - ولو كان هذا التصرف من الكاهنة غير صحيح لما ذكر المؤرخون العرب لجوء سكانها ورعاياها إلى المسلمين لتخلصهم الملكة التي أساءت التصرف وخربت بلادهم. وخلاصة القول أن أوضاع معسكر الكاهنة قد تدهورت، وضعفت معنوياتها واختل توازن نظام عسكرها، وتفوق السكان عنها.

وهذا الوضع يختلف تماما عما ألفه المسلمون ولمسوه عندها في لقائهم الأول، حيث كانت تتمتع بقوة وكلمة مسموعة في قومها فكان البربر يأتمرون بأمرها ويطيعونها، فتغيرت نظرتهم إليها وأصبحوا ينظرون إلى المسلمين كمنقذين لهم.فالوضع الجديد سيكون له آثار فعّالة فيما بعد في طرد بقايا البيزنطيين نهائيا من بلاد المغرب.

ب - لقاء الفريقين بعد غياب طويل :

سبق أن أشرنا إلى اهتمام الخليفة بفتح المغرب، حيث سيّر إلى حسّان الجنود والأموال[39] وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها[40]، حتى إذا أكمل استعداداته

وتهيئة جيشه من الناحيتين المادية والمعنوية، أمره الخليفة بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة[41].

فانطلق حسّان إليها في أواخر سنة 81 هـ[42]، وبلغ الكاهنة خبر مسير المسلمين، فرحلت من جبال (أوراس) في خلق عظيم[43].

يصف ابن الأثير مسير حسّان إلى إفريقية وحالة سكانه بقوله : فلما قرب حسّان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها فسره ذلك وسار إلى قابس فلقيه بالموال والطاعة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء وجعل فيها عاملا، وسار إلى قفصة يستقرب الطريق فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوة وبلغ الكاهنة قدومه[44]. فهذه الصورة صادقة عن حالة أهل البلاد النفسية الذين ملوا الحرب وكرهوا سياسة الكاهنة، فلما اقترب حسّان من معسكر الكاهنة، خرجت ناشرة شعرها : (يا بني ! ماذا ترون في السماء ؟، فقالوا : نرى شيئا من سحاب أحمر فقالت : لا والهي، ولكنها رهج[45]، خيل العرب ثم قالت لخالد بن يزيد : إني تبنيتك لمثل هذا اليوم. أنا مقتولة فأوصيك بأخويك هذين خيرا فانطلق فأخذ لهما أمانا ! فانطلق خالد فلقي حسّان فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها أمانا)[46].

3. المعركة الفاصلة (بئر الكاهنة) سنة 82 هـ : (خريطة رقم 2)

ستكون هذه المعركة الحاسمة نهاية نظام سياسي وثني قديم عجز عن مقاومة التيار الجديد الذي حمل معه رسالة سماوية تخرج الناس من الظلمات إلى النور – وبداية عهد جديد أظل بلاد

المغرب بنور الإسلام وجعل من أهلها شعبا مسلما قاد مسيرة الفتوح الإسلامية إلى أوروبا.بدأت

أحداث هذه المعركة في جبل أوراس، حيث تقاتل الفريقان قتالا شديدا، وأبلى المسلمون بلاد حسناء – ورغم أهمية هذا الصراع بين ملكة أوراس والمسلمين،

فقد أهمل المؤرخون تفاصيل هذا اللقاء بين قوتين كبيرتين اختلفا في أهدافهما وغاياتهما، باستثناء الدباغ الذي انفرد ببعض التفاصيل التي تتصل بهذا الصراع الأخير بين المسلمين والكاهنة فقال : (لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة، فقاتلهم حسّان وهزمهم الله، وهربت الكاهنة منهزمة تريد قلعة بشر تتحصن بها، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض، فمضت تريد جبال أوراس ومعها صنم كبير من خشب تعبده فتبعها حسّان حتى أدركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة فنزل حسّان عند الموضع الذي قتلت فيه ويقال أنها قتلت عند طبرقة)[47].

هكذا انتهت أسطورة الكاهنة ملكة جبل أوراس التي كان يأتمر بأمرها ويعلن فروض الطاعة والولاء لها شعب كبير، قادته في معاركها ضد المسلمين الذين اعتبرهم غزاة يريدون الاستيلاء على أراضها ومدنها فراحت تخرب وتهدم وتحرق كل ما صادفها في طريقها من مظاهر العمران ومصادر الحياة، هكذا يتضح كيف يكون مصير من انقلب عليه أهله وعشيرته وأعوانه أصبحوا أعداءه، وتخلى عنه مناصروه، فأصبحوا في صفوف أعدائه.

فقد ألتفت حول الكاهنة أعداء العرب المسلمين من الروم والبربر في معركة (وادي نيني)، وكانوا قوة فانتصروا على المسلمين – ولكن في مقابل ذلك نتساءل لماذا انهزمت الكاهنة في هذه المعركة بالذات وبهذه البساطة، لعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى كون ملكة جبل أوراس لم توطد ملكها بالعدل والعمران[48]، بل زعزعته بالظلم والتخريب، وبدلا من تتبع سياسة تعمل على كسب أنصار جدد يؤازرونها ويزيدونها قوة، كان شعارها المشؤوم كل يوم عدو أو أعداء جدد... الخ.

هكذا كانت فترة غياب المسلمين خمس سنين عن ميدان إفريقية كفيلة بأن تتيح لهم فرص الاستعدادات والاستخبارات العسكرية القوية للقضاء على قبيلة جراوة قضاء تاما. وفي مقابل ذلك كانت الكاهنة تعمل هي الأخرى ليل نهار بصورة غير مباشرة لمساعدة المسلمين في تحقيق هدفهم الأسمى بتصرفاتها اللاآنسانية من

تخريب المدن وحرق الأشجار والزروع، فلما اصطدمت بالمسلمين للمرة الثانية وجدت نفسها وحيدة إذ تخلى عنها حلفائها من الروم والبربر ولم يقاتل معها سوى رجال قبيلتها فقط،فأدركت الكاهنة مصيرها المحتوم مصير كل ظالم،فتنبأت سلفا بمصيرها، وهذا ما جعل المؤرخ هنري ماسيه يعلل انهزام الكاهنة أمام المسلمين الفاتحين من استفادتهم من اختلاف خصومهم[49]،وبهذه المعركة الفاصلة التي وقعت في سنة 82 هـ / 701 م[50]، تم للمسلمين القضاء على المقاومة المحلية التي تزعمتها الكاهنة وبذلك استطاعوا أن يضيفوا إلى فتحهم الحربي هذا فتحًا دينيًا جديدًا[51].

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن طول وعنف المقاومة هي أن المسلمين واجهوا قبائل لا تقل عنهم بداوة وبأسًا، وتمتاز بلادها عن جزيرة العرب بجبالها الشامخة ومسالكها الوعرة مما يهيئ للمدافعين عنها فرصًا كثيرة للإيقاع بالغازي[52].

والملاحظ أن عودة المسلمين هذه المرة إلى الجبهة الإفريقية، اقترنت بمعطيات جديدة[53].

فقد غيرت موازين القوى بين الأطراف المتصارعة بعد أن أدى احتلالها وتزعزها إلى تأخير تعريب هذه الأرض بنفس السهولة التي رافقتها في أقاليم أخرى، دخلت بسرعة في ظل الإسلام، ولهذا السبب يرى بعض الباحثين[54] أن محاولة حسّان هذه المرة وفي هذه الظروف بالذات كانت أكثر من مجرد حملة عسكرية هدف انتقامي محدد، حيث وضعت لبنة التحول التاريخي في بلاد المغرب، فعد قهر الأسباب التي حالت دون تنفيذ ذلك بصورة جدية، فقد أردك البربر عجز محاولتهم في الدفاع عن مورثهم القبلي الذي ظهر ضعفه وعقمه أمام الأفكار النيرة الجديدة التي كانت شعار القوات الإسلامية المنتصرة - ومن جهة أخرى نستطيع القول بأن البربر أهل البلاد – كتيار معارض للتدفق الإسلامي الجديد افتقدوا عنصر الاختيار، مع ظهور بوادر التحول بين صفوفهم في معركة

الأوراس التي شاركت فيها مجموعة منهم إلى جانب حسّان بن النّعمان لأول مرة في تاريخ البربر[55]، تلك المعركة التي انتهت بالقضاء على حركة زعيمتهم الكاهنة[55].

ومما لاشك فيه كانت معركة (بئر الكاهنة) مفتاح السيادة الإسلامية على المغرب حيث دخلت هذه المواجهة العسكرية آخر الصعبة الطويلة التي استغرقت زمنا طويلاً.

أ. نهاية النفوذ البيزنطي في بلاد المغرب :

عاد حسّان إلى القيروان بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم في شهر رمضان من عام اثنتين وثمانين للهجرة[57]، ليستريح جيشه ويستكمل قواته، فلما استراح جنده وأتم القائد استعداداته قرّر الاتجاه إلى الشمال (شمال القيروان) إذ ما تزال هناك مناطق يحكمها الروم وحصون وقلاع يسيطر عليها البربر أنفسهم، فكانت مثلا جبال زغوان[58] في شمال القيروان وكذلك في جنوب قرطاجنة مواطن لمقاومة البربر والروم، ولعل قربها من العاصمة البيزنطية قرطاجنة جعلها تشكل خطًا دفاعيًا أوليًا عن تلك المدينة، لذلك يبادر قائد القوات الإسلامية بإرسال مولاه (أبا صالح) إليها الذي نازلها ثلاثة أيام دون نتيجة، فلما استعصت عليه، أسرع حسّان بن النعمان بنفسه ففتحها صلحًا.

بعد ذلك تحرك القائد حسّان بسرعة لينتقل إلى جبهة ثانية ضد البيزنطيين الذين استعادوا قرطاجنة في أعقاب هزيمته الأولى، والغريب في الأمر سكوت المؤرخين المسلمين عن أحداث الصراع الأخير بين البيزنطيين والمسلمين، فيما عدا بعض الإشارات المقتضبة عن مسير حسّان إلى قرطاجنة، ورغم هذه الثغرة التي أهملها المؤرخون العرب بخصوص النفوذ البيزنطي في بلاد المغرب،فقد ملأها المؤرخان البيزنطيان تيوفانيس ونقفور، فيذكران[59] بأن الأسطول البيزنطي قد هزم في معركة كبيرة سقطت على إثرها قرطاجنة في يد حسّان فأدرك

البطريق يوحنا فجمع جنده ورجع إلى القسطنطينية، ليعود منها بقوة أكبر ولكنه كان واهمًا لأن الأحوال لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة نهائيًا، ويحدد هذان المؤرخان هذا الحدث بسنة 698 م الموافق لـ 79 هـ، وهذا التاريخ لا يتمشى ومنطق الأحداث إذ المعروف أن القائد حسّان لم يفرغ من أمر الكاهنة إلا في رمضان من سنة 82 هـ / 701 م وهو التاريخ الصحيح لهذا الحدث[60].

والواقع أنه بعد هذه الانتصارات التي أحرزها حسّان بن النعمان لم يبق أمامه إلا استعادة فتح مدينة قرطاجنة التي كان الإمبراطور ليونيتوس (Leonitus) قد أرسل حملة بحرية نجحت في السيطرة عليها عام 77 هـ / 697[61] وتمكن يوحنا ورجاله من الروم من تحصينها وبناء ما تهدم من أسوارها، وكانوا يرقبون تحركات حسّان فلما سار إليهم تحصنوا بها فحاصرهم حصارًا شديدًا ثم نشبت معركة عنيفة بين الفريقين انهزم فيها البيزنطيون هزيمة منكرة، والتجأ يوحنا وأصحابه من الروم إلى قرطاجنة محتميا بها، وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسّان، وهكذا أدرك اليأس البطريق يوحنا فجمع أجناده وعاد إلى بيزنطة[62].

وقد أدى سقوط المدينة هذه المرة إلى زوال كل آثار السيادة البيزنطية على السواحل المغربية.

ب. عزل حسّان بن النعمان :

قد يتساءل كل من يهتم بدراسة تاريخ المغرب في هذه الفترة عن أسباب عزل هذا الرجل العظيم، الذي أتم تحرير المغرب الأدنى والأوسط وتخليصهما - نهائيًا – من حكم البيزنطيين الجائر الذي قام أساسًا على استغلال سكان المغرب[63]، واستعبادهم وتقسيمهم إلى طبقات متميزة، والتحكم في ثروات بلادهم وخيرات أرضهم، وغير ذلك من مساوئ الحكم.

ولكن هل هناك من أسباب وراء عزله ؟

يبدو وفقًا لروايات المؤرخين فإن أسباب عزل حسّان وتجريده من الغنائم ترجع إلى العلاقة السيئة بينه وبين والي مصر آنذاك عبد العزيز بن مروان، فقد ظل عبد العزيز بن مروان يكيد لحسّان ويختلق الأسباب لعزله عن ولاية إفريقية لذلك انتهز فرصة هزيمة حسّان أمام الكاهنة وعودته من إفريقية حتى يقلل من مقدرته العسكرية (فبعث إلى طرابلس عاملا من مصر ليتولى أمورها، يقال له (تليد) وكان بها أشراف الناس، فثقل عليهم إمامة تليد لأنه عبد فبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان فأعتقه)[64]، وطلب حسّان في مسيره الثاني إلى إفريقية من والي مصر، (أكتب إلى عبدك بالإعراض عن طرابلس فقال له عبد العزيز : ما كنت لأفعل بعد أن ضيعتها فاستولت عليها الروم، فقال حسّان : إذًا أرجع إلى أمير المؤمنين، فقال له عبد العزيز ارجع). ويفهم من رواية ابن عذاري أن حسّان بن النعمان بعد أن قضى على مقاومة الكاهنة في جبل أوراس وأصبح صاحب الكلمة الأولى في المغرب لا يغزو أحدًا ولا ينازعه أحد[65] : (عزله عبد العزيز بن مروان الوالي على مصر،وكان والي مصر يولي على إفريقية فعزل حسّانا وأمره بالقدوم عليه، فعلم حسّان ما أراد عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك، فعمد إلى الجوهر والذهب والفضة فجعله في قرب الماء وأظهر ما سوى ذلك من الأمتعة وأنواع الدواب والرقيق وسائر أنواع الأموال فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر، فسلبه عبد العزيز بن مروان جميع ما كان معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان، ورحل حسّان بالأثقال التي بقيت له حتى قدم على الوليد، فشكا له ما صنع به عبد العزيز بن مروان فغضب الوليد على عمه عبد العزيز بن مروان. ثم قال حسان لمن معه : (آتوني بقرب الماء) ! ففرغ منها من الذهب والفضة والجواهر والياقوت ما استعظمه الوليد وعجب من أمر حسّان، وقال له الوليد : (جزاك الله خيرًا يا حسان) ! فقال : (يا أمير المؤمنين ! إنما

خرجت مجاهدًا في سبيل الله وليس مثلي يخون الله والخليفة) ! فقال له الوليد (أنا أردك إلى عملك، وأحسن إليك وأنوه بك).

فحلف حسّان : (لا أولي لبني أمية أبدًا) ! فغضب الوليد بن عبد الملك من عمه عبد العزيز[66].

أما عن كثرة السبي الذي أحضره حسّان معه إلى مصر يقول أبو محجن نصيب الشاعر : (لقد حضرت عند عبد العزيز سبيًا من البربر ما رأيت قط وجوها أحسن من وجوههم)[67]، وكان نصيب الشاعر يقول : (حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسّان مائتي جارية، منها ما يقام بألف دينار)[68]، وكان عزل حسّان من قبل عبد العزيز دون أمر أخيه عبد الملك ولا مشورته[69]. وعلى الرغم مما في رواية ابن عذاري من تناقض في الأخبار، لاسيما الأخبار التي ذكرت أن حسّان قدم على الولي عبد العزيز في مصر، والوليد في دمشق، بينما عبد العزيز هذا توفي في عهد عبد الملك بن مروان سنة 86 هـ[70]. ومهما يكن من شيء فهي تلقي أضواء على موقف حسّان من الوالي الذي كان يخاف منه، ويتجنب كل اتصال معه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، يدل على ذلك أن حسّانًا عندما احتاج إلى جماعة من أقباط مصر سأل الخليفة بدمشق مباشرة دون الرجوع إلى والي مصر.

لعل الرواية التالية توضح بعض ما غمض في الروايتين السابقتين بخصوص عزل حسّان بن النعمان عن المغرب، وتلقي أضواء جديدة عن لقاء الطرفين في مصر، تقول الرواية : (واستمر حسّان على المغرب إلى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر، وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه،فاستحلف فاستخلف حسان على المغرب رجلا من جنده اسمه أبو صالح، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال وروائع السبي، ونفيس الذخيرة، فلما انتهى إلى مصر أهدى عبد الله[71] مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر، فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيرا مما بيده.ولما قدم على الخليفة بدمشق، وهو الوليد بن عبد الملك، شكا إليه ما صنع

به عمه عبد العزيز،فغاظه ذلك وأنكره ثم إليه حسّان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه،ووعده برده إلى عمله فحلف حسّان أن لايلي لبني أمية عملا أبدا)[72].

ونستنتج من هذه الرواية أن تنحية حسّان من ولايته قد تمت بأمر من عبد العزيز بن مروان[73]. وهذه حقيقة أجمعت الكتب التاريخية على صحتها، ولكن الشيء الجديد فيها هو أن والي مصر عبد العزيز كان قد توفي قبل قدوم حسّان بن النعمان إليها، بدليل أن الهدايا التي قدمها كانت من نصيب عبد الله بن عبد الملك الذي خلفه على ولاية مصر.وهكذا أسفرت تنحية حسّان عن تعيين موسى بن نصير مكانه، حيث كان مقربا من عبد العزيز بن مروان، الذي كان بدوره على خلاف تام مع حسّان.

تلك أهم الأسباب التي أدت إلى عزل حسّان بن النعمان عن ولاية المغرب سنة 85 هـ على أرجح الأقوال، وهو في بداية مجده السياسي، لقد أثّر عزل حسان في كثير من الناس واعتبروه خيبة للمسلمين فغضب لذلك كثير منهم.

وقد عبر عن هذا الشعور الشاعر أبو عتيك حيث قال[74] :

أقول لأصحابي عشية جاءنــا ... بغير الذي نهوى البريد المبشر
ألا ما الذي غال ابن النعمان دوننا ... فقل متاح الخير والخير يقدر
فقلت ولم أملك سوابق عبـــرة ... فنعم الفتى المعزول والمنتظـر
فإن يك هذا الدهر جاء بعزله ... عليــه، فإن الدهر يعثـر

لقد قام حسّان بأعمال جليلة بوأته مكانا ناصعا في التاريخ بين رواد الفتح الإسلامي للمغرب، وسجل صفحات ذهبية خالدة في تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، فقد جمع بين الخبرة العسكرية والقدرة على فهم ظروف البلاد فاستحق بكل فخر أن يكون رائد الفتح الحقيقي لبلاد المغرب ومنظم شؤونها وجيشها، فهو واضع اللبنة الأولى في إدخال عنصر جديد في الجيش الإسلامي

الفاتح من أهل البلاد، الذين سيكون لهم شأن كبير في تاريخ فتح إسبانيا (الأندلس) على عهد موسى بن نصير.

وبالنسبة لأخبار عودة الرجل إلى المشرق، فليس بين أيدينا إلا النزر القليل، ولذلك تعتبر هذه الناحية مجهولة في حياة القائد، وحتى أولئك المؤرخين الذين دونوا أخبار الفتوح الإسلامية لم يهتموا بتسجيل بقية أخباره، باستثناء ابن عبد الحكم الذي أشار إليها في هذه العبارة المختصرة : (ثم لم يلبث حسّان بن النعمان إلا يسيرا حتى توفي)[75]، ونرجح أن وفاته كانت أواخر 85 هـ أو أوائل 86 هـ، لأن ولاية موسى بن نصير على المغرب بدأت أواخر حكم عبد الملك بن مروان سنة 85 هـ.

ومهما يكن من أمر، فالذي لا جدال فيه، أن شخصية هذا القائد الفاتح، قد أثبت جدارتها وحنكتها السياسية والحربية في بيئه المغرب الوعرة، فقد استطاع في نهاية المطاف أن يحقق الهدف الذي قدم إلى بلاد المغرب من أجله وهو نشر الاسلام والثقافة العربية وتمكين أهل الجزائر منه، فأسلموا وتشرربوا الثقافة العربية الإسلامية، فأصبحوا رعاتها وحملوا لواء نشر الإسلام في ربوع بلاد المغرب والأندلس.

حواشي

1. ابن عبد الحكم : المصدر السابق، ص 62-63.
2. ما دام المسلمون الذين هم في القيروان ضعفاء مسالمين فلا خطر على الكاهنة منهم، كما أنها لو فكرت في تهديد القيروان بالدمار، وسكانها، فإن ذلك لا يخلو من إثارة المسلمين من البربر على الكاهنة.
3. السلاوي : الاستقصاء، ج 1، ص 83.
4. محمود خطاب شيت : نفس المرجع، ص 186.
5. نفسه.
6. ابن عذاري : نفس المصدر، ص 36-37.
7. ابن اثير : الكامل ج 4، ص 143.
8. د. حسين مؤنس : نفس المرجع، 249.
9. كانت انطابلس (الخمس مدن) ولوبية (ليبيا حاليا) وحراقية إلى حد اجدابية (بين برقة وطرابلس الغرب) من عمل حسّان، فأقام بعمل برقة خمس سنوات – أنظر (ياقوت – معجم البلدان)، ج 1 و8، ص 353.
10. السلاوي : الاستقصاء ج 1، ص 83.
11. ابن عذاري : نفس المصدر، ص 36.
12. المالكي : رياض النفوس، ص 33.
13. ابن عبد الحكم : فتوح إفريقية والأندلس، ص 63.
14. ابن عذاري : نفس المصدر، ص 37 – ابن الأثير، الكامل ج 4، ص 143.
15. نفسه، ص37 ، – ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص 63.
16. ابن الأثير : الكامل ج 4، ص 143 – ابن عذاري : نفسه، ص 37.
17. القربوس : هو حنو السرج.

18. ابن عبد الحكم : نفس المصدر، ص 64.

19. بقول بعض المؤرخين أنه بمجرد تسليم خالد الخبزة إلى رسول حسّان حتى خرجت الكاهنة وهي تقول : (يا بني هلاككم فيما تأكله الناس، فكررت ذلك ومضى الرسول حتى قدم حسّان بالكتاب فيه علم ما يحتاج إليه) : (ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 63).

20. قادة فتح المغرب العربي، ص 188.

21. ثارليونتيوس على الإمبراطور جستنيان الثاني، فتمكن من عزله بعد حكم سنة وبضعة أشهر، وأعلن نفسه أمبراطور.

22. - Theophanes. op.cit, p. 566 – Diehl. op.cit. p. 583.
- Fournel. op.cit. p. 214.

نقلا عن حسين مؤنس :

23. - Theophanes. op.cit. p. 370. – Neciphore. op.cit. p.39.

24. د. حسين مؤنس : نفس المرجع، ص 254.

25. Fournel. op.cit. p. 213.

26. البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب طبعة دي سلان باريس1965 ، ص 37-38.

27. د. إبراهيم بيضون : المرجع السابق، ص 52.

82. د. صالح بن قرية، حسّان بن النّعمان ودوره في نشر الإسلام بالمغرب. (الأصالة – العدد 64 – 1978) ، ص 82.

29. الطبري : تاريخ الأمم والملوك (ط - القاهرة 1358) ج 5، ص 57-84.

30. الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (ط - القاهرة 1350)، ص 83.

31. الطبري، الأمم والملوك ج 5، ص 126. – شذرات الذهب ج 1، ص 87.

32. تقع مدينة سجستان جنوبي هراة بإيران.

33. الحنبلي شذرات الذهب ج 1، ص 87.

34. الطبري، نفس المصدر ج 5، 145. – الحنبلي، شذرات الذهب ج 1، ص 88.

35. ابن عذاري، نفس المصدر ج 1، ص 37.

36. أشار ابن عذاري إلى هذه الحادثة، بقوله : (دخل حسان إليها وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم، ورحل إليها حسّان، فلما كان الليل قالت لابنيها : إني مقتولة وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدي ملك العرب الذي بعث حسّانا، فقال لها خالد : ارحلي بنا وخلي له البلاد، فامتنعت ورأته عار لقومها فقال لها خالد ولأولادها : ما نحن صانعون بعدك فقالت : أما أنت يا خالد فتدرك ملكا عظيما عند الملك الأعظم وأما أولادي فيدركون سلطانا

مع هذا الرجل الذي يقتلني، ويعقدون للبربر عزان ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه). البيان ج 1، ص 38.

37. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 218-219.

38. أنظر رأي جاتو في مجلة الدراسات الإسلامية بمدريد عام 1964، ص 212-213.

39. ابن الأثير ج 4، المرجع السابق، ص 38.

40. ابن عذاري، المصدر السابق، ص 38.

41. ابن الأثير، ج 4، ص 143.

42. د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 256.

43. ابن عذاري، المصدر السابق، ص 38.

44. ابن الأثير، الكامل ج 4، ص 32.

45. الرهج : هو الغبار.

46. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 271 – المالكي، رياض النفوس، ج 1،ص 34-35.

47. الدباغ، عالم الإيمان، ج 1، ص 60-61. – يتفق معظم المؤرخين على أن الكاهنة، قتلت في موضع يعرف باسم بئر الكاهنة بجبال أوراس الماء الأبيض، ونستبعد أن تكون قد قتلت في مدين طبرقة الواقعة على السواحل في الشمال.وهذه البئر لم تعرف باسم الكاهنة آنذاك، غير أن المؤرخين العرب هم الذين أطلقوا على هذه البئر التي قتلت منها الكاهنة اسمها، فصارت منذ ذلك الوقت تعرف بذلك.

48. محمود شيت الخطاب، المرجع السابق.

49. هنري ماسية، الإسلام (ترجمة بهيج شعبان)، ص 71.

50. ابن عذاري، المصدر السابق، ص 38.

51. هنري ماسية، نفس المرجع، ص 71.

52. محمد أحمد حسونة، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص 55.

53. إبراهيم بيضون، تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول، ص. دار إقرأ، بيروت 1985، ص 228.

54. إبراهيم بيضون، نفس المرجع والصفحة.

55. ابن عبد الحكم، فتوح، ص 271.

56. ابن عذاري، نفس المصدر ج 1، ص 73-38. – ابن عبد الحكم، نفسه، ص 271.

57. نفسه، ص 38.

58. يقع جبل زغوان بالقرب من تونس، وكانت به قرى كثيرة وآهلة بالسكان؛ أنظر: ياقوت (معجم البلدان ج 4، ث 394).

59. أنظر :

- Theophane. op.cit. p. 370.
- NICIPGORE ? op.cit. p. 39.
- Diehl, op.cit. p. 584.

60. د. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 260.

- Becker, in CMH. T2, p. 370.

61. Georges Ostragorsky, Histoire de l'Etat Byzatine. pp. 170-171.

62. دائرة المعارف الإسلامية ترجمة محمد ثابت الفندي، ن أحمد الشنتاوي وآخرون القاهرة 1993، ج 7، ص 387.

63. محمد ضياء الدين الريس، عبد الملك بن مروان (ط - 2 القاهرة 1969)، ص 204.

64. ابن عبد الجكم، فتوح إفريقيا والأندلس، ص 67-68 – الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص - 55 تهذيب ابن عساكر ج 4، ص 146.

65. ابن عبد الجكم، نفس المصدر السابق، ص 68 – طبقا لهذه الرواية يكون عزل حسّان بسبب اعتداده بنفسه لأنه كان لا يسمح بالتدخل في شؤون ولايته.

66. ابن عذاري، نفس المصدر، ص 38-39.

67. البلاذري، فتوح البلدان، ص 231.

68. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 272.

69. ابن عذاري، نفس المصدر، ص 39.

70. الكندي، كتاب الولاة... ص55، بينما يذكر ابن عذاري سنة وفاته عام 85 هـ.

17. يدل ورود ذكر عبد الله بن مروان أخو عبد الملك، حين قدم حسان على مصر أن عبد العزيز بن مروان كان قد توفي سنة 85 هـ.

72. نقلا عن شيت الخطاب، المرجع السابق، ص 209.

73. جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن عبد العزيز بن مروان عزل حسّان بن النعمان وجرده من جميع أملاكه وتوفي عام 80-699-700 م وهو خلاف ما ذكرته المراجع التاريخية بدليل وجود حسّان في القيروان سنة 82 هـ، وعودته من إفريقية سنة 85 هـ.

74. تهذيب ابن عساكر، ج4، ص 146-147.

75. ابن الحكم، المصدر السابق ص 68.

الفصل الثالث

نتائج حملة حسان وأثرها على المجتمع

1. تدوين الدواوين
2. الخراج
3. تنظيم الجيش الإسلامي الفاتح
4. دخول سكان الأوراس في الإسلام
5. تحالف سكان الأوراس مع المسلمين

- الخلاصة

أ.د. صالح بن قربة

نتائج حملة حسان وأثرها على المجتمع

سنناقش في هذا الفصل نتائج حملة حسّان بن النعمان التي تركت أثرا عميقا واضحا على بلاد المغرب، وشملت عدة ميادين مختلفة من حياته، فقد أظله لواء الإسلام، واصطبغ بالصبغة العربية الإسلامية في جميع ضروب حياته، ودخل عهدا جديدا ظهرت انعكاساته في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية والحضارية، لاسيما وأن الفتح النهائي للمغرب لم يتم إلا بعد أن خضع سكان منطقة الأوراس للسيادة العربية الإسلامية، واستقرار النفوذ الإسلامي على الساحل بفضل نمو البحرية الإسلامية.[1]

هكذا بعد القضاء على المقاومة الداخلية واستقرار الأوضاع الحربية للمسلمين بدأت مرحلة جديدة عاشها المجتمع المغربي، مرحلة لا تقل أهمية عن الفتح الحربي نفسه، تمثلت في ظهور نواة التنظيم الإداري لهذه الولاية ونشر الإسلام والثقافة العربية في ربوعها.

لقد استهل هذه السياسة ووضع لبنتها الأولى عقبة بن نافع الفهري، وتابع تنفيذها خلفه أبو المهاجر دينار الذي ظهرت في عهده ثمارها الأولى، واستكملها وثبّت أركانها حسان بن نعمان رائد الفتح الحقيقي لهذه البلاد الذي نجح حيث أخفق غيره.

لقد أولى خلفاء بني أمية عناية خاصة بالإدارة والنظم شملت كل مرافق الدولة الإسلامية، وشهدت الإدارة في عهدهم تطورات كثيرة، ومهما قيل من مآخذ عن

تاريخ دولتهم فيجب أن نضع في الاعتبار الظروف التي دوّن فيها تاريخهم[2]. وعلى الرغم من ذلك فإن الباحث المنصف لابد له من الاعتراف بالدور الذي لعبه بنوا أمية في التنظيم والتمصير وتطوير الإدارة، ومن المفيد جدا أن نعرض لهذه التطورات في المشرق حتى نستطيع حصرها في المغرب.

1. تدوين الدّواوين :

نشأت الدواوين في الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب نتيجة لاتساع الدولة واتصل المسلمين الفاتحين بالنظم الإدارية الفارسية والبيزنطية في الأقاليم المفتوحة - اقتبس المسلمون كثيرا من النظم الإدارية عن البلاد المفتوحة، وقد أبقوا ما وجدوه ملائما لهم.

اختلف المؤرخون في تاريخ نشأة الديون، فالطبري[3] مثلا يحدد15 هـ كتاريخ لبدء التدوين في عهد عمر بن الخطاب، بينما يذكر الماوردي[4] سنة 20 هـ.

يقول أبو الحسن الماوردي، (إن أول من وضع الديوان في الإسلام هو عمر بن الخطاب، واختلف الناس في سبب وضعه فقال قوم : إن سببه أن أبا هريرة رضي الله عنه قدم عليه من البحرين فقال له عمر، ماذا جئت به ؟ فقال : فقال خمسمائة ألف، فاستكثره، فقال له أتدري ما تقول قال : نعم مائة ألف خمس مرات. فقال عمر أطيب هو ؟ فقال : لا أدري فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الأعاجم يدونون لهم ديوانا فدون لنا ديوانا)[5].

وفي رواية أن عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الدواوين فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[6] : تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال ولا تمسك منه شيئا. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : أرى مالا كثيرا يسع الناس فإن لم يحصوا حتى يعلم من أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر فقال خالد بن

الوليد قد كنت بالشام فرأيت ملوكا دونوا ديوانا وجندوا جندا فدون ديوانا وجند جندا فأخذ بقوله.

والديوان في اللغة تعني الشياطين، وسمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم فهم الأمور[7]. وقد فهم على الجلي والخفي منها وجمعهم لما شذ وتفرق.

ولفظة ديوان فارسية معربة وتعني جدول أو ثبت أو سجل، وكانوا يضعون جداول بأسماء الأشخاص والقبائل التي لها نصيب أو حق في الضرائب التي تدخل بيت مال ثم أطلقت كلمة الديوان على المكان الذي يحفظ السّجلات الخاصة بالدولة. والملاحظ أن المصادر العربية تتحدث عن الديوان دون تحديد ويستطيع الدارس أن يفرق بين العطاء الذي دون له الديوان وبين ديوان الجيش الذي أفرد له ديوانًا خاصًا[8].

وفي العصر الأموي شهدت الدولة الإسلامية عملية تعريب الدواوين، والنقود، وقد اضطلع بهذه المهمة عبد الملك بن مروان – بقيت أهم الدواوين في الدولة وهي الخراج – كانت موجودة في حواضر الدولة الإسلامية ولها فروعها في مدن كثيرة – المعروف أن هذه الدواوين عامة كانت تكتب باللغات الأجنبية المعروفة آنذاك، فكانت لغتها في إيران والعراق هي الفارسية، وفي الشام اليونانية، أما في مصر فكانت اليونانية والقبطية وقد استمر الحال على ذلك حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، وكانت نتيجة لذلك احتفاظًا لدولة بعدد من الموظفين الأجانب، ويعني هذا الوضع بقاء تلك اللغات الأجنبية حيّة، وكأنها لغات رسمية. فيقبل الناس على تعلمها وإتقانها لحاجة الدولة إليها[9]. وشعورًا من عبد الملك بتعارض هذا مع شخصية الدولة العربية الإسلامية، التي كانت مهمتها الإشراف على شؤون المسلمين، وحرصًا منه على أن تبلغ الإدارة درجة عالية من الكفاءة والدقة والانتظام، ورأى من ناحية أخرى أنه ما كان ليتم هذا العمل ما دام هؤلاء الموظفون غرباء عن الدولة، ودامت اللغات التي يستعملونها في الأعمال والمكاتبات الرسمية هي لغاب أجنبية، فقرّر إلغاء هذا الوضع الشاذ، وأصدر أوامره بتحويل الدواوين إلى

اللغة العربية[10]، وبذلك تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة في جميع الدواوين فكانت لهذه الخطوة الإصلاحية الجريئة نتائج عظيمة بعيدة المدى ظهرت آثارها واضحة في جميع ولايات الدولة الإسلامية ومن بينها ولاية المغرب. وما دمنا بصدد الحديث عن هذه الولاية، نشير إلى حقيقة هامة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه العملية الإصلاحية، ألا وهي أن المؤرخين عامة والمغاربة على الخصوص أهملوها ولم يتركوا لنا معلومات مفيدة نستطيع على ضوئها معرفة شكل النظام الإداري الذي وضعه القائد حسّان بن النعمان لهذه الولاية، باستثناء ابن عذاري الذي أشار إلى هذه الناحية في هذه العبارة المقتضبة التالية : (أنصرف حسّان إلى مدينة القيروان بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم، وذلك في شهر رمضان سنة 82 هـ.

وفي هذه السنة استقامت بلاد إفريقية لحسّان بن النعمان، فدوّن الدواوين وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من قام معهم على دين النصرانية)[11].

نستخلص من هذه العبارة شيئين أو أمرين هما :

1. تدوين الدواوين.
2. الخراج.

ولكن رغم دلالتهما على حقيقة هذا الإصلاح الذي ارتبط بحسّان بن النعمان وما يوحيان به من تطبيق سياسة بناءة تجاه المسلمين الجدد الذين أصبحوا منذ هذا التاريخ يمثلون تيارًا جديدًا في المجتمع الإسلامي الكبير، فإن الغموض ما زال يكتنف هذه المشكلة الهامة التي ستبقى علامة استفهام ما لم نعثر على وثائق تاريخية تزيل هذا الغموض وتنير لنا السبيل.وبناء على ما سبق يمكن القول أننا مازلنا نجهل وظيفة هذه الدواوين وأسمائها ومجالاتها وأهم الميادين التي شملتها.

ومما لاشك فإن تعريب الدواوين في الدولة الإسلامية بالمشرق قد شمل ولاية إفريقية، إذ انشغل المسلمون بنواحي التنظيم التي أدخلها حسّان بن النعمان وتمخض عنها ظهور وظائف إدارية تتولى مختلف الاختصاصات الإدارية كالسجلات

وتعيين الموظفين، ونواب الأقاليم – ولكن رغم ذلك، فليس لدينا وثائق مؤكدة تشير إلى نوع اللغة المستعملة في التدوين آنذاك وإن كان هذا التنظيم الجديد لولاية المغرب قد واكب مرحلة تعريب الدولة الإسلامية كما مر بنا إلا أننا نستبعد أن تكون انعكاساتها قد وصلت إلى بلاد المغرب في هذا الوقت المبكر، بدليل أن تعريب النقود المغربية لم يتم إلا سنة 100 هجرية في عهد إسماعيل بن أبى المهاجر، وقد اتضح من دراستنا للمسكوكات المغربية في مرحلة الانتقال[12] أن اللغة الرسمية المستعملة في هذه الفترة هي اللغة اللاتينية. ثم اللاتينية الممزوجة بعبارات عربية، إلى أن عربت تعريبًا كاملاً، وأصبحت تحمل طابع الدولة الإسلامية.

نخرج من هذا الركام الهائل بأن بوادر الإصلاح والتنظيم قد بدأت في عهد حسّان سنة 82 هـ، ومن المعقول جدًا أن فكرة الدواوين قد ظهرت حقيقة في هذه الولاية إلا أن معالمها غير معروفة تمامًا فيما إذا كانت تشمل عدة تخصصات، أم أنها اقتصرت فقط على ديوان الجيش الذي يختص بتسجيل الجند ودفع أعطياهم، وتقسيمهم حسب النسب وتوزيعهم على الثغور.

ونعتقد أن حسّان بن النعمان قد أقام لكل وظيفة من وظائف الولاية الكبرى ديوانًا فيه الكتبة والرؤساء والمسؤولون، وليس مستبعدًا تعيين العمال على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وغير ذلك مما كان معروف في البلدان المفتوحة إذ ذاك[13].

وهكذا نظمت شؤون المغرب الإدارية تدريجيًا وفقا للتقاليد المعروفة، فدوّن الدواوين وعيّن العمال على الأقاليم والمدن.

أما بالنسبة للموظفين الإداريين فيبدو أن حسّان احتفظ بأهل البلاد الأصليين في وظائفهم[14]، الذين كانوا يمارسونها من قبل مع اختلاف بسيط مما عرفناه في كل من مصر والأندلس، فهذه الإجراءات عامة تعتبر تطبيقًا لسياسة العربية في هذا المجال – إلا أننا نلاحظ أن تجاه هذه السياسة أن والي المغرب أو عامله كان أكثر الولاة العرب حرية في التصرف وإطلاقًا في اليد، فقد منحته الدولة الإسلامية

في دمشق سلطات واسعة ليدخل ما يراه من النظم الكفيلة باستقرار الأمور وطبقا لهذه السياسة التي راعت ظروف هذه البلاد يمكن القول بأن النظام الإداري في المغرب كان نظام يتطور حسب الظروف.

2. الخـــراج :

عرّف الماوردي الخراج فقال : (إن الخراج هو ما يوضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها)[15].

وفي اللغة الخراج والخرج شيء واحد، يخرجه القوم في السنة بقدر معلوم[16].

فالخراج هو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة وأبقاها الخليفة في أيدي أصحابها ووقفها على مصالح المسلمين، كما يؤخذ أيضًا من الأراضي التي فتحها المسلمون صلحًا وتركها في يد أهلها[17].

وهناك أربعة أنواع من الأراضي لا يفرض عليها الخراج، وإنها يدفع أصحابها عشر ثمارها ومحصولاتها وتعرف باسم الأرض العشرية وهذه الأنواع هي :

أ. الأرض التي أحياها المسلمون، فهذه تعتبر أرض عشر لا يستحق عليها الخراج.

ب. الأرض التي أسلم أصحابها وهم عليها بدون حرب، فلا يجوز أن يوضع عليها خراج.

جـ. الأراضي التي أخذها المسلمون عنوة[18]، من المشركين فيمكن أن تقسم بين المسلمين شأنها في ذلك شأن الغنيمة أي يفرض عليها العشر.

د. الأرض التي صالح أهلها المسلمون فهي تعتبر أيضا أرض عشر، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج.

وكان يراعي في تقدير الخراج كمية المحصول ومساحة الأرض وجودتها وأنواع الزرع، يقول الماوردي موضحًا هذه المشكلة : (إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه

يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج ونقصانه، إحداهما يختص بالأرض من جودة يزكوا بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها. والثاني يختص بالزرع من اختلاف أنواعه، من الحبوب والثمار، فمنها ما يكثر ثمره ومنها ما يقل ثمره فيكون الخراج بحسبه، والثالث يختص بالسقي والشرب. ..ومن الناس من اعتبر شرطًا رابعًا وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمارها ونقصانها)[19].

أتيت على هذه التعريفات الفقهية لأهميتها من الناحية التاريخية والإدارية وارتباطها بموضوع البحث الذي يندرج ضمن هذا المنظور الفقهي.

ونتيجة لذلك، فقد اهتم القائد حسّان بهذه الناحية، وعمد إلى تنظيم الحالة المالية لولاية المغرب، واتبع نفس التنظيمات التي أتبعتها الدولة في العالم الإسلامي، ولم تختلف الإجراءات التي اتخذها عن مألوف السياسة العامة للدولة، ومن حيث فرض الجزية أو الخراج أو ملكية الأرض مع تطور بسيط أساسه ظروف العرب وتقاليد التحالف بين العرب والبربر، فقد منحوا البربر حق ملكية الأرض نظير ضريبة العشر المقررة.

ووفقا لظروف بلاد المغرب، فقد فرض حسّان الجزية[20]، على الروم وقبائل البرانس، كما فرض الخراج على أراضي غير المسلمين، وقسّم المغرب إلى مخطط بين قبائل البربر، نظير أن يدفع أهل كل خطة العشر عليها إذا كانوا مسلمين،لذلك كان يقسم الفيء والأرض بينهم[21]. بالرغم من قلة وغموض أخبار هذه الإجراءات الإصلاحية التي جاءت تتويجًا لهذا الفتح الذي أدى إلى دخول هذه الشعوب في الإسلام وتنظيم وسائل عيشها بطريقة عادلة ترضى بها منهاجًا لحياتها وأسلوبًا لعملها، وإحداث تنظيمات جديدة يتماشى وأسلوب الحياة الجديد، يرجع الفضل في ذلك إلى حسّان بن النعمان الذي حاول بهذه الإصلاحات أن يرقى بمستوى شعوب هذه المنطقة إلى نفس المستوى الذي عرفته البلدان المفتوحة في هذا المضمار.

3. تنظيم الجيش الإسلامي الفاتح :

يعتبر حسّان بن النعمان أول من أدخل عناصر جديدة في الجيش الإسلامي الفاتح من أهل البلاد (المغرب) فهو بهذا العمل يكون قد اتبع نفس التنظيمات العسكرية التي ابتعها الخلفاء الأمويون في العالم الإسلامي كله.

وقد لا نبالغ كثيرًا إذا اعتبرنا هذه الخطوة الجريئة فريدة حقًا في السياسة الإسلامية التي كانت وإلى ذلك الحين تتجنّب تجنيد أبناء البلدان المفتوحة، على هذا النطاق الواسع، فقد كانت الخدمة العسكرية وقفًا على العرب لا يشاركهم فيها غيرهم، كما أن الجهاد حقًا من حقوقهم وواجبًا دينيًا من واجباتهم، ولذلك نجد جيش المسلمين يتكون من القبائل العربية، ينفق عليهم من خراج الأرض ومن الضرائب المفروضة على سكان البلدان المفتوحة[22].

وبإدخال حسّان البربر إلى صميم الجيش العربي، يكون قد أضاف عنصرا بشريا جديدا زاد الجيش الإسلامي بالمغرب قوة – وأما عن الكيفية التي تم بها هذا الحديث يقول المالكي : (اجتمع الروم والبربر على قتال حسّان فقاتلوه فهزمهم الله تعالى فخافوا فاستأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم حتى أعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألف فارس تكون مع العرب مجتهدين فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد لولدي الكاهنة بعد إسلامهما عقدا لكل واحد منهما ستة آلاف من البربر وجعله واليا عليهم، وأخرجهم مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر، فمن ذلك صارت الخطط للبربر بإفريقية، فكان يقسم الفيء والأرض، فحسنت طاعتهم فدانت له إفريقية، ودوّن الدواوين ثم قدم القيروان)[23].

يستشف من نص المالكي السابق، أن عناصر الجيش الإسلامي الجديد كانت تتبع نفس التنظيم القبلي والعشائري الذي احتفظ به العرب في البلدان المفتوحة[24]، ويدل أيضا على أن حسّان بن النعمان كان يريد أن ينتقل بالبربر

خطوة في سبيل الاستقرار. وقد لعب هؤلاء فيما بعد دورا بارزا في استكمال عملية فتح المغرب الأقصى، ولا سيما مشاركتهم الفعالة والحاسمة في فتح إسبانيا (الأندلس). وبذلك سجلوا أول صفحة في تاريخ الجهاد في سبيل الله.

ورتب للجند الأعطيات وسوّى بين المسلمين والسكان دون تمييز في الفيء والأرض، بل إن حسّان إن جاز التعبير لم ينظر إلى البربر على أنهم محكومين والعرب حاكمين فحسب، وإنما أسند قيادة البربر في الجيش الإسلامي إلى ولدي الكاهنة زعيم قبائل البتر في منطقة الأوراس.

فهذا التقسيم إذا يتماشى وطبيعة هذا الشعب الميال إلى الاستقلال، وفي الوقت نفسه يفصح عن حسن سياسة هذا الرجل وفهمه العميق لهذه الظاهرة النفسية.

وهناك مسألة هامة تستحق البحث والتقصي، وهي كيف كان حسّان يدفع رواتب أو أعطيات الجند، فهل كانت تتم بالعملة اللاّتنية البيزنطية التي ساد التعامل بها آنذاك، أم أنه ضرب عملية محلية على الطراز القديم لهذا الغرض ومهما يكن من أمر، فإن بحث هذه المسألة ليس مكانها هنا، ولا بأس من مناقشتها مادامت مرتبطة بموضوع الجيش.

ليس لدينا وثائق تاريخية يمكن الاعتماد عليها في معرفة ما إذا كان حسّان قد فكر فعلا في ضرب النقود على طراز اللاتيني البيزنطي، لتكون وسيلة التعامل في الأسواق والمبادلات اليومية.

وإن كان من الباحثين من يؤكد بالحرف الواحد أن حسّان بن النعمان قد ضرب السكة دنانير ودراهم وفلوسا[25]، ويضيف بأن الناس كانوا يتعاملون قبل ذلك بنقود القوط[26]، والبيزنطيين.

والواقع أن حسّانا لم يضرب دنانير على الطراز اللاّتيني العربي، كما يذهب (شيت الخطاب) في كتابه قادة المغرب العربي[27]، وحتى لو سلمنا بهذا الرأي

وافترضنا أنه ضرب فعلا نقودا ذهبية أو برنزية، لوصل إلينا منها على الأقل نماذج تؤكد صحة ذلك أو تنفيه، لاسيما إذا وضعنا في الاعتبار أن الفترة نفسها التي قضاها حسّان في القيروان ليست طويلة، بحيث تسمح له بضرب نقود بهذه السرعة - ولهذه الأسباب مجتمعة فإن معلوماتنا القليلة البسيطة لاتسمح لنا بمعرفة ما إذا كان حسّان قد عرّب السكة المغربية فعلا أو أدخل بعض التغيرات على شكلها ونقوشها، خصوصا وأن هذه الفترة معاصرة لفترة تعريب النقود في الدولة الإسلامية.

ونرى بأن هذا العمل الذي يدخل ضمن الإصلاح النقدي لبلاد المغرب، إنما تم في عهد خلفه موسى بن نضير الذي وصلتنا نماذج من نقوده تمثل مختلف المراحل التي مرت بها في سبيل تعريبها تعريبا كاملا. ومن الملاحظ أن عمليتي تعريب الإدارة والنقود تعتبر من أهم الأحداث البارزة في تاريخ الدولة الإسلامية، لأنها تمثل إحدى المظاهر الرئيسية في الشخصية العربية الإسلامية.

وعلى أية حال يستحيل عقد مقارنة بين النظام الناشئ الذي وضع أسسه المسلمين في البلدان المفتوحة في المشرق، وبين النظام الإداري في المغرب، يرجع ذلك حسب اعتقادنا إلى اختلاف ظروف هذا الإقليم عن بقية أقاليم الدولة الإسلامية الأخرى.

فمعالم النظام الإداري بالمغرب حتى هذه الفترة ما زالت غامضة وغير واضحة بسبب استمرار عملية الفتح الإسلامي والتمكين له، وترسيخ قواعد هذا الدين فكانت ظاهرة تمصير المغرب تسير جنبا إلى جنب مع الفتح الذي بلغت حركته نهايتها في عهد الوالي موسى بن نصير في الربع الأخير من نهاية القرن الأول الهجري - الثامن الميلادي.

تلك أهم المظاهر العامة التي شملها هذا التنظيم الجديد الذي واكب عملية فتح هذه البلاد. وإذا كانت تلك أبرز الأعمال التي قام بها حسّان بن النعمان منذ توليه

عملية الفتح، فهناك أعمال أخرى لا تقل أهمية عنها إن لم تفتها في أبعادها الحضارية ونتائجها، ونعني بهذا إسلام سكان الأوراس وتحالفهم مع المسلمين.

4. دخول سكان الأوراس في الإسلام :

اقترنت حركة الفتوح الإسلامية عامة بانتشار الإسلام في هذه البلاد التي تم للعرب فتحها، فرحبت الشعوب والقبائل على اختلاف ألوانها وأجناسها بالدين الجديد السمح، حبا في الخلاص من ظلم حكامهم، ورغبة في التمتع بالحرية الدينية[28].

لأن الإسلام يبيح لغير المسلمين ممارسة شعائرهم الدينية على أن يدفعوا الجزية في مقابل الكف عنهم وحمايتهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين[29]، فدخلت الشعوب في الدين الجديد أفواجا أفواجا لما لمسوا فيه من تسامح ومساواة لأن الإسلام يسوي بين المسلمين في الحقوق والواجبات.

وللوقوف على عملية إقبال سكان الأوراس على الإسلام واندماجهم في الحضارة العربية الإسلامية، لابد من إلقاء نظرة واسعة على ديانتهم التي كانوا يمارسونها قبل دخول الإسلام هذه المنطقة.

كان سكان المغرب من قديم الزمان يدينون بالمجوسية، وأحيانا يدينون بدين من غلبهم من الأمم[30]. وكان اليهود يلجأون للمغرب كلما نزلت بهم نائبة، فمن أيام بختنصر (586 ق.م) إلى انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس (1492) كان وفود اليهود ترد على المنطقة[31] وخير من يصور حالة البربر الدينية في هذه الفترة المؤرخ السلاوي الذي يقول بأن : (البعض من البربر قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه من بني إسرائيل عند استعمال ملكهم لعرب الشام... حتى محا إدريس الأكبر جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل. ولما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الأمم مثل الحبشة

والقبط والفرنج والقوط وغيرهم حملوهم على الأخذ به فدانوا به معهم وتلقنوه معهم وبثوه في بلادهم ورعاياهم. وكان الفرنج مجاورين للبربر في المغرب الأدنى والقوط مجاورين لهم في المغرب الأقصى ليس بينهم إلا خليج البحر فحملوه أهل السواحل منهم على الأخذ بذلك الدين فدانوا به أيضا واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالإسلام فدانت به البربر، ولهذا السبب كان كسيلة الأوربي ويليان الغماري من كبار البربر نصارى[32].

نستخلص من نص السلاوي السالف الذكر أمرين رئيسيين :

انتشار اليهودية بين بربر المغرب.

انتشار الدين المسيحي بين سكان بلاد المغرب الذين سكنوا الجهات المتاخمة للسواحل وتأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية وتشربوا بالثقافة اللاتينية، وهؤلاء تطلق عليهم المصادر التاريخية اسم (البرانس).

بينما سكنت الطائفة الثانية من البربر، المناطق الداخلية كالجبال والهضاب وغيرها، وكانت تعتنق الوثنية وشيء من اليهودية، وتعرف هذه القبائل باسم (البتر).

والملاحظ أن ديانة البربر قبل الإسلام، اجتذبت الكثير من الباحثين الأوروبيين الذين اهتموا ببحثها ودراستها، يأتي في مقدمتهم (الفريد بل)[33] (Bel A.).

وقبل أن نناقش ظاهرة إسلام البربر، من المفيد جدا معرفة بعض الشيء من طباع البربر وأخلاقهم وصفاتهم، ولعل ابن خلدون خير من يصف لنا أخلاق وصفا دقيقا فيقول : (وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلال الحميدة وجلبوا عليه من الخلق الكريم، من عزّ الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمة والوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملك، والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام، والرحمة على المسكين، وبرّ الكبير وتوقير أهل العلم، وحمل الكل، وتهيئة الكسب للمعدم، وقري الضيف والإعانة على النوائب، وعلو الهمة، وإباء الضيم، ومقارعة الخطوب وغلاب الملك، وبيع النفوس

من الله في نصر دينه، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتتبعيه من الأمم، وحسبك واكتسبوها من حميدها، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العزّ، وأوفت بهم على ثنايا الملك حتى علت أيديهم، ومضت في الخلق بالقبض والبسط إحكامهم)[34].

وقد وصف موسى بن نصير البربر عندما طلب منه الخليفة سليمان بن عبد الملك ذلك فقال : (هم يا أمير المؤمنين أشبه بالعرب لقاء ونجدة وفروسية)[35].

ومما سبق يتبين أن البربر أقرب الأمم إلى العرب في الطباع وأسلوب الحياة، ولذلك يرجع بعض المؤرخين ظاهرة إسلام البربر إلى التشابه الموجود بين الجنسين أنفسهما كما يرجعون هذا التشابه أيضا إلى الاتفاق في البيئتين اللتين ينتمي إليها كل من العرب والبربر، فطبيعة بلاد المغرب الذي يغلب عليها الطابع الصحراوي أشبه بطبيعة بلاد العرب، وهو الأمر الذي ترتب عليه نتائج ذات طبيعة متشابهة من حيث الاجتماع والعمران...

وأنتج هذا التشابه في العمران عادات وتقاليد مؤتلفة، كما ساعد على خلق عبقرية متجانسة تربط بين أصحابها في سرعة ويسر[36].

يقول أحد المؤرخين من غير المسلمين[37] عن إسلام هذا الشعب المغربي ودخوله في الحضارة العربية الإسلامية : (إن تأثير الفاتحين الأقدمين كان مقتصرا على النطاق الضيق الخصب المجاور للسواحل، وكان من هذا التأثير أن سكان هذا النطاق وحدهم اعتنقوا المسيحية أيام الرومان والبيزنطيين، أما فيما عدا ذلك فإن السكان لم يتأثروا تأثرا عميقا بالحضارة الرومانية - مثلا - لأن الرومان والبيزنطيين كانوا يعيشون غالبا في المدن الساحلية. أما صبغ جموع البربر بصبغة عربية وتحويلهم إلى عقيدة الإسلام وتجنيد جند منهم يتسابقون في مضمار الفتوح، فتلك معجزة الإسلام التي مكنت له من إنشاء وطن جديد استعان به في ارتقاء الزعامة العالمية).

ووفقا لهذا التشابه يحلوا لبعض الباحثين تطبيق نظرية ابن خلدون في تأثير الدين الكبير على العرب وتأثرهم به – كما طبق أيضا على البربر أنفسهم،يقول ابن خلدون في هذا الشأن : (والسبب في ذلك أنه بخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواءهم. فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشمل من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس... ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق[38].

تنطبق هذه النظرية على البربر لوجود ظاهرتين في العرب والبربر ينتج عنهما التأثير الكبير للدين[39]، هاتان الظاهرتان تبرزان في :

1. وجود الدعوة الدينية وتحقيق ذلك بمجيء الإسلام إليهم.
2. وجود قوة كبيرة تبرز هذا الدين وتدافع عنه.

ولهذا رحب سكان المغرب بالإسلام لأنه الدين الذي ينادي بالأخوة والمساواة في الحقوق والواجبات فاعتنقوا الإسلام عن اقتناع ورغبة.

يقول الأستاذ جورج مارسيه معلقا على سرعة انتقال البربر إلى الإسلام : (ففي أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأكبر من أبناء أولئك المسيحيين الإسلام في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة)[40].

هكذا اعتنق البربر الإسلام في عهد الوالي حسان بن النعمان الذي كان ينظر إلى صالح الأهلين، ويسعى إلى تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير[41]. فمنذ قضائه على مقاومة الكاهنة وطرد الروم نهائيا من أرض المغرب عمل على نشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر. فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين، ونشر اللغة العربية، لغة القرآن، فأقبل البربر على الإسلام في حماس ورغبة شديدة وحسن إسلامهم[42].

ونتج انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية، لغة القرآن في بلاد المغرب.

ولننظر الآن في الدور التاريخي الهام الذي لعبه حسّان بن النعمان في إسلام البربر واندماجهم في الحياة العربية الإسلامية.

5. تحالف سكان الأوراس مع المسلمين :

يبدو لأول وهلة أن هنالك جملة أسباب أخرى تفسر ظاهرة انتشار الإسلام في بلاد المغرب، وسرعة تقبل الناس له، وإقبالهم عليه في حماس فياض، ويأتي في مقدمة هذه الأسباب أن بعض هؤلاء العرب اتخذوا سياسة واضحة كانت بعيدة في انتشار الإسلام وإقبال أهل المغرب عليه[43]. كما أن هناك بعض المظاهر العامة في علاقة المسلمين بالبربر عقب مقتل الكاهنة ملكة جبال أوراس سنة 82 هـ، حيث كانت تتخذ شكل الصلح أو الرهن[44]. ونعتقد بأن هذه الظاهرة

تعتبر من أبرز العوامل الفعالة التي مهدت الطريق إلى الإسلام، وهذا المؤرخ ابن عذاري يصف لنا تفاصيل هذا الصلح الفريد الذي عقد لأول مرة في تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب يقول ابن عذاري : (وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثنتي عشر ألف يجاهدون مع العرب. فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد لولدي الكاهنة، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر، وانصرف حسّان إلى مدينة القيروان، بعدما حسن إسلام البربر وطاعتهم[45].

وتطبيقا لروح الإسلام في المساواة / منح حسّان البربر الذين أيدوا الفتح العربي الإسلامي كل المكاسب المادية والمعنوية التي يتمتع بها المسلمون، كاشتراك البربر في الجيش الإسلامي الفاتح كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وأخذهم نصيبهم من الأعطيات، بل قسم الفيء والأرض بينهم[46]، إسناد قيادة هذا الجيش إلى ولدي الكاهنة.

ولما اطمأن حسّان على إخلاص البربر لهذا الدين عاد إلى مدينة القيروان بعد أن (ترك معهم ثلاثة عشر رجلا من علماء التابعين يعلمون لهم القرآن وشرائع دينهم... فعزموا على الإسلام بنية صحيحة فبنوا المساجد).[47]

ومما لاشك في هذه السياسة الإسلامية التي طبقها حسّان بن النعمان في إفريقية تخالف تماما ما ألفه البربر مع حكم الرومان حيث كان أهل المغرب مهما بلغت ثقافتهم ومكانهم من موالي الرومان لهم المرتبة الثانية في المجتمع[48]. ويعلق الأستاذ الكعاك على الفتح الإسلامي للمغرب بأنه فتح يختلف عن غيره من الفتوحات السابقة للمغرب كالفتح الفينيقي والروماني لأنه فتح ثقافي،فقد حمل الفاتحون اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم (الذي هو قوام دين، ودستور سياسة، وبحر أخلاق وقاموس لغة، وديوان ثقافة لذلك بني الفتح على الثقافة في يوم الفتح نفسه)[49].

وعلى ضوء ما سبق يتضح بطلان دعوى بعض المستشرقين الذين يزعمون بأن مجيء العرب إلى بلاد المغرب لم يؤثر حالة البربر إلا تأثيرا ضئيلا[50].

فهذا القول باطل من أساسه لأنه بعيد عن المنطق ولا يستند على الأدلة المادية والمعنوية، فضلا عن أنه يتسم بروح العصبية والميل إلى إبعاد كل ما له صلة بالعرب وبالحضارة العربية الإسلامية، فالأحداث التاريخية الواقعة في هذه الفترة تؤكد العكس تماما، وتبين أن المجتمع المغربي قد تغير قلبا وقالبا في ظل الإسلام، وأن البربر انتقلوا من مجتمع مستبد ميزهم وقسمهم إلى طبقات وجعل منهم عبيدا للرومان، إلى مجتمع إنساني قوامه المساواة والعدل والأخوة والتسامح.

وقد ذهب مستشرق آخر إلى أن (المصلحة تغلبت في إسلامهم على الإقناع لأن قواد العرب عملوا على تجنيدهم في جيوشهم فأسلموا طمعا في الغنائم... ومع أنهم دخلوا في الإسلام إلا أنه لم يسبق بينهم وبين العرب)[51].

هؤلاء المستشرقون بالغوا كثيرا في نفي إخلاص البربر للإسلام وجميعهم يكادون يجمعون على رأي واحد هو أن البربر لا يحلفون بالدين وأن إسلامهم كان شكليا.

ولكن الوقائع التاريخية المدعمة بالنصوص الثابتة تخالف ما ذهبوا إليه فالحقيقة التاريخية تفرض نفسها واضحة، على تاريخ المغرب[52]، حيث أن البربر أسلموا عن رغبة واقتناع لوجود عوامل دفعتهم إلى اعتناق الإسلام، لأنه حقق لهم ما حرموا منه أيام الحكم البيزنطي.

وإلا كيف نفسر ظاهر اشتراك هؤلاء في الفتوح الإسلامية (فتوح المغرب الأقصى والأندلس)، وإسناد القيادة إلى واحد من أبرز قادة البربر (طارق بن زياد) الذي قاد الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا. وقد ساعد انتشار الإسلام سريعًا في أرض المغرب، واصطباغ رعاياه بالحضارة الإسلامية حسن معاملة المسلمين الفاتحين للبربر سكان البلاد[53].

فالفتح الإسلامي ليس مرادف لكلمة الاحتلال أو الاستعمار، لأن هذه النعوت كما يقول أحد الباحثين، ليس لها صفة الدوام والاستمرار أو التركيز[54]، وبناء على ما سبق يمكن القول بأن الفتح الإسلامي تعني الفتح الحربي والمعنوي إلى أبعد الحدود، ذلك لأن لغة الفاتح ودينه وعاداته وثقافته، هي التي حلت محل اللغة والدين والعادات التي كانت عليها البلاد المفتوحة، وبمعنى أدق هو التعريب والتمصير الصحيح، فقد أضحى البربر بعد ذلك عدة الإسلام في الفتوح ونشر الإسلام، بل إن الجيش الذي عبر إلى الأندلس كان خليطًا من العرب والبربر وقد يكون البربر العنصر الغالب فيه[55].

واستكمالا لهذا الموضوع الشائك، نتعرض فيما يلي إلى مسألة (أرض المغرب) وما دار حولها من نقاش بين الفقهاء والمؤرخين، هل فتحت عنوة أم صلحًا ؟.

والملاحظ أن نفس المشكلة التي أثيرت حول العرق ومصر وهل فتحت هي الأخرى عنوة أم صلحًا ؟ ظهرت هنا من جديد بنفس الكيفية، ولكنها جاءت متأخرة وفقا لظروف الفتح في هذه البلاد، مما لا جدال فيه أن الفترات الأولى من الفتح لم تكن في حاجة إلى أن تتعلق بأذيال المشكلة، فقد كان العرب قلة والأرض واسعة، وكانوا كذلك لا يكادون يستقرون حتى تخرجهم الحرب عن مستقرهم[56].

ولكن ولاية حسّان بن النعمان التي امتازت بالعمل والتنظيم الإداري الذي يدل على الاستقرار في هذه الولاية الجديدة.

والظاهر أن هذه المشكلة أخذت منطلقًا جديدًا في ولاية حسّان بن النّعمان التي تميزت بالعمل والتنظيم الإداري، فظهرت معالم الاستقرار التي جعلت من هذه الولاية تحيا حياة قوامها المساواة بين طبقات المجتمع المسلمة.

ومن الملاحظ أن حل هذه المشكلة والفيتا فيها قد اتخذ أسلوبًا جديدًا في النقاش الذي احتدم بين الفقهاء والمؤرخين، فتحدث ابن عبد الحكم عن أرض مصر فأورد الأقوال المتباينة وجعلها منقسمة بين الذين قالوا إنها فتحت صلحًا والذين قالوا إنها فتحت عنوة[57].

بينما نجد الفقهاء والمؤرخين في المغرب يلتمسون تعبيرًا جديدًا فلا يتكلمون عن كلمتي الصلح والعنوة وإنما يشيرون إلى أن أرض المغرب أسلم عليها أهلها. وقد أورد صاحب الاستقصاء خيرًا يتضمن بعض التساؤلات عن حقيقة أرض المغرب ما إذا كانت فتحت صلحًا أم عنوة[58]، يقول : (يحكى أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس حين تغلب على ارض فارس قال لهم : أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة ؟ فقالوا له لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه، يقصدون أبا جيدة، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال : ليست بصلح ولا بعنوة إنما أسلم عليها أهلها، فقال خلّصكم الرجل).

وعن نفس الموضوع يقول أبو زكرياء يحي بن أبي بكر : أنه لا خلاف في أن أهل المغرب أسلموا عليه فلم يعزو إلى عنوة ولا إلى صلح.

يتبين من الروايات السابقة أن المغرب قد اصطبغ بالصبغة الإسلامية الخالصة كما تؤكد أيضا على أن أهل المغرب قد أسلموا عن اقتناع ورغبة صادقة ونية خالصة الشيء الذي جعلهم يقبلون إقبالا منقطع النظير على الامتزاج في الحياة الجديدة.

وبناء على ما سبق نستطيع القول بأن أرض المغرب جميعها منذ بدأت حركة الفتوحات الإسلامية فيها لم تدخل ضمن المصطلحين المعروفين اللذين طبقا في كثير من البلدان التي فتحها المسلمون وهما الصلح أو العنوة، لأن أهلها أسلموا فكان يجري عليهم ما يجري على المسلمين دون تمييز. أو تفاضل، فإن دلّ هذا الموضع على شيء، فإنما يدل على النفس الطيبة التي أقبل بها سكان المعرب على الإسلام.

ومن غير شك أن عملية إسلام هؤلاء السكان تتلوها مباشرة تعليم اللغة العربية ونشر الثقافة العربية بين ظهرانيهم.

فإن تكن اللغة العربية لغة الدين الإسلامي فذلك يكسبها عنصر من القوة والقدسية، ولم تستطع أن تقف اللغة اللاتينية لغة الإدارة والثقافة آنذاك في العصر البيزنطي أمام اللغة العربية، ذلك أن اللغة اللاتينية لمن تعش كثيرًا على ألسنة الناس، فقد هاجر أصحابها إلى صقلية من الولايات البيزنطية في المغرب، بعد انتصار المسلمين عليهم وصفّى حسّان بن النعمان الموقف الحربي. لقد أصاب أحد المؤرخين الأوروبيين عندما قال بأن الحضارة البيزنطية قد اختفت من شمال إفريقية على أثر خروج الإغريق واللاتين منها إلى صقلية والأندلس[59].

ولذلك تعتبر اللغة اللاتينية لغة دخيلة على المجتمع الإفريقي طارئة عليه ليست لها الجذور العميقة التي تمدها بالحياة[60]، لذلك سرعان ما استطاعت اللغة العربية أن تطردها مع الذين خرجوا من هذه الولاية لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار أن ملحة الفتح الإسلامي ونشر الإسلام والثقافة العربية بهذه البلاد، قد واكب حركة تعريب الدواوين وصبغ الدولة الإسلامية بالصبغة العربية الخالصة، ومن الواضح أن تلك العملية قد شملت جميع البلدان المفتوحة، بما في ذلك المغرب، وقد ساعد على تسيير هذه العملية ما قام به حسّان من وضع نظام إداري وحياة حكومية منظمة، فكسبت اللغة العربية جولتها التمهيدية مع اللغة اللاتينية.

الخلاصـــة :

وهكذا أصبحت ولاية المغرب بعد رحيل حسّان عنها أرضًا إسلامية عربية حيث بدأ تعريبها منذ تأسيس القيروان[61]، بدليل أنه لما تولى موسى بن نصير شؤون هذه الولاية وجد أن الفتح قد تم وانتشر الإسلام بها[62].

إن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب على عهد القائد حسّان بن النعمان يعتبر بحق خطوة هامة تركت أثارًا عميقة في سكان هذه المنطقة في جميع ضروب الحياة السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية، والتي ستتضح معالمها في تاريخ المغرب الإسلامي فيما بعد.

إن السياسة التي اتبعها رائد الفتح الحقيقي لبلاد المغرب كانت موفقة إلى حد بعيد فقد ترتب عنها خروج هذه البلاد من نظام قديم مستبد لم تنعم فيه بوحدة سياسية أو حياة استقرار إن جاز التعبير، إلى نظام جديد كل الجدة أظلها بروح الإسلام ووفر لها كل مقومات الحياة، وأشرك أهلها في العمل ومنحهم القيادة، وسوى بين البربر والعرب، ونستطيع القول إن حسّان بن النعمان صاحب الفضل الأول في كل ذلك، فقد دخل البلاد سنة 81 هـ، فوجدها مضطربة ثائرة، وجد أمر الإسلام فيها مشفيًا على الزوال[63]. وغادرها 85 هـ / 705 م ولاية إسلامية منظمة، بل غادرها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالا عظيما، ويكفي دليلاً على ذلك أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر وكان من الطبيعي أن تكون خاتمة هذه الأعمال ظهور حياة الاستقرار والامتزاج بين الجنسين لأول مرة في تاريخ الإسلام، هذا الامتزاج الذي طعمه الإسلام سيتبلور عنه ظهور الحضارة المغربية الإسلامية في عصر الإمارات والدول الكبرى التي تعاقبت على حكم المغرب.

حواشي

1. سانت موس. هـ، ميلاد العصور الوسطى (مترجم)، ص 254.
2. د. فتيحة البنراوي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية – (ط - 2 دار المعارف) القاهرة 1981 ص 79.
3. الطبري، تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) ج 3القاهرة – 1971 - 1969 ص 613.
4. المارودي، الأحكام السلطانية (القاهرة 1969) ص 199 – ابن خلدون، المقدمة ج2، ص 784.
5. الماوردي، نفس المصدر السابق، ص 199.
6. ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 784.
7. ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 783.
8. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج13، ص 106.
9. د. محمد ضياء الدين الريس، نفس المرجع، ص 224.
10. د. محمد ضياء الدين الريس، المرجع السابق، ص 224.
11. ابن عذاري، البيان ج1 ، ص 38 – ابن عبد الحكم (فتوح، ص 64-67) عبد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) نشر وتحقيق ليفي بروفنسال في صحيفة المعهد المصري بمدريد سنة 1954، ص 223.
12. د. صالح بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد (ط. المؤسسة الوطنية للكتاب) الجزائر1986، ص 73-118.
13. د. حسين مؤنس، نفس المرجع، ص 276.
14. اعتمد العرب على أهل البلاد الأصليين من البيزنطيين وغيرهم، لأن العرب في هذه الفترة بالذات لم يكن في وسعهم أن يعالجوا هذا الوضع من الناحية الإدارية لذلك لم يبذلوا في النظام الإداري والمالي المتبع في هذه البلاد.
15. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 146.

16. د. فتيحة البنراوي، المرجع السابق، ص 134.
17. د. سرور، تاريخ الحضارة في المشرق (ط - 3دار الفكر العربي) القاهرة 1973، ص 110.
18. اختلف الفقهاء في حكم هذه الأرض، (أنظر التفاصيل في الأحكام السلطانية، ص 142).
19. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 143-144.
20 الجزية هي مبلغ من المال، يدفعه أهل الذّمة نظير احتفاظهم بدينهم وحماية الدولة لهم، أما المسلمون فيدفعون الزكاة حتى يتعادل الفريقان في تحمل المسؤولية وهما رعية لدولة واحدة (سرور، المرجع السابق، ص 108).
21. المالكي، رياض النفوس، ص 33.
22. بليا بيف.ي.أ، العرب والإسلام والخلافة العربية (ترجمة د. أنيس فريحة) (ط. الدار المتحدة للنشر بيروت - لبنان 1972)، ص 190.
23. المالكي، رياض النفوس ص 32–33.
24. د. صالح بن قربة، التنظيمات العسكرية في عهد (الرسول صلى الله عليه وسلم) (ط المتحف المركزي للجيش) الجزائر 1985، ص 13.
25. محمود شيت خطاب، المرجع السابق ص 212.
26. لا أساس لهذا الإدعاء، الذي لا يقوم على دليل مادي فنقود القوط كانت من اختصاص القوط في إسبانيا ووسيلة تعاملهم قبل الفتح الإسلامي لها، أما بعد الفتح وتمصير الأندلس، فقد تغير الوضع النقدي تماما، إذ أصبح التعامل يتم في فلك الاقتصاد الإسلامي بوحداته النقدية : الدينار الذهبي والدرهم الفضي بأجزائها من النصف والربع إلخ...
27. المعروف أن نقودهم لم تدخل المغرب في هذه الفترة، لأن العملة السائدة فيه كانت الدينار والفلس البيزنطيين، كما أن عملة القوط نفسها غير مقبولة في المغرب، لأن الدينار البيزنطي بجودته وشهرته يطرد العملة القوطية، فالعملة القوية تطرد العملة الرديئة.
انظر د. صالح بن قربة، المسكوكات المغربية... ص 14 وما بعدها.
28. د. سرور، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية (دار الفكر العربي) (ط. 2 القاهرة 1966) ص 50.
29. المارودي، الأحكام السلطانية ص 137.
30 ابن خلدون، كتاب العبر ج.6، ص 106.
31. د. أحمد شيلي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج.4، ط 2 القاهرة 1966، ص 166.
32. السلاوي، الاستقصاء ج 1، ص 69-70.

33. انظر :

- Bel A., La religion Musulmane en Berberie, pp. 71-73.

– دائرة المعارف الإسلامية مادة (البربر)، ص 514.

34. ابن خلدون، العبر ج 6 ، ص 104.

35. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة (القاهرة 1904)، ج1، ص 101.

36. د. إبراهيم أحمد العدوي، موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي القاهرة 1967، ص 57.

37. نقلا عن محمد أحمد حسونة، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية ص 60-61.

38. ابن خلدون، المقدمة ج2، ص 626.

39. رفعت فوزي عبد المطلب، الخلافة والخوارج في المغرب العربي (ط 1 القاهرة 1973)، ص 35.

40. أنظر:

Marçais G., La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen age – Paris, 1946, p.36.

41. د. حسين مؤنس، فجر الأندلس ط 1 – القاهرة 1959، ص 46.

42. ابن عذاري، نفسه ص 38.

43. د. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ج1 ،ط. دار النهضة العربية 1963، ص 158.

44. د. شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول للهجرة ط. دار العلم للملايين، ص 164.

45. ابن عذاري، البيان ج1، ص 38.

- Faurnel, op.cit, p. 224.

– Gautier F., *Le passé de l'Afrique du Nord,* pp.

46. المالكي، رياض النفوس، ص 38.

47. عبيد الله بن صالح نص جديد في فتح العرب للمغرب مجلة الدراسات الإسلامية بمدريد - (نشر ليقي بروفسال) عام 1954، ص 223.

48. د. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية ج1، ص 159.

49. عثمان الكعاك، مراكز الثقافة في المغرب (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية) القاهرة 1958، ص 12.

50. دائرة المعارف الإسلامية مج 3 مادة (بربر)، ص 504.

51. دائرة المعارف الإسلامية مج 3 مادة (بربر) كتبها ج. يفرص. 514.

52. رفعت فوزي عبد المطلب، الخلافة والخوارج في المغرب العربي، ص 34.

53. د. إبراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص 206.

54. د. إبراهيم علي طرخان، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى (سلسلة الألف كتاب) القاهرة، ص 124.

55. ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 247، العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص 37-38.

- Risier J.C., *La Civilisation Arabe,* Paris, 1955, pp. 36-47.

56. د. شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية، ص 166.

57. ابن عبد الحكم، فتوح... ص 128 وما بعدها.

58. السلاوي، الاستقصاء، ج1، ص 90.

59. أنظر: .BECKER, in C.H.M., T 2., p 370 –

60. د. شطري فيصل، نفس المرجع، ص 183-184.

61. أنظر: - Pellggrin, *Histoire de la Tunisie,* p.91.

- *Essai sur les noms de lieux d'Algerie et de Tunisie,* p.145.

62. - Diehi.ch, *l4 Afrique Byzantine ;* p. 587.

63. د. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 45-46.

ثبت بمصادر ومراجع البحث

1. المصـــادر :

01 ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) : – المؤنس في أخبار إفريقية وتونس (تحقيق محمد شمام) تونس.1967.

02 ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير الجزري المعروف بعز الدين : – الكامل في التاريخ، القاهرة 1303 هـ وبيروت 1957 م، ج 4، 1348 هـ /1971 م.

03 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : – العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج. 6ط. بيروت - لبنان. 1959 المقدمة (تحقيق علي عبد الواحد وافي) القاهرة 1966، ج 2.

04 ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان) : – وافيات الأعيان وأنباء الزمان (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) القاهرة، 1948.

05 ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) : – فتوح مصر والمغرب (تحقيق عبد المنعم عامر) القاهرة 1948 م - فتوح إفريقية والأندلس (تحقيق عبد الله أنيس الطباع) ط. بيروت، لبنان 1964 م.

06 ابن عذاري (أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي) : – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (تحقيق ليفي بروفنصال) ط. بيروت، لبنان1948 م.

07 ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الحين بن عساكر) - التاريخ الكبير (تحقيق ابن عساكر) ط. دمشق 1329 هـ.

08 ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري) : – الإمامة والسياسة.ط.القاهرة1904 م.

09 البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري) : – المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (تحقيق ذي سلان) ط. باريس 1956 م.

10 البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر البلاذري) : - فتوح البلدان، ط. القاهرة 1959 م (تحقيق د.صلاح الدين المنجد).

11 الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي) : - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. القاهرة 1350هـ.

12 الدباغ (عبد الرحمن ومحمد بن عبد الله الأنصاري) : - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان - تـونس 1320هـ.

13 السلاوي (أحمد بن خالد الناصر السلاوي) : - الاستقصاء للأخبار دول المغرب الأقصى - الدار البيضـاء 1954م.

14 الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) : - تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) القاهرة 1969 م، 1971م - تاريخ الأمم والملوك - ط. القاهرة 1958 م ونشرة ذي غويه لندن 1882-1888 م.

15 عبيد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) نشر وتحقيق ليفي بروفنصال (صفيحة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد 1954 م.

16 القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي) : - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - مجموعة تراثنا.

17 الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي) : - كتاب الولاة وكتاب القضاء (تحقيق زفن كست) - بيروت، لبنان 1908 م.

18 المالكي (أبو عبد الله بن أبي عبد الله) : - رياض النفوس (تحقيق د. حسين مؤنس) القاهرة 1951 م.

19 الماوردي (أبو الحسن علي بن حبيب البصري) : - الأحكام السلطانية والولايات الدينية. القاهرة 1951 م.

20 المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) : - مروج الذهب. ط. القاهرة 1958 م. - التنبيه والإشراف - بيروت، لبنان 1965 م.

21 المقرزي (تقي الدين أحمد بن علي) : - المواعض والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ط. بولاق 1227 هـ.

22 النويري (شهاب الدين بن عبد الوهاب) : - نهاية الأرب في فنون الأدب - ط. دار الكتب المصرية - القاهرة.

23 الأصفهاني (حمزة) : - تاريخ بني ملوك الأرض و الأنبياء - ط. برلين 1340 هـ.

24 ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) : – مبهم البلدان ط. القاهرة 1323 هـ.

25 الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول. – تحقيق محمد بن أبي شنب - الجزائر1920 م.

المراجع

أ. العربيـــة:

أرشيبالد توماس :

01 القوة البحيرة التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط (ترجمة أحمد عيسى).

بسام العسلي :

02 عقبة بن نافع - ط. دار النفائس - بيروت - لبنان 1977 م.

03 فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين – دار الفكر – لبنان1977 م.

بلياييف ي.أ. :

04 العرب والإسلام والخلافة العربية (ترجمة د. أنيس فريحة). (الدار المتحدة للنشر - بيروت) لبنان 1972 م.

بيضون د. إبراهيم بيضون :

05 الدولة العربية في إسبانيا (ط. دار النهضة العربية بيروت) لبنان 1980.

06 تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول (ط. دار إقرأ بيروت 1985 م).

توماس أرلوند:

07 الدعوة إلى الإسلام (ترجمة د. حسن إبراهيم حسن) القاهرة1971 م.

تيودور نولد كه :

08 أمراء غسان (ترجمة د. قسطنطين زريق وبيندلي جوزي) لبنان 1933 م.

حسن أحمد محمود :

09 الإسلام والثقافة العربية في إفريقية – القاهرة 1963 م.

10 قيام دولة المرابطين ط. القاهرة 1957 م.

حسونة (محمد أحمد حسونة) :

11 أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية.

حسن مؤنس :

12 فتح العرب للمغرب – القاهرة 1947 م.

13 فجر الأندلس – القاهرة 1959 م.

خطاب (محمود شيت خطاب) :

14 قادة فتح المغرب – الجزء الأول (دار الفكر بيروت) لبنان1978 م.

درويش النخيلي :

15 السفن الإسلامية على حروف المعجم – القاهرة 1979 م.

فرعت فوزي عبد المطلب :

16 الخلافة والخوارج في المغرب العربي – القاهرة 1973 م.

الريس (ضياء الدين الريس) :

17 عبد الملك بن مروان والدولة الأموية – القاهرة 1969 م.

سانت موس :

18 ميلاد العصور الوسطى (مترجم)

سرور (محمد جمال الدين سرور) :

19 الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية (ط. دار الفكر العربي) القاهرة 1966 م.

20 تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق (ط. 3. دار الفكر العربي) القاهرة 1973 م.

سعاد ماهر :

21 البحرية في مصر الإسلامية – القاهرة.

سعد زغلول عبد الحميد :

22 الإسكندرية الإسلامية، مقال من كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور – الإسكندرية 1963 م.

شكري فيصل :

23 المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري – دار العلم للملايين.

شلبي (أحمد شلبي) :

24 التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج 4. القاهرة 1966 م.

الشامي صلاح الدين علي الشامي :

25 جغرافية الوطن العربي – الإسكندرية 1970 م.

صالح بن قربة :

26 حسان بن النعمان ودوره في نشر الإسلام في المغرب (الأصالة 64) 1978 م.

27 التنظيمات العسكرية في عهد الرسول (ص) (ط. المتحف المركزي للجيش) الجزائر 1985 م.

28 المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد. (ط المؤسسة الوطنية للكتاب) الجزائر 1986م.

طرخان إبراهيم :

29 المسلمون في أوربا في العصور الوسطى (سلسلة الألف كتاب) القاهرة 1966 م.

عبد الحميد العبادي :

30 المجمل في تاريخ الأندلس – القاهرة 1964 م.

عبد العزيز سالم ؛ وأحمد مختار العبادي :

31 تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس – ج 1 (ط. دار النهضة العربية – بيروت) لبنان 1969 م.

عبد العزيز سالم :

32 المغرب الكبير (العصر الإسلامي). القاهرة 1966 م.

عبد الفتاح محمد وهيبة :

33 جغرافية الوطن العربي (ط. كريدية إخوان بيروت) لبنان 1981 م.

العدوي إبراهيم إبراهيم العدوي :

34 موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي – القاهرة 1967 م.

35 الأمويين والبيزنطيون – القاهرة 1973 م.

36 الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط – القاهرة 1957 م.

37 قوات البحرية العربية في البحر الأبيض المتوسط – القاهرة 1963 م.

فتحي عثمان :

38 الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكار الحربي والاتصال الحضاري.

فهمي (علي محمود فهمي) :

39 التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط (ترجمة د. قاسم عبده قاسم) – لبنان1981 م.

العكاك عثمان :

40 مراكز الثقافة في المغرب (مطبوعات معهد الدراسات العليا). القاهرة 1958 م.

مريبعي السعيد :

41 التغيرات السكانية في الجزائر (ط. للمؤسسة الوطنية للكتاب). الجزائر 1984 م.

محمد محمد التهامي :

42 الأسطول الإسلامي (مجلة الدارة – العدد 2)، 1982 م.

محمد ياسين الحموي :

43 تاريخ الأسطول العربي.

النبراوي فتحية :

44 تاريخ النظم والحضارة الإسلامية. ط 2 – القاهرة 1981 م.

فرانز روزنتال :

45 علم التاريخ عند المسلمين (ترجمة صالح العلي) بيروت 1403 هـ.

هنري ماسيه:

46 الإسلام (ترجمة بهيج شعبان).

سعيد عبد الفتاح عاشور :

47 "الإسلام والتغريب" – مجلة عالم الفكر – المجلد 10، الكويت 1979 م. ص 169 وما بعدها.

هرنشو ج. :

48 علم التاريخ (ترجمة وتعليق عباري. ع) – دار الحداثة ط 1 – بيروت 1988 م.

عبد الله فيلال :

49 "مصادر الباحث في التاريخ القديم" – مجلة كلية الأداب – تطوان – عدد 9، 1999 م.

د. عبد العزيز بن ابراهيم العمري :

50 "كتب الفتوح مصادر للدراسات الحضارية" – مجلة التاريخ العربي عدد 14، سنة 2000 مـ ص 223-228.

ب. الأجنبية :

01. **Becker,** *Mahomet and Islem,* Ch. XII in Cambridge Médièval history, t.II (V.2 London, 1967).

02. **Bel (A),** *La religion Musulmane en Bérbérie.*

03. **Caudel,** *L'Afrique du Nord, les Bytantins et les Bérbéries avant les invasions Arabe,* Paris, 1900.

04. **Cheira (M.A.),** *La lutte entre Arabes et Bytantins,* Alexandrie, 1974.

05. **Diehl (C),** *L'Afrique Bytantins,* Paris, 1861.

06. **Dildebert, Isnard,** *Le maghreb,* Magellam, Paris, 1978.

07. **Fahmy (Aly Mohamed),** *Muslim sea, Power in the estern Mediterranean,* Cairo, 1966.

08. **Fournel (H),** *La Berbérie, Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes,* 1861.

09. **Gautier (F.E.),** *Le passé de l'Afrique du nord.*

10. **Marçais (G.),** *La berbérie Musulmane et l'Orient au moyen-âge,* Paris, 1946.

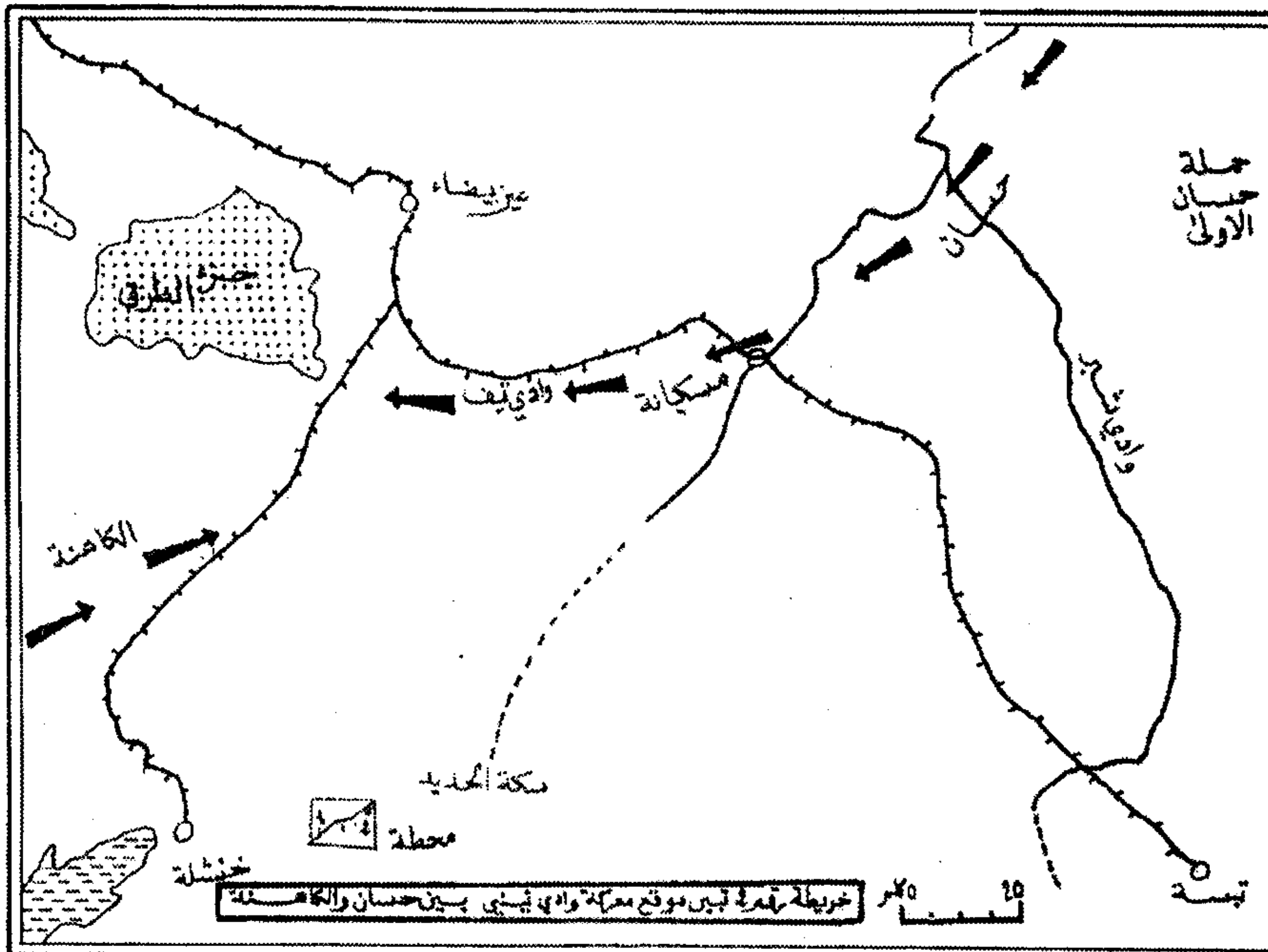
11. **Mercier (E),** *Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les tempt les plus reculés jusqu'à la conquête Française,* Constantine, 1888-1891.

12. **Pelleqrin,** *Histoire de la Tunisie.*

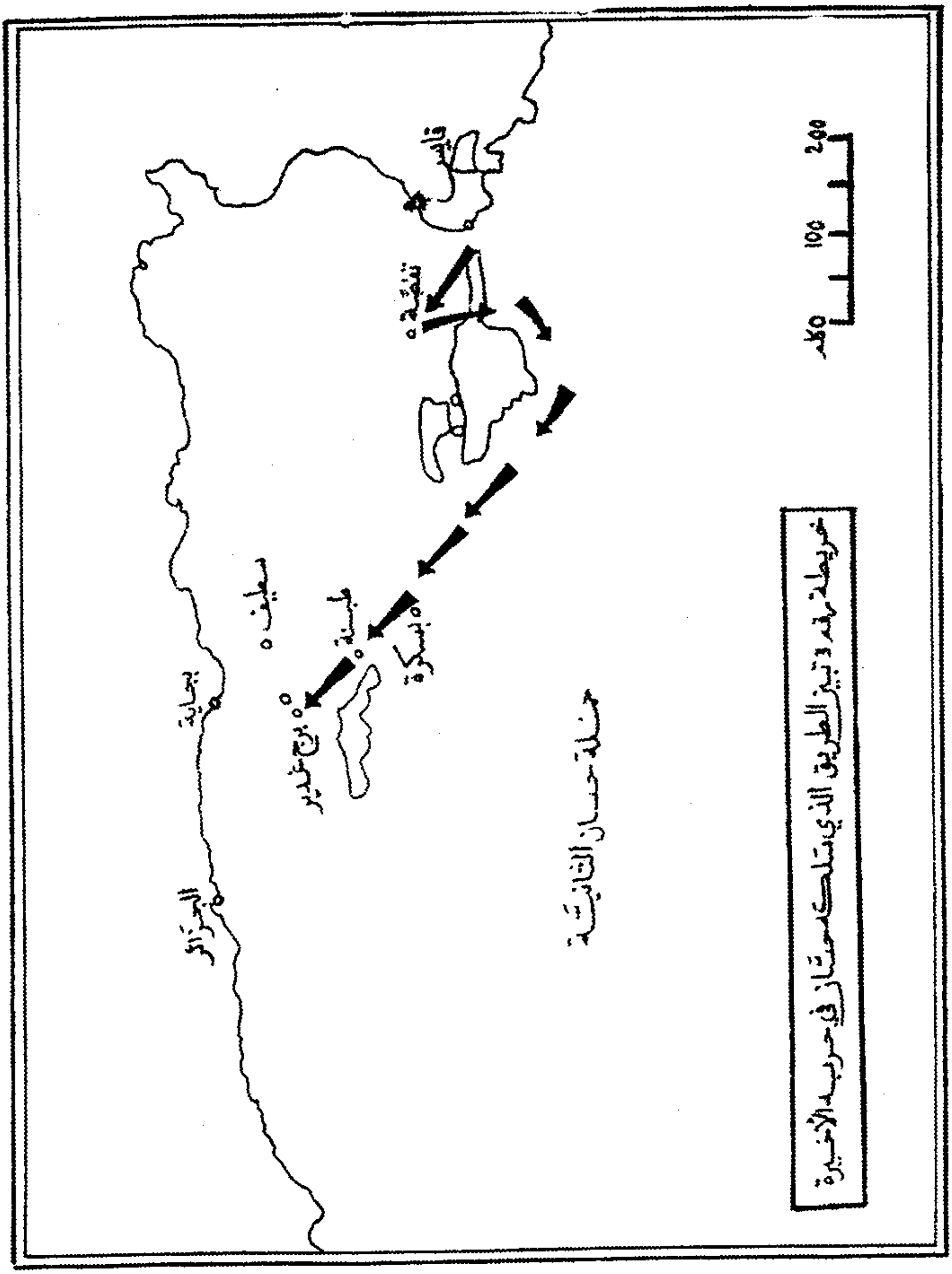
13. **Pellegrin,** *Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie.*

14. **Ostragorsky (G),** *Histoire de l'Etat Byzantin.*


البحر الأبيض المتوسط
بنزرت
بونة
جاية
قرطاجنة
تونس
الكف
الاربس
سبيبة
تبسة
القيروان
تهودة
باغاية
سيدي عقبة
توزر
نفطة
قابس
شط الجريد
الحمامات
حملة حسان الأولى.
حملة حسان الثانية.
الشطوط.
القيروان.
المدن.
المقياس



نقلاً عن «محمد الطالبي»



خريطة رقم 3 تبين الطريق الذي سلكه حسان في حربه الأخيرة

الفصل الرابع

دراسة نقدية لأهم المصادر المعتمدة في البحث

1. المصـــادر التاريخيـــة.
2. النـــوازل الفقهيـــة.
3. كتـــب الفهـــارس.
4. المصادر البلدانية والرحلات.
5. المصادر الأثـريـــة.

أ. الكتابات الأثرية.

ب. الوقفيـات.

أ.د. صالح بن قربة

دراسة نقدية لأهم المصادر المعتمدة في البحث

1. المصادر التاريخية:

المصادر التاريخية كثيرة لا تحصى، وهي متنوّعة لا يمكن حصر مادتها واعتمادها جميعا، لأن القيام بهذا العمل الجاد يستوجب دراسة مفصلة متخصصة، ليس هذا مجالها، ولذلك اقتصرنا على البعض منها، وخاصة المصادر التي توفرت على رصيد علمي ومعرفي له علاقة وطيدة بموضوع الدراسة، وهنا لابد من التذكير، بأن بعض المصادر، لا تهتم بتاريخ تلمسان، إلا من زاوية معينة علمية أو أدبية، فكتب التراجم مثلاً تهتم بالعلماء والفقهاء ورجال الدين من الأولياء ورجال السياسية إذا كانوا يهتمون بشؤون الدين. أما كتب الفهارس فتهتم بإظهار مكانتهم، من خلال سيرهم العلمية، يأتي في مقدمتها:

أ - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس[1] لعلي ابن أبي زرع الفاسي (741 هـ/1341 م)، وقد كتبه للسلطان المريني أبي سعيد عثمان (710-731 هـ/1310-1331 م). يتناول الكتاب تاريخ المغرب الأقصى منذ عهد الأدارسة إلى سنة 726 هـ/1326 م بيد أن مؤلفه أفرد حيزًا كبيرًا منه للحديث عن تاريخ مدينة فاس والدولة المرينية. ويشتمل الكتاب على معطيات مفيدة، حول اهتمام سلاطين بني مرين بالحياة الدينية والفكرية وتعظيم الأولياء والصلحاء والعلماء والشرفاء. وإقبالهم على تأسيس المنشآت الدينية والعلمية

والاجتماعية داخل المغرب الأقصى وخارجه وخدمة هذه المؤسسات بكل ما تحتاج إليه من أموال، حتى تستطيع القيام بالدور المنوط بها.

ولعل أهمية هذا الكتاب تكمن أساسًا فيما تضمّنه من معلومات وبيانات عن المدارس بفاس خلال عصر بني مرين لا سيما أثناء فترة حكم السلاطين يعقوب بن عبد الحق وأبي سعيد عثمان وأبي الحسن علي بن عثمان. وما يزيد في أهمية المعلومات التي سجلها ابن أبي زرع، معاصرته للدولة المرينية التي أرّخ لها، وعنه نقل كثير من المؤلفين من أمثال "الجزنائي" صاحب كتاب (زهرة الآس في بناء مدينة فاس) وابن القاضي صاحب كتاب "جذوة الاقتباس" والسلاوي مؤلف (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى).

ب - المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر مولانا أبي الحسن[2] لمحمد بن مرزوق لخطيب (ت 781 هـ/1389 م)، ألفه لإبراز مآثر ومناقب أعمال السلطان المريني أبي الحسن ومهما يكن من المعلومات التي تضمنها كتابه هذا، بخصوص نشأة المدارس ودورها التربوي والتعليمي في بلاد المغرب الإسلامي، فقد جاء كتابه مليئًا بالإطناب والمبالغات، والإطناب لإبراز مزايا السلطان المذكور.

فالكتاب يعد من أهمّ المصادر التي واكبت الدراسة، فقد تناول مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية في المغرب في العهد المريني، وأشاد بالمنشآت الدينية والعلمية والاجتماعية المشيّدة في تلك الفترة من مساجد وجوامع ومدارس وربط وزوايا، فقد خصص ابن مرزوق الباب التاسع والثلاثين من (مسنده) للكلام عن الربط التي أنشأها السلطان أبو الحسن على السواحل المغربية - الجزائرية أما عن الزوايا فقد أفرد لها الباب الواحد والأربعين من مسنده.

وقد تميّز كتاب (المسند الصحيح) عن غيره من المصادر التاريخية الأخرى، بأنه أتى على معظم المدارس المشيدة، سواء في المغرب الأقصى أو المغرب الأوسط مذكرًا بمصادر تمويلها من الأحباس المخصصة لها وما اشتملت عليه من

خزانات كتب وموظفين وغيرها. وتظهر أهمية (المسند الصحيح) في أن مؤلفه شارك بنفسه في صنع الأحداث التي رواها. فقد شغل منصب خطيب وكاتب ومستشار وسفير في بلاط الدولة المرينية[3].

وهكذا ورغم أهمية المعلومات التي ضمّنها ابن مرزوق كتابه المذكور فإنه يؤخذ عليه مبالغته وادعائه بأن تأسس المدارس لم يكن معروفًا في المغرّب قبل عهد بني مرين، وهو خلاف ما ذكره المؤرخون من أمثال ابن أبي زرع[4] وابن الخطيب[5] وعبد المالك[6] المراكشي وغيرهم، هذا إلى جانب إهماله ذكر منشآت أبي عنان الدينية والعلمية في المغربين الأقصى والأوسط.

جـ - بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد[7]. لأبي زكريا يحي ابن خلدون (ت 780هـ/ 1378 م). يعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة التي أرخت للدولة الزيّانية في عزّها ودبولها واضمحلالها،ويبدو أن صاحبه قد كتبه للسلطان أبي حمو موسى الثاني تزلّفا وتقرّبًا،لعله يحظى بالمكانة والجاه لدى السلطان، حوالي عامي (774-775 هـ).

ومهما يكن من شيء، فالكتاب يؤرخ للدولة الزيّانية في فترة زمنية عرفت فيها مظاهر الازدهار والتقدم والنكسات، فقد تناول الحياة الفكرية والعلمية والسياسية والاجتماعية والعمرانية، (أغادير - تاجرارت - مداخل المدينة وأسوارها).

وتزداد أهمية الكتاب كذلك فيما تضمنه من إشارة إلى الحياة الفكرية من خلال أسماء العلماء والأولياء والصلحاء الذين ساهموا في دفع النهضة قدمًا إلى الأمام، وفضلاً عن ذلك لم يفت يحي بن خلدون ذكر المؤسسات العلمية والدينية التي تنافس السلاطين على تأسيسها.ولكن يؤخذ عليه إهماله المعتمد لمنجزات سلاطين بني مرين في تلسمان، باستثناء إشارته إلى المنصورة التي تعد أول بناء مريني بالمغرب الأوسط.

وأخيرًا يمكن القول أن أهمية كتاب (بغية الروّاد) تكمن في كون صاحبه معاصرًا للدولة وشغل منصب كاتب للسلطان وشارك في صنع الأحداث التي كان يرويها.

د - مقدمة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، تأليف عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 808 هـ /1406 م) يهمنا الجزء الأول المعروف بمقدمة ابن خلدون[8]. وقد حققه ونشره د. علي عبد الواحد وافي في أربعة أجزاء، لاسيما الجزآن الثاني والثالث اللذين اشتملا على فلسفة التاريخ والعمران والصراع بين البداوة والحضارة، وخصوصًا الفصول التي عقدها للحديث عن النظم والتربية والتعليم والصنائع وغيرها مما عرض له في هذا المجال. وتكمن أهمية الجزء الثالث من المقدمة فيما تضمّنه من آراء وأفكار حول مناهج التعليم ببلاد المغرب، والمؤسسات الدينية والعلمية، وخاصة أسماء العلماء وطرق التدريس، وقد أفادنا بأسماء العلماء الذين تعاطوا التدريس بمدارس تلمسان وتونس وفاس وغيرها. ولم يفت ابن خلدون تحليل قضايا التعليم الأخرى وخاصة الفصول التي تناول فيها أصناف العلوم النقلية والعقلية السائدة في عصره. أي عصر بني زيّان وبني مرين ومن عاصرهما من دول المغرب الإسلامي والأندلس.

وقد انتقد ابن خلدون بعض الطرق المتبعة في تحصيل العلم كالاعتماد على الحفظ وإهمال المناظرة والمناقشة مشيرًا إلى مدة التكوين بالمدارس ومهما يكن من شيء، فالذي لا جدال فيه، أن مقدمة ابن خلدون يمكن تصنيفها ضمن الكتب التربوية، التي أودع فيها صاحبها أفكاره وآراءه في التعليم، وتكمن أهميتها في كون ابن خلدون عايش عصر المدارس في فترتين متميزتين، فترة عصر السلاطين الكبار من أمثال أبي الحسن وأبي عنان وأبي حمو موسى الزيّاني.

وفترة الدسائس والانقلابات السياسية في البلاط المريني وفي هذه الفترة الأخيرة تدهورت الأحوال السياسية والاقتصادية والفكرية في مغرب المرينيين.

هـ - نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيّان، المعروف "بتاريخ بني زيّان ملوك تلمسان"[9] لصاحبه محمد بن عبد الله التنسي، وقد كتبه خصيصًا للسلطان الزيّاني محمد المتوكل على الله اعترافًا بفضله عليه.

والكتاب أصلاً يؤرخ صاحبه فيه لتاريخ بني زيّان منذ ظهور دولتهم حتى عهد السلطان محمد المتوكل (866-873 هـ/1461-1468 م)، من النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية مع الإشادة بمؤسساتهم الدينية والمدنية، وقد أشار إلى أسماء المشاهير من العلماء الذين عاصروا النهضة العلمية.

و - البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان[10]. لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن مريم التلمساني (ت).

تظهر أهمية الكتاب فيما اشتمل عليه من تراجم للأولياء والعلماء بمدينة تلمسان، وقد ترجم لكثير من العلماء والفقهاء وما خلفوه من آثار فكرية، وعلمية، وقد تخلل حديثه عن أجيال العلماء ذكر أسماء بعض المؤسسات الدينية والعلمية مشيرًا خاصة إلى أوقات التدريس وأسماء المواد التي كانت تدرس بها.

وقد زوّدنا بمعلومات دقيقة عن أسلوب بعض العلماء في التدريس والعطل المدرسية.

ز - نيل الابتهاج بتطريز الديباج[11]، لأحمد بابا التنبكتي السوداني (ت 1063 هـ) ألفه بمراكش سنة 1005 هـ/1596 م لما كان منفيًا هناك.

وصاحب الكتاب غنيّ عن التعريف، فقد تلقى دراسته في مدينة تمبوكتو، مسقط رأسه، على كبار علمائها. ونفي إلى مراكش عقب فتح السودان من طرف أحمد المنصور السعدي، وقد اشتغل فترة وجوده بمراكش بالتدريس بجامع الشرفاء، حيث كان يعقد مجالس في الفقه المالكي، ومن أشهر طلبته أحمد بن القاضي صاحب "جذوة الاقتباس"[12].

ويكتسي الكتاب أهمية خاصة في التأريخ لرجالات العلم والأولياء والمتصوفة، وقد اعتمد صاحبه في جمع مادته على مصادر معاصرة للدولة المرينية والزيّانية والوطاسية مثل فهرس ابن غازي وفهرسي المنجور وعبد الواحد السجلماسي[13].

زوّدنا المؤلف بمعلومات ومعطيات في غاية الأهمية عن الحياة الفكرية، حيث

أمدنا بتراجم لأكثر من ثمانمائة شخصية علمية وأدبية، ظهرت في فترات مختلفة، لعل أهمّها جميعًا علماء المذهب المالكي، ومن بينهم شيوخ وعلماء تعاطوا التدريس والتعليم بجوامع ومدارس فاس وتلمسان، وخصوصًا موقف الفقهاء من فكرة تأسيس المدارس المرينية[14]، هذا بالإضافة إلى طرق التدريس والمواد المدرسة، والمجالس والمناظرات مع الاهتمام بذكر مؤلفات هؤلاء العلماء والإشادة بعلمهم ومواقفهم من السلطة الحاكمة.

والكتاب باختصار شديد، موسوعة تضم تراجم العلماء والكتاب والصلحاء والأولياء. وأعمالهم وآثارهم الفكرية، فهذه الموسوعة لا يستغنى عنها الدارس والباحث والمؤرخ لأهميتها في تاريخ مسيرة الحياة الفكرية والعلمية ببلاد المغرب الإسلامي.

حـ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب[15]، لأحمد بن محمد المقري التلمساني[16] (ت 1041 هـ/1631 م)، وتكشف لنا مقدمة كتاب "النفخ" أنه موسوعة أدبية وتاريخية، أرّخ فيها لبلاد الأندلس وحضارتها في مختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية من الفتح الإسلامي حتى السقوط. وقد صرح المقري عن جمعه بين الأدب والتاريخ فقال في مقدمته : "وأوردت فيه من نظم وإنشاء ما يكتفي المقتصر عليه إن شاء، ومن أخبار ملوك ورؤساء وطبقات من أحسن أو أساء ما فيه اعتبار للمتأمل واذّكار للراحل المتحمّل، وزينة للذاكر المتجمّل"[17].

وقد أضافت هذه الموسوعة للدراسة معلومات ثمينة حول "صناعة التعليم في المغرب الإسلامي، ومقارنتها بنظيرتها في المشرق الإسلامي، وعلاوة عن ذلك، فقد وصف بعض المنشآت الدينية والعلمية بأهم حواضر المغرب"[18]، مثل تلمسان وفاس وسبتة ومراكش، ولم ينس ذكر أسماء الفقهاء والعلماء والأدباء الذين درسوا بها. وعقدوا مجالس العلم وما دار بها من مناظرات ومناقشات وجدل.

الجديد في كتاب (نفح الطيب) تفرّد صاحبه بذكر تفاصيل هامة حول تدخل سلاطين بني مرين في المنظومة التعليمية بالمدارس، وتوجيهها التوجيه المناسب الذي يتماشى وتوجهاتهم السياسية، من اختيار لأساتذة أكفاء واختبارهم من حين لآخر، بالإضافة إلى مراقبة طرق التدريس وتحديد المواد المدروسة بهذه المؤسسات.

وهذا يعني أن التعليم أصبح تعليمًا رسميًا يخضع لإشراف الدولة ومراقبتها، ونعتقد أن هذه السّياسة التعليمية نفسها كانت مطبقة بمدارس تلمسان، حيث خضعت هي الأخرى في إدارتها ونظام التدريس بها للدولة، وقد مرّ بنا، كيف كان سلاطين بني زيّان يتدخلون في تعيين الأساتذة والعلماء لتعليم طلبة العلم.

وينسب للمقري كتاب آخر هو :

ط - أزهار الرياض في أخبار عيّاض[19]، لنفس المؤلف السابق (المقري) وهو من كتب التراجم ألفه صاحبه بمدينة فاس بين عامي (1013 و1027 هـ) (1605-1612)، التي اتخذها مقرًا له،بعد أن غادر تلمسان لأسباب سياسية، ويبدو أن سبب تأليفه لهذا الكتاب رغبة أهل تلمسان في التعريف بالقاضي عيّاض المشهور. ويتضمن تراجم كثيرة لرجال الفكر بالمغرب والأندلس، في العصر المريني – الزيّاني وما تلاهما من عصور.

2. النوازل الفقهيـة :

تشكل (النوازل الفقهية)، مادة مصدرية هامة للمؤرخ والباحث فقد اهتم الفقهاء بالفتاوي لحل المشاكل التي قد تعرقل حسن التصرّف في توزيع مداخيل الأوقاف. وعلى الرّغم من إرتباط هذه الوثائق بالكثير من النواحي الاجتماعية والفكرية والاقتصادية فإنّها لم تحظ بدراسة شاملة من قبل الباحثين والمؤرخين المهتمين بقضايا التاريخ الإسلامي عامة، وتاريخ الغرب الإسلامي على الخصوص.

وقد اعتمدنا على أهم النصوص المعروفة لفتاوي الغرب الإسلامي مثل المعيار،للونشريسي و "مسائل الأحكام" للبرزلي و "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للمغيلي.

ويعتبر كتاب (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب)[20] لأبي العباس أحمد الونشريسي (ت 914 هـ/1508 م)[21].

من أهم كتب النوازل الفقهية ومجاميع الفتاوي، فقد خصص المؤلف الجزء السابع لفتاوي الأحباس،حيث تناول مسألة التعليم ومؤسساته. وقد أمدنا بمعلومات قيمة حول الحلق الدراسية بالجوامع والمدارس، وموقف الفقهاء من المشروع المدرسي، وشروط التحاق الطلبة بالمدارس، وأوقات التدريس وشروط سكنى المدارس. وحكم الأجرة على التعليم، والعطل المدرسية وعلاقة العلماء برجال السياسة وغيرها من الموضوعات ذات الصّلة المباشرة بالتعليم. وتتجلّى أهمية (المعيار) كمصدر أساسي لهذه الدراسة كون صاحبه عاصر الدولتين الزيّانية والمرينية، ومارس التدريس بمدارس فاس.

ومن كتب النوازل أيضا، نذكر مخطوط (جامع مسائل الأحكام) لأبي القاسم أحمد البرزلي (ت 842 هـ/1438 م)[22]، الذي عالج مؤلفه الكثير من المسائل والقضايا الفكرية والاجتماعية والدينية وغيرها.

ويعتبر كتابا (المعيار) و (مسائل الأحكام) مصدرين هامين للباحث في مجال الفتاوي بكل الغرب الإسلامي.

وتتجلّى أهمية هذين المصدرين في كونهما يؤلفان موسوعتين أساسيتين للفقه المالكي وفتاوي المالكية بالمنطقة.

فقد زودانا بأجيال من الفقهاء على مدى سبعة قرون ونيف، وعلى عدد من المراكز الفقهية المغربية المعروفة آنذاك أمثال القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وفاس، وقرطبة وغرناطة[23] (بالأندلس).

وتزداد أهميتهما فيما وفراه للمؤرخين والباحثين من رصيد هام من المعلومات في هذا الحقل في الدراسات المجتمعية، والتي من شأنها أن تفتح آفاقًا جديدة للبحث، وسيسمح بالتالي من تجاوز مواضيع التاريخ الحدثي الذي توفره المؤلفات الإخبارية والاهتمام بأحوال المجتمع بمختلف تشكيلاته وطبقاته. وهذا يعني عمليا التركيز على الإنسان، بدل تتبع منطق الأسطغرافيا التقليدية، الذي يجعل من تسلسل الدول وتعاقب الحكام محورًا للتاريخ[24].

ويمثل مخطوط (الدرر الكامنة في نوازل مازونة)[25] لأبي أحمد بن يحي المغيلي، أهمية خاصة في تاريخ المغرب الأوسط. غير أن عنوانه غير دقيق، لأن نوازل المغيلي تتصل اتصالاً مباشرًا بقضايا ومسائل المغرب الأوسط، أجاب عنها فقهاء من تلمسان وبجاية وتونس وفاس ومليانة. وتكمن أهمية (نوازل مازونة) في القضايا التي تثيرها والتي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن، والنصف الأول من القرن التاسع الهجري.

ولا شك أن (نوازل مازونة) تعكس بشكل دقيق أوضاع المغرب الأوسط زمن ضعف سلطة الدولة الزيّانية وعجزها عن توفير الأمن والاستقرار للبلاد بسبب تأثير أشياخ القبائل والمتصوفة على البوادي وتأليبها ضد المخزن العيد الوادي.

وقد تناول هذا المصدر الهام، الكثير من المسائل ذات العلاقة المباشرة بالتعليم وأوضاع الأساتذة والمدرسين والطلبة. ومسألة الإنفاق على هذه المؤسسات من الأحباس التي تعرضت هي الأخرى إلى النهب والسرقة وقد أثرت تأثيرًا واضحًا على الحركة العلمية.

وهناك مجاميع أصغر بالمقارنة مع "المعيار" و "وجامع مسائل الأحكام" ، لكن أهميتهما لا تقل مع ذلك. بل هي تمثل زمن جمعها حصيلة ما هو معروف من فتاوي الغرب الإسلامي في وقت محدّد.

وتكمن أهمية هذه النوازل بالإضافة إلى تنوّع قضاياها، فيما توفره للباحث من التعرّف على مصدر النازلة، وأسماء بعض الملوك والأمراء وعامة الناس الذين

استفتوه في مسألة ما، وعلى أسماء القضاة الذين استشاروه بشأن قضايا كانت معروضة عليهم، وعلى الأماكن التي صدرت منها النوازل[26].

وهكذا تفيد النوازل الفقهية في التعرّف على أحوال المجتمع بالمغرب الأوسط، نظرًا لما توفره من أسئلة تتعلق بتفاعل مكوناته ونشاطه، هذا بالإضافة إلى قضايا تتصل بالحياة الدينية والروحية والعلمية للمجتمع.

3. كتب الفهارس :

يمثل هذا النوع من التآليف مصدرًا هامًا في موضوع التعليم نظرًا لما تشتمل عليه (الفهارس) من معلومات ثمينة حول الحياة الفكرية في المغرب الإسلامي، وما توفره من تراجم بعض الأساتذة المدرسين بالجوامع والمدارس، والمواد التي كانوا يدرسونها، فهي إذن تشكل رصيدًا آخر لا يقل أهمية عن كتب النوازل نفسها.

ومن أهم الفهارس المعتمدة في الدراسة نذكر منها : فهرسة ابن غازي و "فهرست المنجور"، لأحمد بن علي بن عبد الله المنجور)[27] (ت 995 هـ/1557 م)، و "فهرسة السراج "لمحمد بن أبي القاسم الحميدي المعروف بالسراج[28].

أما (فهرسة ابن غازي) فقد حققت ونشرت (تح محمد الزاهي) بالدار البيضاء عام1979 م، وقد وردت فيها إشارات كثيرة إلى أسماء المدرسين والمواد المدرسة بجوامع ومدارس المغرب الأقصى.

4. المصادر البلدانية والرحلات :

يمثل هذا النوع من المؤلفات رصيدًا غنيًا بالمعلومات التاريخية والأوصاف الدقيقة المتناثرة في كتب الجغرافيا والرحلات، حيث قام أصحابها بوصف المراكز العلمية والمؤسسات الدينية والعلمية والاجتماعية والسياسية وغيرها، والتعريف بالشخصيات الفكرية، وأفكارها، ودورها في الحياة عامة، هذا إلى جانب تطرقهم

إلى موضوع التعليم والمناهج الدراسية والطرق المتبعة في التدريس في المساجد والجوامع والمدارس والكتاتيب.

ومن أشهر كتب الرحلات نذكر، رحلة ابن الحاج النميري ورحلة العبدري، نفاضة الجراب لابن الخطيب ورحلة ابن بطوطة، وفي ميدان الجغرافيا يُطالعنا كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان.

أ - أما فيما يتعلق "برحلة العبدري"[29] المسمّاة الرحلة المغربية، الذي عاش في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، فقد قام برحلته إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وصف خلالها الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالمناطق التي مر بها في المغرب والمشرق.

وقد تضمن وصفه هذا معلومات مفيدة حول ركود الحركة الفكرية بالمغرب عقب سقوط الموحدين، وكيف استعادت نشاطها وانتعاشها مع المرينيين على عهد يعقوب ابن عبد الحق المريني الذي دشّن المشروع المدرسي في المغرب، والحفصيون بإفريقية[30].

ب - رحلة ابن بطوطة المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[31]، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطوطة، كان على قيد الحياة سنة 770 هـ/1369 م قام برحلة طويلة استمرت حوالي خمس وعشرين سنة (من 725 إلى 750 هـ/1325-1350 م) زار خلالها معظم بلدان العالم الإسلامي، وأعطانا وصفا للحياة الفكرية والاقتصادية فيها. ولكن يهمنا منها خاصة بلاد المغرب على عهد المرينيين، رغم أن رحلة ابن بطوطة، وصفًا للبلدان والأقاليم التي زارها شرقًا وغربًا، إلاّ أن صاحبها كان حريصًا كل الحرص على تدوين كل ما له علاقة بالحياة الفكرية والعلمية التي شهدتها تلك البلدان.

أما بالنسبة لموضوع التعليم في بلاد المغرب، فقد زوّدنا بأخبار ومعلومات عن المدارس المرينية خصوصًا، مدرسة أبي الحسن المريني بمراكش، ومدرسة أبي

عنان بفاس (المتوكلية)، وقد شمل وصفه كذلك المجالس العلمية التي كان يترأسها سلاطين بني مرين وغيرهما من المواضيع الأخرى ذات الصلة المباشرة بالعملية التعليمية ليس في المغرب، فحسب، بل أشار أيضا إلى وضعية التعليم ومؤسساته في المشرق الإسلامي، أثناء القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وخصوصًا الأساليب والطرق التربوية التي كانت متبعة في التعليم بالجوامع، ومن الأمثلة على ذلك وصفه الدقيق لأسلوب التعليم بالجامع الأموي بدمشق حيث كان التعليم فيه يتم على هيئة حلقات وفي هذا الصدد يقول ابن بطوطة[32] : "ولهذا المسجد، حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحًا ومساً، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرؤهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى، وإنما يقرأون تلقينا.

ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لأن معلم لا يعلم غيره."...

وإذا كن وصف ابن بطوطة هذا تصوير صادق للتعليم بالمساجد والجوامع في المشرق الإسلامي، فلا شك أن نفس المظاهر والأساليب التربوية كانت متبعة في مساجد وجوامع المغرب الإسلامي، سواء كان ذلك في مدن المغرب الأقصى أم في مدن المغرب الأوسط في هذه الفترة التي نحن بصدد دراستها.

فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب[33]، لأبي الحاج النميري، الذي كان على قيد الحياة سنة 768 هـ/1367 م.

جـ - وكتاب ابن الحاج هذا قد خصصه لوصف رحلة السلطان المريني أبي عنان فارس إلى تونس، برسم إعادة توحيد بلاد المغرب الإسلامي تحت راية واحدة، اقتداء بوالده أبي الحسن على بن عثمان.

احتوت الرحلة، معلومات في غاية الأهمية عن مظاهر حضارة بني مرين، السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية، تخللها وصفًا رائعًا للمدارس والزوايا، التي شيدها أبو عنان، وبشكل أخص الزاوية المتوكلية.

د - أنس الفقير وعز الحقير[34] :

لأبي العباس أحمد بن على الخطيب القسنطيني الشهير بابن قنفد (ت 776/ 809 هـ) (1359-1375 م). قام ابن قند برحلة طويلة زار خلالها المدن المغربية وأريافها بين عامي (760 هـ/1375 م). وعلى الرغم من أن صاحب الرحلة جعل موضوعه الأساسي، ذكر مناقب الولي الصالح أبي مدين شعيب دفين تلمسان (ت 594 هـ/1198 م)، إلاّ أنه أفادنا في نواحي كثيرة، كإشارته إلى الحياة الفكرية في المغرب الأوسط، فذكر رجالات الفكر على عهدي أبي الحسن،وأبي عنان، ومن بينهم شيوخ وأساتذة المدارس والجوامع والزوايا والكتاتيب. ومهما يكن من حجم المعلومات التي ضمنها كتابه المذكور، فهي مفيدة جدًا للباحث في هذا الحقل الحساس من تراثنا الفكري والعلمي.

هـ - كتاب وصف إفريقيا[35] :

يعتبر كتاب (وصف إفريقيا) للحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت 960 هـ/1553 م)، من أهم كتب الجغرافيا، التي وفرت لنا معلومات قيمة عن الحياة الفكرية في بلاد المغرب خلال حكم بن مرين وبني زيّان، وتزداد أهمية هذا المصدر كون صاحبه عاصر بعض الأحداث، قبل وقوعه في الأسر، وقد زار عدة مدن مغربية، والتقى برجال الفكر.

أما بالنسبة لموضوعنا، فقد زوّدنا بوصف دقيق وشامل للمساجد والجوامع والكتاتيب والمدارس وغيرها من المؤسسات الاجتماعية والصحية في كامل المدن المغربية، وفضلاً عن ذلك، زوّدنا بمعلومات هامة عن مؤسسة الأوقاف وسبل صرف الأموال، مثل مرتبات الأساتذة وجرايات الطلبة، وخاصة طرق التدريس

والمواد الدراسية، وشروط التحاق الطلبة بالمدارس الجامعة، ومدة الإقامة بها، والعطل وغيرها من المعلومات التي يحتاج إليها الدارس والباحث في التاريخ الاجتماعي والثقافي في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مسيرة المغرب الإسلامي.

ويمتاز كتاب وصف (إفريقيا) عن غيره من كتب الجغرافيا، بما احتواها من معلومات قيمة عن وضعية التعليم في المدارس الجامعة، أثناء العهد المريني - الزّياني، والوضعية المتردية التي آلت إليها في العهد الوطاسي، من جراء اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في النصف الأول من القرن العاشر للهجرة[36]، السادس عشر للميلاد.

ومن المؤلفات الأخرى، التي لها علاقة بالموضوع نذكر على سبيل المثال كتاب "المدخل"[37] لابن الحاج أبي عبد الله محمد العبدري الفاسي، (ت 737 هـ/1337 م)، وتبدو أهمية هذا الكتاب أن صاحبه عاصر السلطانين المرينين أبي سعيد عثمان وأبي الحسن علي، اللذين يمثلان عصر انتشار المدارس الجامعة في المغرب، ولعل أهم ما احتواه (المدخل) إشارة صاحبه إلى آداب المتعلم والمعلم وفضل العلم، وبعض التقاليد المدرسية، مثل الاحتفالات الدينية ولباس العلماء وغيرهم، ويمكن تصنيف هذا النوع من الكتب ضمن كتب البدع، كما يوضح عنوان الكتاب، فقد سمّاه صاحبه " المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها."

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، هناك صنف آخر من الكتب المتخصصة في موضوع التعليم[38]، يحث أصحابها المتعلمين على طلب العلم، والعلاقة بين المعلمين وطلاب العلم، وغيرها من قضايا التعليم الأخرى مثل المناهج الدراسية، وطرق التدريس، والأجرة على التعليم. ومن بين هذه التصانيف الهامة في مجال التعليم، الرسائل، وفي هذا الإطار اعتمدنا على " الرسالة المجازة في معرفة الإجازة" ، لابن ميمون الغماري (ت 917 هـ/1512 م)[39].

ورغم أن صاحب الرسالة كتبها أصلاً بالمغرب الأقصى، إلا أن ما تضمنته من أمور تخص التعليم بشكل عام ك (شروط التحاق طلاب العلم بالمدارس الجامعة، وظروف عيشهم داخلها، وعلاقتهم بشيوخهم والمواد المدرسة، وأساليب تدريسها، وثقافة علماء فاس ومقارنتهم بما يعاصرهم من علماء الأقطار الإسلامية)، فمثل هذه الأمور كانت معروفة في مدارس المغرب الأوسط، لتشابه المنظومة التربوية في أقطار المغرب الإسلامي.

ومن كتب علماء تلمسان نذكر كتاب " الاختصار والبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان " لأبي العباس محمد بن أبي جمعة المغراوي (ت 917 هـ/1512 م)[40] تناول صاحبه قضايا التعليم في الكتاتيب – والطريقة البيداغوجية.التي كانت متبعة في هذا الصنف من التعليم، ببلاد المغرب الأوسط، وعلى الرغم من أن الكتاب يهم المرحلة الابتدائية، إلا أن ما تضنه من آراء ونظريات تنفع في تتبع أساليب التعليم والتّعلّم في هذه الفترة.

كما أن الأطر العلمية من أساتذة وعلماء ومدرسين كانت متبادلة بين المؤسسات التعليمية والدينية، وأن ظاهرة تنقل العلماء بين الحواضر المغربية للمشاركة في المجالس العلمية والمناظرات أكدتها كتب التاريخ والرحلات.

وفضلا عن هذا الركام الهائل من المصادر، استفدنا من بعض الدراسات والأبحاث الحديثة، مثل (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) للحجوي المنشور بالمدينة المنورة سنة1977 م.

و "ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين (للأستاذ محمد المنوني – منشورات كلية الآداب – الرباط 1979 م). كما استفدنا كذلك من أطروحة الأستاذ لمليح السعيد بعنوان "المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب" كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس 1988-1989 م و "أبو حمو موسى الزيّاني، حياته وآثاره" للأستاذ عبد الحميد حاجيات نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1974 م.

علاوة على كتاب (النوازل الفقهية والمجتمع - أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ) للأستاذ محمد فتحه، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 1999 م.

5. المصادر الأثرية :

لم نكتف في نقد وتحليل المصادر التاريخية والبلدانية (كتب الجغرافيا والرحلات) والنوازلية، التي شكّلت المادة العلمية والإخبارية لموضوع المؤسسات الدينية والعلمية ودورها التربوي والعلمي بالمغرب الأوسط على عهد الزيريين، فحسب، بل تجاوزناها إلى استغلال المصادر المادية المتمثلة فيما تقي من مخلفات وآثار المدارس والجوامع لأنها تعكس المستوى الذي بلغته الحضارة الإسلامية الزيّانية عمرانيًا وفنيًا وثقافيًا، خصوصا وأن بعض هذه المنشآت ما تزال قائمة، تحتفظ بكتابات أثرية منقوشة تؤرخ لها. ولوحات وقفية (وثائق التحبيس) لا يمكن الاستغناء عنها في موضوع حضاري مثل موضوع المدارس، وفي هذا الشأن قمنا بزيارات ميدانية للوقوف على هذه المعالم الأثرية عدة مرات ولكن في نفس الوقت نتأسف كثيرًا على ضياع معظم هذه المعالم وأن ما تبقى منها أصبح عرضة للإهمال، إما تهاونًا من المصالح الوصية أو من عدم إدراك قيمتها الحضارية، كشواهد مادية على إسهامات المغرب الأوسط في الحضارة الإسلامية.

أ - الكتابات الأثرية :

تعد الكتابات الأثرية بشقيها الكبيرين، التذكاري والشاهدي، من أهم المصادر بالنسبة للمشتغلين بدراسة التاريخ والآثار والاجتماع والاقتصاد والثقافة، ومن مميزاتها أنها تنقش على المباني بمختلف أشكالها ووظائفها، كما تتصدر التحف الفنية المتنوعة معدنية كانت أو زجاجية وخزفية ورخامية وحتى على الأحجار والمخطوطات وغيرها[41].

فالكتابة الأثرية بما تحتويه من أسماء وألقاب ووظائف وصيغ وشارات وتواريخ يصعب الطعن فيها بسهولة، فهي تفيد في دراسة المجتمع من جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والفكرية وتصحح ما أهمله المؤرخون سهوًا أو عمدًا. وتزداد أهمية الكتابة كمصدر مادي معاصر في الدور التسجيلي الهام للأعمال الأثرية والتاريخية، فقد تتضمن العبارات المكتوبة على الآثار أو المنفذة بطرق شتى على المباني والتحف، اسم الصانع، ومكان الصناعة وتاريخها، واسم من عملت له، (التحفه – المنشأة إلخ...) وألقابه ووظائفه، وبعض الأدعية والأوامر الإدارية، والألفاظ اللغوية والمصطلحات وغيرها من الأمور التي قد لا نجد لها مثيلاً في المصادر التاريخية والأدبية، خصوصا وأن هذه الأخيرة كثيرًا ما تتعرض نصوصها للإضافة والحذف والتزوير. وفي هذا الصدد اعتمدنا على بعض النقوش التأسيسية في دراسة مسألة تأريخ المؤسسات والغرض من إنشائها والوظيفة المنوطة بها، إلاّ أننا نسجل هنا ضياع هياكل ومخططات هذه المؤسسات، الأمر الذي صعّب علينا عملية المتابعة الميدانية، وعقّد طريقة البحث فيما يتصل بحجمها ومعدل قدرة استيعابها لعدد الطلبة، هذا إلى جانب صعوبة تحديد أسماء الأساتذة الذين درسوا بها ونسبة عددهم وتخصصاتهم.

ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى مضمون الكتابات الأثرية نفسها.

ب - الوقفيات (وثائق التحبيس) :

تعتبر الكتابات الوقفية[42]، من المصادر الأثرية الأصلية ذات القيمة العلمية الهامة، والتي لم تحظ بدراسة كافية من قبل الباحثين والمؤرخين والأثريين وغيرهم ممن يشتغلون بالعلوم الإنسانية، على الرغم من أهميتها التاريخية، وارتباطها بالكثير من الجوانب الدينية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، ولحسن الحظ، فإن قسمًا معتبرًا من هذه الوفقيات، سواء أكانت وقفيات منقوشة على رخامات بعض المساجد والمدارس والزوايا والأضرحة، أو وثائق تحبيس

مخطوطة[43]، ما تزال محتفظة بشكلها ومحتواها، كما هو الحال بالنسبة للخزائن الكثيرة المنتشرة في صحراء الجزائر، حيث توجد فوق رفوفها نفائس المخطوطات عن الوقف وأهميته.

إن مفهوم الوقف اصطلاحا، هو ما عرّفه الإمام (ابن عرفة الفقيه التونسي المالكي المتوفى 803 هـ) بقوله : هو "إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، لا زما بقاؤه في ملك معطيّه، ولو تقديرًا".

وتتضمن الكتابات الوقفية عادة عقد التحبيس والذي بموجبه، يقوم المحبس بوضع مجموعة من الأملاك والعقارات حبسا، لفائدة مؤسسة من المؤسسات داخل المجتمع، كالمؤسسات الدينية والعلمية والاستشفائية والخيرية أو المنشآت الاجتماعية، وهكذا ظهر نظام (وثائق التحبيس) وهو عبارة عن سجلات رسمية تدوّن فيها ممتلكات الأوقاف لحل المشاكل التي قد تعيق حسن التصرف في توزيع مداخيل الأوقاف[44].

وتكمن أهمية الكتابات الوقفية في معرفة تشريفات وألقاب الحكام، وطوبونيميا المدينة بالإضافة للمرافق والمعالم التي تشتمل عليها المدينة، من دروب وأحياء وحومات وتسليط الضوء على الجانب العمراني للمدينة والقرى والمداشر المجاورة لها، فضلا عن أسماء العملات المتداولة، تتضمن الكتابات الوقفية على مجموعة من الصيغ المتنوعة، مثل البسملة والتصلية والحمدلة والحوقلة ثم التذكير بالمقصد المتوخي من تأسيس المعملة (التقرّب من الله عز وجل، وذكر اسم المحبس مع ألقابه الرسمية والفخرية، متبوعة بذكر أسماء آبائه وأجداده مع ألقابهم.

وهكذا تبدو الوقفية غنية بالمعلومات والبيانات الدقيقة التي يحتاج إليها الباحث في كتابة التاريخ، وفضلاً عما سبق ذكره تتضمن الوقفية لائحة الأملاك المحبسة على البناية لضمان سيرها الحسن وأداء وظيفتها واصلاحها في حالة تخريبها أو

تلاشيها، وهي تتألف غالبا من دكاكين وأرحية وأفران وحمامات ومساكن وأطرزة وفنادق.

وتزداد أهميتها فيما تشتمل عليه من أسماء الموظفين المشرفين على إدارتها (ناظر - خطيب - إمام - مؤذن) وأجور بعض الموظفين، ثم ذكر تاريخ البناية (بداية الأشغال وتاريخ إنجازها)، ثم تختم الوقفية بآية قرآنية تؤكد على ضرورة احترام رسم الوقف.

اشتهر نظام الوقف، بالمغرب الأوسط بشكل كبير خلال الفترة الزيّانية، بفضل الجهود التي بدلتها الدولة، حيث حبّس سلاطينها كثيرًا من العقارات والأملاك والمرافق في وجوه عدة تمس الحياة الدينية والتعليمية بالمغرب الأوسط. ولا يعني تركيزنا على هذه الرقعة الجغرافية في هذه المرحلة الزمنية الوسيطية غيّاب نظام الأحباس (الأوقاف) بباقي بلدان المغرب الإسلامي ولا اقتصاره على مساهمة الدول فقط.

فمن المعروف، أن أوقاف الأفراد قديمة في المغرب الإسلامي، ومعروفة قبل الفترة التي نريد التركيز عليها، فهناك نوازل فقهية ذكرها ابن حبيب (174-238 هـ) وابن سهل (ت 486 هـ)[45].

لا شك، أن دراسة هذا الموضوع الهام، مفيدة جدًا، نظرًا لما يكشف عنه من معطيات تاريخية واجتماعية، تتعلق بمسألة العقار من أراضي وأملاك وضعها المحبس تحت أشراف الدولة لخدمة وضمان تموين بعض المرافق الاجتماعية والدينية، كما تفيدنا أيضا في التعرف على تاريخ العقليات وتساهم في إبراز بعض ملامح الدولة في فترات القوة والضّعف[46].

ومن الوقفيات (الحوالة الحبسية) التي وصل إلينا نصها وصورتها، وقفية مدرسة وجامع سيدي بومدين بتلمسان التي أثرت البحث بما اشتملت عليه من أملاك وأراضي ودكاكين وغيرها من المعطيات والبيانات التي يسّرت علينا فهم

الكثير من الأمور التي تتعلّق بهاتين المؤسستين، وقد استفدنا كذلك كثيرًا من الأبحاث والدراسات الأثرية ذات العلاقة المباشرة بموضوع المؤسسات الدينية والعلمية، وفي طليعة هذه الدراسات الهامة نذكر:

Brosslard ch., "Les inscriptions Arabes de Tlemcen" .R.A.

المنشور بالمجلة الإفريقية (R.A) عام 1859 وكتاب (المعالم العربية بمدينة تلمسان) للأخوين جورج ووليام مارسيه (Les Monuments Arabes de Tlemcen) المطبوع بباريس سنة 1903 م. والدراسة القيمة التي أنجزها جورج مارسية (G. Marçais) عن (عمارة المغرب الإسلامي L'architecture Musulmane d'Occident) طبعة باريس 1954 م.

كما أفادنا البحث القيم الذي كتبه الفريد بَلّ عن (الكتابات العربية بفاس – Inscriptions Arabes de Fes) والذي نشره تباعًا في المجلة الأسيوية (Journal Asiatique) العدد XI - لعام 1917-1918 م وينضاف إلى هذه الأعمال كلها كتاب (الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية) للأستاذ رشيد بورويبة (Les inscription Commemorative des Mosque d'Algerie) نشر المكتبة الوطنية - الجزائر 1979 م.

Terrasse.ch, Medirsa du Maroc (ed Abert Moramle, Paris, 1927)

Golvin .L, La madrasa Medievale (edsud aix-en-provance, 1995)

وأخيرًا مقال : "مقدمة لدراسة الكتابات الأثرية المغربية في العصر الإسلامي" للأستاذ صالح بن قربة - نشر مجلة الدراسات الأثرية - الجزائر 92-1993 م.

حواشي

1. اعتمدنا طبعة دار المنصور - الرباط 1972 م، والطبعة الجديدة بمراجعة عبد الوهاب بن منصور لسنة 1999 م.
2. تحقيق د. ماريا خيسوس، ط. الجزائر 1981 م.
3. راجع صفحات 71-74 من المسند الصحيح.
4. في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 286 - ط، 1999 م).
5. في (نفاضة الجراب - تحقيق أحمد مختار العبادي، ط، القاهرة) ص 49-220.
6. الذيل والتكملة لكتابي اللم وصول والصلة (تحقيق د.محمد بن شريفة) – طبعة أكاديمية المملكة المغربية، ص 197.
7. تحقيق د. حاجيات عبد الحميد، الجزائر، 1980.
8. تحقيق عبد الواحد وافي في أربعة أجزاء – طبعة لجنة البيان العربي – القاهرة 1966 - 1967 م.
9. تحقيق محمد بوعياد، الجزائر
10. من منشورات ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1986 م.
11. اعتنى به وقدم له ونسق مادته د. عبد الحميد عبد الله الهرّامة، ونشر دار الكاتب، طرابلس الغرب - الطبعة الثانية، 2000 م.
12. أنظر عنه، ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء... ص 178.
13. نفس المرجع السابق، ص 178.
14. نفسه، ص 179.
15. تحقيق د. إحسان عباس - ط. بيروت 1968 م و ط 1988 م.
16. انظر الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام ج ن2، ص 308-312
17. نفح الطيب، ص 118.

18. لمليح السعيد، المرجع السابق، ص 14.

19. من مشنورات صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة. الرباط 1978 م.

20. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط 1401 هـ/1981 م. في 13 ج.

21. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 135-136 البستان، ص 154.

22. ابن مريم، البستان، ص 180 الحلل السندسية ج1، ص 701.

23. محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع : أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من (القرن 6 إلى 9 هـ /12-15 م)، منشورات كلية الآداب – الدار البيضاء 1999 م، ص 10.

24. محمد فتحة، المرجع السابق، ص 11.

25. محفوظ بالمكتبة الوطنية تحت (رقم 1335-1336) وبالخزانة العامة بالرباط. (د.883).

26. محمد فتحة، المرجع السابق، ص 12.

27. الكتاني، سلوة الأنفاس ج3، ص 60 فهرس الفهارس ج2، ص 6 التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 143-145.

28. نيل الابتهاج، ص 553، و"فهرسة السراج" مصورة من مخطوط - الخزانة العامة - الرباط رقم : (د. 43 26).

29. تحقيق وتقديم، محمد الفاسي - الرباط 1968 م.

30. رحلة العبدري، ص ص : 3. 4. 7. 8. 11. 14. 17...

31. تحقيق وتقديم د. على المنتصر الكتاني، ط4 ، مؤسسة الرسالة (جزآن) بيروت 1985 م.

32. رحلة ابن بطوطة ج1، ص 108.

33. إعداد ودراسة محمد بن شقرون – الرباط 1984 م.

34. حققه محمد الفاسي وأدولف فور – الرباط 1965 م.

35. ترجمه عن الفرنسية الأستاذان : محمد حجي ومحمد لخضر – الرباط 1980.

36. لمليح السعيد، المرجع السابق، ص 18، وقد وصف بعض النقاد الأوروبيين طريقة الحسن الوزان في تأليف كتابه بأنه " تأليف عربي بتفكير أوروبي" ، لأن المؤلف صنف كتابه في إيطاليا في بداية عصر النهضة الأوروبية - أنظر وصف إفريقيا - مقدمة المترجمين، ص 15-16.

37. نشر دار الفكر – الطبعة الثانية، مصر، القاهرة (4 أجزاء) 1977 م.

38. بدأت اهتمامات علماء المسلمين بقضايا التعليم في وقت مبكر، منذ القرن الثالث الهجري فقد ألف ابن سحنون كتاب (آداب المعلمين – الملحق بكتاب المذهب التربوي عند ابن سحنون

من إعداد عبد الرحمن عثمان حجازي) بيروت 1986 م، و "الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين " لأبي الحسن علي بن خلف القابسي المتوفي403 هـ/1012 م، وكتاب (جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المتعلمين وأباء الصبيان) – مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1541. المنسوب لمحمد بن أحمد أبي جمعة المغراوي.

39. لمليح السعيد، المرجع السابق، 20 مجلة البحث العلمي السنة الثالثة – العدد 7، 1966 م، ص 241-268.

40. أبو جمعة المغراوي، أدب الصبيان نشره رابح بونار – الجزائر 1974 م، ص 16.

41. د. صالح بن قربة، مقدمة لدراسة الكتابات الأثرية المغربية في العصر الإسلامي، مجلة معهد الآثار، العدد 2، سنة 1993 م.

42. الوقفية : مشتقة من وقف ويجمع على وقوف، والوقف لغة هو الحبس والمنع، يقال وقف فلان داره على كذا : حبسها، والوقف مصدر أريد به اسم المفعول، فيقال : هذا العقار وقف، أي موقوف، ومن ثم جمع على أوقاف، ولا يقال أوقفته، لأنه لغة رديئة (أنظر، زهدي يكن، الوقف في الشريعة والقانون) ص 41، ط 2، 1971 م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

43. نقلاً عن السعيد بوركبة في مقاله بعنوان : "البعد الثقافي والمجتمعي للوقف الخيري في الإسلام" – مجلة دعوة الحق – عدد خاص عن جامع القرويين، 363، يناير 2002 م، ص 61.

44. خصص الونشريسي في كتابه "المعيار المعرب" الجزء 7 لفتاوي الأحباس، الرباط 1981 م.

45. ابن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام – مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم د. 1728.

46. محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع... منشورات كلية الآداب – الرباط 1999 م، ص 104.

الفصل الخامس

مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزيّاني

- **تمهيد.**

1. مدرسة أولاد الإمام.

2. المدرسة التاشفينية.

أ. الدور التعليمي والتربوي للتاشفينية.

3. المدرسة اليعقوبية.

أ. الدور التربوي والتعليمي لليعقوبية.

4. تمويل المدارس وأوقافها

أ.د. صالح بن قربة

مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزيّاني
(633-962 هـ/ 1235-1554 م)

تمهيد :

اشتهرت مدينة تلمسان، بكونها الحاضرة السياسية والثقافية والعلمية، التي احتضنت عددًا من المراكز الدينية والعلمية، واستوطنها كثير من العلماء والأدباء، وازدهرت فيها الثقافة والحرف والصنائع والفنون، وبلغت درجة كبيرة من التطور الفكري والاقتصادي[1]. بوأتها لتحتل مكانة الصدارة منافسة بذلك أكبر المراكز الفكرية والعلمية بالمغرب الإسلامي مثل القيروان وفاس وقرطبة.

وفي تلمسان ظهرت المدارس لأول مرة في مسيرتها التاريخية، كمؤسسات تطوّر الحركة العلمية، التي كانت تؤطرها الحلقات الدراسية بجامع تلمسان الأعظم، والمساجد المحيطة به، وتخرج منها عدد كبير من العلماء الأعلام والفقهاء والأدباء المبرزين، حتى غدت مساجدها ومدارسها معيارًا يقاس به نمو الحركة العلمية، ومؤشرًا على مدى ازدهار الثقافة والعلوم والفنون الآداب.

وتعتبر المدرسة من القضايا التي أثارت اهتمام الباحثين والمشتغلين بالتاريخ الإسلامي عامة والمغرب الإسلامي على وجه الخصوص[2].

ويبدو أن ظهور المدارس بالمغرب الإسلامي، كان من حسنات ما نقله الرحالة المغاربة الذين جابوا بلاد المشرق وتردّدوا على معاهده العلمية واعجبوا بالمدارس النظامية التي عمت شهرتها الآفاق من ذلك هذا النص الذي ورد في "رحلة ابن

جبير" متحدثًا عن حاضرة العباسيين التي زارها في حدود 582 هـ/1186 م، ومشيرًا إلى عدد مدارسها والأوقاف التي أوقفت عليها.

"... والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلاّ وهي يقصُر القصرُ البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك[3]، وجدّدت سنة أربع وخمسمائة ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات مُحبَسَة تتصيّر إلى الفقهاء المدرسين..."[4]

وحين زار مدينة دمشق عاصمة الأمويين لاحظ هذه الظاهرة وقال عنها بعد أن وصف مسجدها الأعظم الذي بناه الوليد بن عبد الملك الأموي (86-96 هـ) (705-714 م)، عام 86 هـ : "ومن أحسن مدارس الدنيا منظرًا مدرسة نور الدين رحمه الله... وهي قصر من القصور الأنيقة"[5].

هكذا ظهرت المدارس بالمشرق الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي.

والمجال هنا لا يتسع لتتبع كل النصوص والدراسات التي تناولت هذا الموضوع بكل حيثيّاته وخلفياته وأبعاده، فذلك يستدعي وضع مؤلفات بكاملها لإستجلاء وبحث هذه المسألة الهامة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنواحي العملية والتعليمية في المشرق والمغرب ؛ ولذلك سنتجاوزها إلى بحث ظاهرة فكرة انتقال المدارس من المشرق إلى المغرب وسنحاول تحديد زمن ظهورها مع التركيز بطبيعة الحال، على مدارس المغرب الأوسط في العهد الزّياني كما تناولتها المصادر التاريخية وكتب النوازل.

وقد ربطت أغلب الدراسات المهتمة بالموضوع، بين ظهور المدرسة كمؤسسة، والصراع بين السنة والشيعة، إذ استخدمت المدارس لتثبيت الفكر السني والحفاظ عليه وتطويره.

وانتشرت المدارس بعد ذلك، في بلاد الشام ومصر، ومن مصر انتقلت إلى إفريقية والأندلس والمغرب.

اختلف الباحثون حول تحديد بداية ظهور المدرسة المغربية بفعل تباين المصادر المعتمدة في الموضوع[6]، وهكذا اعتمد عبد الهادي التازي، على بعض الإشارات الواردة في كتاب" الاستقصاء "للناصري، ليقرّر ظهور المدارس في العصر المرابطي، كمدرسة الصابرين بفاس، ومدرسة وجاج بن زلوّ اللّمطي ببلاد سوس[7].

أما ابن أبي زرع، فيذكر في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس)، أن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580-595 هـ) (1184-1199 م) قد : "بنى المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس... وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم"[8].

وأخيرًا جاء ابن مرزوق في كتابه (المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن) ليدلي في المسألة برأي مخالف تمامًا، ويقرّر بأن[9] : "إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد (أبو يوسف يعقوب المريني)، مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس وبعدوة القرويين منها".

أما بالنسبة لبلاد المغرب الإسلامي، فيبدو جليًا من أقوال الرحالة أو أول مدرسة أنشأت كانت "المدرسة المنتصرية" التي بنيت، بطرابلس الحفصية بين سنتي (655 و 658هـ) (1257-1260 م) التي أشار إليها التجاني في رحلته المدونة في مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بقوله من أن... : "أحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها... فيها بين سنة خمس وخمسين وسنة ثمان وخمسين"[10]، وذكر ذلك قبل أن يضيف نقلا عن بعض التقاليد القريبة من الحدث، وربما كان يعني "المدرسة التي أنشأتها بها الهمة العلية الإمامية المنتصرية"[11].

وكأنها القاعدة لانطلاق بناء بقية المدارس التي أشار غليها من قبل ولا يقف عندها.

وبالتالي، فهل معنى ذلك أن المستنصر الحفصي الذي ولي الحكم سنة 646 هـ/1248 م، ثم تلقب بلقب الخلافة سنة 650 هـ/1252 م ؛ قد أخذ في

التقرّب من المالكية في إفريقية عن طريق تأسيس (المدرسة) بالمعنى السني للكلمة، فاختار لبنائها مدينة متاخمة لمنطقة الشرق الإسلامي وبعيدة في نفس الوقت عن عاصمته (الموحدية) مدينة طرابلس[12] الغرب ؟

فهل من أسباب منطقية يمكن أن نفسر بها تأسيس المدارس بطرابلس الغرب الحفصية، والمدرسة الموحدية بمراكش اللتين تزامن ظهورهما في فترة واحدة ؟.

ولكن لما كان موضوع الدراسة يتمحور حول إنشاء المدارس بمدينة تلمسان الزيّانية فإن هذا الإجابة عن هذه القضية نتركها لمن يهمهم هذا الأمر حتى لا نخرج عن نطاق موضوعنا.

ويفهم من كلام ابن مرزوق نَفْيه القاطع بوجود المدارس ببلاد المغرب قبل المرينيين، وقد يكون إقراره لهذه الحقيقة، هو انتقاد صريح لرأي سلفه ابن أبي زرع.

وقد يفسّر هذا التباين في الآراء – بكون النصوص المصدرية المتعلقة بمشكلة ظهور المدارس، جاءت متأخرة، إذ تعود إلى الفترة المرينية، وعليه فإن استعمال مصطلح المدرسة في المصادر، قد يكتنفه الغموض، وبالتالي قد يقع انزلاق في استخدامه دون التدقيق في معناه ودلالته وأبعاده[13]. وفضلا عن ذلك، فاندثار المباني التعليمية التي ترجع إلى الفترة السابقة عن المرينيين، وغيّاب التحريّات والتنقيبات الأثرية تجعلنا نفتقر إلى المعطيات التي تكشف عن شكل تلك الهياكل وتخطيطها ومعمارها ووظائفها.

ومع غيابْ الشواهد الأثرية، والغموض الذي يكتنف المصطلحات المتداولة في المصادر يمكن القول بأن المغرب الإسلامي، عرف هياكل تعليمية قبل ظهور المرينيين إلى جانب حلقات العلم التي كان يؤطرها العلماء بالمساجد والجوامع، ولكنها لم ترق من حيث الشكل والمحتوى، أو حتى من حيث التصميم المعماري والوظيفة إلى ما اقترن بمفهوم المدرسة أيام المرينيين والحفصيين والزّيانيين، وقبل أن نناقش مدلول المدرسة ومفهومها في هذه الفترة، لا بد من القول بأن

مدلول المدرسة لغويًا، يعني مكان الدرس والتعليم. فالكلمة مشتقة من فعل (درس) بمعنى قرأ[14]. وفي هذا الصدد يقول الله تعالي[15] : "ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أنْ لا يقولوا على الله إلاّ الحقَّ، ودَرَسُوا ما فيه".

ولا شك أن عبارة (ودرسوا ما فيه) تعني (قرأ ما فيه)، وقوله تبارك وتعالي : "وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنُبينَه لقوم يعلمون"[16].

وهكذا نجد أن لفظة (مدرسة) مشتقة من الدرس، والدارسون هم الطلبة[17].

أما مدلولها المعماري، فهي مؤسسة تضم بيتًا للصلاة والدراسة في آن واحد وتعرف باسم (القبة). وصحنًا مكشوفًا واسعًا. وسكنى للطلبة تتألف من طابق أو طابقين بهما غرف أو حجرات صغيرة، وما يتبعها من مرافق ضرورية أخرى مثل خزانة الكتب أو المكتبة وغيرها[18].

وإذا كان حال المؤسسات التعليمية كذلك، فما هو إذن مدلول المدرسة الزّيانية، المرينية بحاضرة الدولة تلمسان ؟.

لا شك أن المدرسة بمفهومها ومدلولها الجديدين، كانت عبارة عن مؤسسة رسمية بنيت بإيعاز من السلطان الحاكم، وفق تخطيط محكم يستجيب لوظائفها التربوية والاجتماعية، المتمثلة في إيواء الطلبة الغرباء عن المدينة وفي تدريس العلم وإقراء القرآن الكريم، ونستخلص هذه الوظائف من عبارة صريحة واردة في وثيقة تحبيس مدرسة فاس الجديد ونصها : "وكمل بناء هذه المدرسة المباركة وبدى بالإقراء فيها وسكناها في ذي قعدة عام 721"[19].

وقد روعيت هذه الوظائف أثناء وضع تصميم المدرسة المرينية بشكل خاص – لكن تصميم المدرسة الزيّانية ربما اختلف عنها في بعض التفاصيل وباستثناء المدرسة التاشفينية التي وصل إلينا مخططها والتي تشبه نظيرتها المرينية - فهي تتميز بصغر حجمها وقلة مرافقها – فهي تحتوي على غرف الطلبة وعلى قاعة للصلاة وللدرس في آن واحد، وينتظم الجميع حول صحن مكشوف، يستعمل أحيانا لإعطاء الدروس.

واستهدف المرينيون ومن بعدهم الزيّانيون من خلال بناء المدارس إلى إحياء المذهب المالكي، ورد الاعتبار لعلمائه الذين تعرضوا لمضايقات وابتلاءات زمن الموحدين[20]، كما تشير إلى ذلك، العبارة التالية الواردة في عدد من لوحات تحبيس المدارس بفاس : "الحمد لله رب العالمين رافع درجات العالمين ومجزل ثواب العاملين المحير (كذا) بالمدارس ما درس من معالم العالم والدين"[21].

وهكذا شيدت المدرسة لتكون أداة للسلطة لتكوين الأطر والعلماء المختصين في المذهب المالكي مع الاهتمام بتدريس مختلف العلوم والمواد الأخرى، ومن هذا المنطق يمكن القول، بأن المدرسة المغربية تنسجم مع الهدف العام الذي أنشئت من أجله المدرسة بالمشرق الإسلامي.

ولكي تتمكن المدرسة الزيّانية – المرينية من القيام بوظيفتها وتأدية رسالتها، وفر لها السلاطين الإمكانيات اللازمة على شكل أملاك جبسية.

وخلاصة القول أن المدرسة الزيّانية، هي مؤسسة سلطانية النشأة والتمويل أقيمت خصيصا لإيواء الطلبة وتدريس العلوم، وخاصة منها المقترنة بالمذهب المالكي لتعزيز مكانته في الدولة، بتخريج العلماء العاملين بمقتضياته على المستوى الشيعي والمخزني. وتحقيقا لهذه الغايات الكبرى، وتقديرًا منهم للعلم والعلماء تفنّن الزيّانيون في تخْطيط مدارسهم فهذا أبو حمو موسى الثاني الذي وجه عنايته إلى المدرسة الموضوعة على ضريح والده (أبي يعقوب)، "فضاعف فيها الفعلة وأوجب الأبنية... وأجزل الأوقاف، وعينة الجرايات ورسم فيها الخطط"[22]، فجاءت آية في الحسن والجمال.

وهكذا ظهرت المدرسة بالمغرب الأقصى كسلسلة متصلة الحلقات، افتتح عهدها السلطان المريني أبو الحسن على (731-749 هـ) بتشييده مدرسة الحلفائيين (الصفارين) كأول مدرسة بفاس وذلك حوالي سنة 670 هـ/1271 م[23]، ثم ابتعها بمدارس عدة في كل بلد من بلاد المغربين الأقصى والأوسط، بل خطط

لبناء مدرسة بمدينة قسنطينة إلاّ أن انشغاله بحملته على إفريقية حال دون تحقيق هدفه[24]. لتأوي طلاب العلم وتوفر لهم شروط الراحة والتفرغ لطلب العلم. وتابع سلاطين الدول الثلاث التي تقاسمت بلاد المغرب هذه المسيرة العمرانية العلمية بتأسيس المدارس في حواضرهم.

1. مدرسة أولاد الإمام :

يعتبر السلطان أبو حمو موسى الأول مؤسس أول مدرسة في تاريخ بني زيّان، عرفت باسم مدرسة أولاد الإمام وذلك سنة 710 هـ/1310 م[25]، وقد أنشأها تكريمًا للعالمين الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن وأخيه أبي موسى عيسى إبني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام من برشك.

ومما يؤسف له أن المصادر لم تسعفنا بالمعطيات اللاّزمة عن تدشين هذا المشروع العلمي، الذي يذكرنا بنظيره المريني الذي قام به بنو مرين في المغرب، وأن ما توفر لدينا من معلومات لا يشفي الغليل، يقول التنسي عن ظرفية التأسيس والهدف منه في العبارة التالية : "...كان محبًا للعلم وأهله معتنيًا به (يقصد أبو حمو موسى الأول) قائمًا لحقه، ابتنى مدرسة لإبني الإمام تكريمًا لهما واحتفاء بهما، وشكر الله على نعمته عليه لقتل عدوّه أبي يعقوب المريني، وتخليص تلمسان منه"[26]. وقد بنيت داخل باب كشوط[27].

أما مخطط المدرسة وهيكلها مع منزلي الفقيهين، فقد اندثرا جميعا ولم يبق لهما أثرًا عدا المصلّى[28]. ومن أجل التعرّف أكثر على هذه المسألة حاول (مارسيه Marçais) من خلال الإشارات التاريخية أن يرسم صورة افتراضية للموقع الذي كانت تشغله المدرسة ومخططها؛ وحسب رأي هذا الباحث، فقد كانت تتموقع غرب مسجد أولاد الإمام وشماله ؛ وأنها كانت تتألف من قاعتين كبيرتين،يتلقى فيها طلبة العلم دروسهم على الشيخين الكبيرين إبني الإمام[29].

لكن في غياب الشواهد الأثرية، المتمثلة في الحوالات الحبسية أو وثائق التحبيس الملحقة بالمدرسة، يصعب التّعرف على دور المدرسة الفكري، ومساهمتها في تنمية الثقافة الإسلامية ونشر العلوم، وتكوين الأطر وإعدادها للقيام بدورها في المجتمع بالتعليم والتأليف وشغل المناصب العليا في الدولة.

استمرت هذه المدرسة المذكورة تؤدي رسالتها التربوية والتعليمية حتى القرن العاشر الهجري، حسب إشارة صاحب البستان[30]، بل واصلت نشاطها إلى غاية منتصف القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي[31]. طبقا لما ذكره (Borges).

ولما كانت مدرسة أولاد الإمام، هي أول مؤسسة تربوية تقام في حاضرة الدولة تلمسان، فقد عين السلطان للتدريس بها فطاحل العلماء لتؤدي رسالتها على أكمل وجه،حيث قام بالتدريس فيها علماء من أمثال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام أبو زيد[32] وأخيه الإمام العلامة الكبير أبو موسى عيسى ابني الإمام التلمسانيان العالمان، المشهوران شرقًا وغربًا، ذكرهما ابن فرحون في الديباج فقال : "أبو زيد شيخ المالكية بتلمسان العلامة الأوحد أكبر الأخوين المشهورين بأولاد الإمام، الإمام التنسي البرشكي وهما فاضلا المغرب في وقتهما..."[33].

وكانت لهما من الشهرة في أقطار المغرب ما أثبت لهما في أنفس الناس عقيدة صالحة. وقد تركا تصانيف وتآليف حدّث بها المؤرخون، ومن تآليف أبي زيد شرحه على ابن الحاجب الفرعي، وأخذ عنهما جماعة من الأئمة الكبار كالشريف التلمساني والمقري وأبي عثمان العقباني، والخطيب ابن مرزوق الجد وأبيه وعمه وأبي عبد الله اليحصبي. وقال أبو العباس الونشريسي في حقهما : "وأما بنو الإمام فأعلاهم طبقة الشيخان الراسخان الشامخان العالمان المفتيان الشقيقان الفقيه العلامة آخر صدور أعلام المغرب بشهادة أهل الإنصاف شرقًا وغربًا أبو زيد، والعلامة النظار آخر أهل النظر وجامع أشتات المعارف أبو موسى ابنا الإمام"[34].

وقد تولى التدريس بهذه المدرسة عدد كبير من العلماء الذين طبقت شهرتهم الآفاق وتخرج عليهم عشرات الطلاب ؛ الذين صاروا بعد فترة من تكوينهم أساتذة ومدرسين في مختلف المعارف والعلوم. وهكذا إذا تتبعنا النصوص المصدرية بمختلف أنواعها لوضع جدول بأسماء رجالات العلم والأدب الذين برزوا على الساحة الثقافية بالمغرب الأوسط وأثّروا بدروسهم وتآليفهم الحياة الفكرية والعلمية فإننا نوفيهم حقهم في هذه العجالة وإنما عملاً مثل هذا، يقوم به مجموعة من الباحثين لتفرع تخصصاته وتشعب موضوعاته ومجالاته، ومع ذلك، فإنه يمكن القول، بناء على توفر لدينا من معلومات أن من كبار المدرسين في هذه الفترة نذكر محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الإمام أبي الفضل التلمساني الذي تخرج عليه أطر يعدون من كبار علماء العصر من أمثال (ابن مرزوق) الكفّيف وعبد الجليل التنسي، قال عنه القلصادي حضرت مجلسه فكان فقيها إماما عالما بالمعقول واشتهر علمه، حتى لقد ذكر عن الشيخ أحمد بن داود الأندلسي أنه سُئل حين من تلمسان عن علمائها فقال : "العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري... والله أعلم بصحته".

ووصفه ابن داود المذكور فيما رأيته بخطه : "شيخنا بقية الحفاظ قدوة الأدباء العالم الجليل ابن الإمام العلامة أبي محمد"[35].

ومن تآليفه التاريخية نذكر "نظم الدر والعقيان في دولة آل زيّان" و "الضبط وراح الأرواح" في التصوف. وله كذلك جواب مطوّل في "مسألة يهود توات" برهن فيه عن سعة الحفظ والتحقيق،وأثنى عليه معاصره الإمام محمد بن يوسف السنوسي، فقال في حقه : "لقد وفق لإجابة المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفا غليل أهل الإيمان في المسألة وما بالى لقوة إيمانه ونصوع إيقانه بما يشير إليه الوهم الشيطاني، الشيخ الإمام القدوة علم الأعلام الحافظ المحقق أبو عبد الله التنسي، جزاه الله خيرًا..."[36].

أخذ عنه جماعة من العلماء الكبار من أمثال أبي عبد الله ابن صعد وابن مرزوق السبط، وابن العباس الصغير الذي قال : لا زمت مجلس الفقيه العلم الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام وحضرت إقراءه تفسيرًا وحديثًا وفقهًا وعربية وغيرها.

ومنهم الشيخ بالقاسم الزواوي وعبد الله بن جلال وغيرهم.

وإذا أخذنا التنسي مقياسًا لمستوى علماء عصره خلال القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، نجد أن المواد المدرسة التي كانت تناقش في المؤسسات العلمية والدينية والمجالس تشمل علومًا مختلفة من فقه وتفسير وحديث وإقراء القرآن وعلوم العربية وغيرها من المواد الهامة الأخرى كالمنطق والحساب والفرائض والميقات.وأن مستوى التكوين كان عاليًا جدًا، والمتصفح لكتاب المعيار للونشريسي سوف يكتشف تفاصيل أكثر عن هذا الجانب التعليمي الذي قام به هؤلاء العلماء في سبيل نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية بأنحاء المغرب الأوسط وحتى في المغربين الأدنى والأقصى. ومن هنا يمكن أن نتصوّر كيف كانت تتم المناظرات والمجادلات والمناقشات في قضايا كثيرة فقهية وفكرية ولغوية وعلمية، تفتح آفاق البحث والاجتهاد، وتخلق روح المنافسة بين طلاب العلم.

2. المدرسة التاشفنية (37) : شكل (1) :

تعد التاشفنية، ثاني مؤسسة زيّانية أسست بالمغرب الأوسط، بناها السلطان أبوتاشفين بن أبي حمو موسى الأول، الذي تولى إمارة تلمسان في الفترة ما بين (718 هـ/1318 م) و(737 هـ/1337 م).

تقع التاشفينية بإزاء المسجد الجامع جنوبيًا، فهي إذن توجد في مجال يعتبر النواة الأولى بعد جامع أغادير الذي أسسه إدريس الأول خلال النصف الثاني من القرن الهجري.

وهكذا يضم هذا الفضاء، أقدم المباني – القصر – الإدارة – القيسارية إلخ... ويتبيّن بأن اختيار موضع التاشفينية، لم يكن وليد الصدفة، بل خضع لاعتبارات استراتيجية، تكمن في رغبة مؤسسها في الاستفادة من هذا المجال الحيوي واستثماره لكي تنجح المدرسة في أداء رسالتها التعليمية، وطموحه في إضفاء طابع الإجلال والعظمة عليها، على اعتبار أن سكان المدينة تكن تقديرًا واحترامًا للمباني المجاورة لها. يذكر التنسي أن التاشفينية من مآثر السلطان أبي تاشفين الزيّاني(38) : "وحسن ذلك كله ببناء المدرسة الجليلة العديمة النظر، التي بناها بإزاء الجامع الأعظم ما ترك شيئًا مما اختصت به قصوره المشيّدة، إلا وشيّد مثله شكر لله له صنعه وأجزل له عليه ثوابه" ، فكانت أهم مدرسة في المغرب الأوسط، والمصادر التي بين أيدينا، لا تعطي تفاصيل عن الظروف التي أحاطت بتأسيس التاشفينية، حتى وإن ذكرتها، فهي لا تعدو إشارات خفيفة لا تخدم الموضوع، ومن بين المصادر التي أشارت إلى التاشفينية، نذكر كتاب (نفح الطيب) للمقري الذي ضمّنه بعض الأبيات الشعرية التي رآها منقوشة بأعلى دائرة مجرى الماء يقول المقري(39) : "رأيت مكتوبا بأعلى دائرة مجرى الماء بمدرسة (تلمسان) التي بناها أمير المسلمين (ابن تاشفين الزيّاني) (كذا)، وهي من بدائع الدنيا هذه الأبيات :

وبديع إتقاني وحسن بنائي — أنظر بعينك مهجتي وسنائي
من نشأتي بل من تدفق مائي — وبديع شكلي واعتبر فيما ترى
صاف كذوب الفضة البيضاء — جسم لطيف ذائب سيلانه
فغدت كمثل الروض غبّ سماء — قد حف بي أزهار وشي نمّقت

وقد استمرت التاشفنية - التي تعتبر من أجمل المدارس الزيّانية - تؤدي رسالتها العلمية والتربوية حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي حيث وصفها الحسن الوزان، بيد أن المدرسة تعرضت للهدم والتخريب من قبل الإدارة الفرنسية سنة

1873 م، وبناء على ما سبق، فإننا نجد صعوبة في الإحاطة بكل التفاصيل التي تخص هذه المؤسسة، سواء فيما يتعلّق بهيكلها وإدارتها، أو نظام تسييرها تربويًا، وكيف كانت طريقة التدريس بها، ولائحة أشهر العلماء الذين درسوا فيها - بل إن المصادر جميعها – باستثناء كتب النوازل لم تتحدث عن مصادر الأموال التي أنفقت في إنجاز هذا الصرح المعماري الهام، ولا عن مبالغها، وتزداد المسألة تعقيدًا – مع اندثار واختفاء هياكل المدرسة، إذ لم يبق منها أي أثر من شأنه أن يذكرنا بهيئتها وصورتها، اللّهم إلاّ مخططها أو تصميمها الهندسي وبعض رسوم بلاطاتها الخزفية التي كانت تكسو واجهات جدرانها، حيث قام أحد المهندسين الفرنسيين برسمه قبل هدم التاشفينية(40).

ومن الغريب حقًا، أننا لم نعثر حتى اليوم، على وقفية أو وثائق تحبيس، عن مدارس بني زيّان عامة، والتاشفينية على وجه الخصوص على الرغم من إشارة المصادر الصريحة إلى ما قام به سلاطين الدولة من تحبيس الأموال والأملاك المختلفة عليها. ويستشف من المصادر أن الأموال المستفادة من أحباس المدارس الزّيانية كانت تنفق في الأشياء التالية :

1. تؤخذ منها أجور المدرسين من العملاء وجرايات الطلبة.
2. تخصيص جزء من المداخيل لاصلاح المؤسسة وشراء التجهيزات الضرورية من حصير وأفرشة وزيت الوقود.
3. منح أعطيات للأطر الإدارية المسيرة لشؤون المدرسة والساهرة على خدمة الطلبة، إضافة إلى القائمين على نطاق البناية وحراستها.

والسؤال الذي ينطرح أمام الدارس لهذه المؤسسة هو : هل بناء التاشفينية والإنفاق على مختلف فعاليتها ونشاطها كان يتناسب وأداء رسالتها التربوية ؟.

لعل الإجابة عن ذلك مثلاً نجدها فيما ذكره التنسي عن السلطان أبي العباس أحمد العاقل (834-886 هـ/1430-1482 م) الذي : "... بنى بزاويته المدرسة

الجديدة، وأوقف عليها أوقافًا جليلة ووجد كثيرًا من ريع الأحباس قد دثر، والوظائف التي بها قد انقطعت فأحيا رسما وأجرى الوظائف على أزيد مما كانت عليه..."[41].

أ - الدور التعليمي والتربوي للتاشفينية :

قبل الحديث عن الدور الذي لعبته المدرسة اليعقوبية في تقدم الحركة الفكرية والعلمية بالحاضرة تلمسان وفي غيرها من مدن الإمارة الزيّانية، يتعيّن علينا الإشارة إلى ما كان يتمتع به السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن مؤسس المدرسة من مناقب ومآثر. شكلت الركيزة الأساسية في تنشيط دور المدرسة والقيام برسالتها في هذا المجال، فقد كان أبو تاشفين مؤثرًا للعلماء والأدباء، ينزلهم منازل تليق بمقامهم، مغدقًا عليهم الأموال والصلات، يعقد المجالس العلمية ببلاطه احترامًا للعلم وأهله.

وصفه التنسي قائلا[42] : "كان له بالعلم وأهله، احتفال وكانوا منه بمحل تهمّم واهتمال، وفد عليه بتلمسان الفقيه العالم المفتن قاضي الجماعة أبو موسى عمران المشذالي، من أكبر فقهاء عصره بمذهب مالك فأكرم منزله وأدام المسيرة به وألحقه بجانبه وولائه التدريس بمدرسته[43].

وقال عنه يحي ابن خلدون : "لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك، وحفظًا له ولأقوال أصحابه وعرفانًا بنوازل الأحكام وصوابًا في الفتية وقد نسب إليه المازوني في كتابه (الدرر الكامنة) مجموعة من النوازل[44].

ومن بين العلماء الذين استقبلهم وأكرم وفادتهم، أبو العباس بن عمر البجائي الذي قدم من بجاية، "فأنزله منزل الكرام، وسأله عن مقدمه فأخبره بأنه جاء تاجرًا، فعرّف به أبو زيد بن الإمام أمير المسلمين فرفع عنه تكلفة مغرمه، ومغرم من جاء معه وكان مائتي دينار ثم أعطاه زيادة على ذلك مائة دينار"[45].

وإذا كانت هذه حال السلطان وسيرته مع أهل الفكر والعلم فإننا سنعتمد في دراسة هذا الموضوع على المصادر التاريخية والنوازلية التي تعتبر أدوات بحث،

فنتابع أسماء العلماء والطلبة الذين كانوا على صلة مباشرة بالتاشفنية، كما هو مثبت في الجدول[46].

ولا شك أن هذا الجدول، سيضم كبار العلماء المشهورين، الذين تركوا بصماتهم واضحة على الحياة الفكرية والعلمية بالمغرب الأوسط وغيره من بلاد المغربين الأقصى والأدنى.

وهنا لابد من التذكير من أن جدول الأسماء لا يشتمل على رجال العلم الذين درسوا بالتاشفينية فحسب، بل سيتضمن أيضا أسماء العلماء الذين أغفلت المصادر فقط الإشارة إليهم لأن مراكز العلم بتلمسان، كانت من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها وإحصاؤها في هذا المجال الضيق ولذلك نشير، إلى أن التدريس وتعاطي العلم لم يقتصر على مؤسسة دون أخرى، بل كان العلماء يتنقلون بينها من أجل التعليم ونشر الثقافة، وانطلاقا من هذه الوضعية الثقافية، سندرج كل الأسماء التي عاصرت التاشفينية لنعطي صورة حقيقية عن الجو العلمي وديناميكية الحياة الفكرية في المغرب الأوسط.

ومهما يكن من شيء، فقد ساهمت التاشفينية بقسط وافر في تقدم الحركة الثقافية بتلمسان، بدليل إيوائها المتواصل للطلبة واحتضانها لحلقات العلم، فكانت القاعة، فضاء لإلقاء الدروس والتعلّم تغص بالطلبة. فهناك صحن يحف به من ثلاث جهات – غير جهة المصلّى – حجرات معدّة لسكن الطلبة.

فالتاشفينية، كان تصميمها مزدوج المعالم، فهي عبارة في آن واحد عن مسجد مدرسي – ولكن تقلصت مساحة المسجد الذي أصبح لأ يغْدو قاعة للصلاة، وحتى المحراب أصبح على شكل قوس أصم – وهكذا نجد أن أول ما يواجه الداخل للمدرسة هو صحنها - كما يتصدّر الصحن – في اتجاه القبلة – بيت الصلاة وهو أيضا قاعة للدروس.

كما تتوفر المدرسة على منارة للآذان، وهذا التنوع في التصميم جعل التاشفينية تتفرد بصفات وخصائص تميّزها عن غيرها من المنشآت الأخرى.

والجدير بالملاحظة، أن الدور التعليمي والفكري للتاشفينية لا يمكن أن يدرس بمعزل عن جامع تلمسان الأعظم، وكان المدرسون الذين تناوبوا على التدريس بهذه المدرسة من كبار علماء العصر، كالمشدالي وأبي عبد الله محمد السلاوي[47] ومحمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو والتميمي[48] وكان من العلماء الذين قدموا إلى تلمسان لتدريس العلوم الدينية، ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد المقري[49]، الذي ولد بتلمسان ودرس على علمائها من أمثال الأخوين ابني الإمام، وهناك عدد لا يحصى من العلماء الذين تعاطوا التدريس بمساجد ومدارس تلمسان، وتخرج عليهم كوكبة من العلماء الذين واصلوا المشوار على نفس المنهج، والمجال هنا لا يتسع للإتيان على كل الأسماء العلمية التي أثرت بشكل أو بآخر في الحياة الفكرية بحاضرة بني زيّان،وخاصة منها هيئة التدريس والملاحظة الهامة التي تستحق التسجيل في هذا السياق، وهي أن المؤرخين عامة، والمعاصرين منهم للدولة على وجه الخصوص، يكتفون فقط، عندما يتحدثون عن مدرسة ما من المدارس المؤسسة في تلمسان بذكر اسم واحد من العلماء الذين عينوا للتدريس في التاشفينية أو في اليعقوبية، فهذا التنسي يقول : "... وضع للتدريس بها الفقيه العالم أبو موسى عمران المشدالي إكرامًا لنزوله عليه"[50].

ومن أشهر العلماء، الذين عاشوا بمدينة تلمسان على عهد أبي تاشفين الأول نذكر من بينهم أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة الشاعر الأديب الناثر، وهو من مواليد تلسمان درس بها، وتخرج على علمائها، إلا أنه لم يستقر بحضارة الدولة بسبب طلبه، فرحل إلى الحجاز صحبة والديه وإخوته ودخل دمشق ثم القاهرة التي توفي بها.

وقال عنه ابن حجر : "إنه كان كثير المروءة جم الفضل كثير الاستظهار"، كما وصفه ابن الأحمر بقوله : "هو المستبحر في القريض والتصنيف والمفرط". آذان العلوم ومشنفها بأحسن التشنيف المستحوذ ببراعته على صدور القوافي والأعجاز،

المستكثر في الشعر المدون ببدائع الطلاوة والمستطيل فيه بالرقة والحلاوة. ..وفوائده لظهور الفوائد مثيرة وطريقة التصوّف هو... وفارسها، وميادين أبطال الكلام هو ممارسها"[51].

ومن أعيان المالكية كان (محمد بن يحي بن علي النجار) وهو من مواليد تلمسان وتتلمذ على (الآبلي) الذي قال فيه : "ما قرأ عليّ أحد حتى قلت له لم يبق عندي ما أقول لَكَ غير ابن النجار".

ارتحل ابن النجار إلى المغرب، والتقى بأبي عبد الله محمد بن هلال، شارح المجسطي. وأخذ عن الإمام أبي العباس بن البناء، ثم رجع إلى تلمسان وفيها توفي تاركًا فتاوي نقلها الونشريسي في المعيار. وعلاوة عما ذكرناه سابقا، هناك أسماء لرجالات الفكر، لا نستطيع إثباتها جميعا لكثرتها وضيق المجال هنا، فاكتفينا بالإشارة إلى أبرزها.

3. المدرسة اليعقوبية:

تقع اليعقوبية بالقرب من المقبرة الزيّانية التي تضم ضريح أبي يعقوب والد السلطان أبي حمو موسى الزيّاني (760-791 هـ)(1358-1388 م) وأعمامه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت الزعيم، اللذين توليا حكم مدينة تلمسان في الفترة السباقة. وكان هدف السلطان من هذه الأعمال، أن يجعل من هذا المكان مقبرة خاصة، بأفراد بني عبد الواد.

ويضم هذا الفضاء أقدم المباني التي اندثر معظمها، ومن هنا يتبيّن بأن اختيار موضع اليعقوبية لم يكن وليد الصدفة، بل خضع لاعتبارات تكمن في رغبة مؤسسها في الاستفادة من هذا المجال الغني، لكي تنجح المدرسة في أداء رسالتها التربوية والتعلمية.

فمن هو مؤسس اليعقوبية ؟

يذكر يحي ابن خلدون أن اليعقوبية من أعمال السلطان أبي حمو موسى الثاني[52] – ومن المعروف أن هذا السلطان – هو واسطة عقد الزيّانيين – وقد أبان عن ولعه

الشديد بتشييد المباني من مساجد ومدارس - حيث شرع في تأسيسها مباشرة بعد الانتهاء من مراسيم دفن والده، فكان الانتهاء من بنائها سنة 765 هـ/1354 م.

ومع ذلك لم يبق منها ما يساعد على رسم مخططها ومعرفة أقسامها على الرغم من أن اليعقوبية هي المدرسة الوحيدة، بتلمسان، التي تؤرخ لفترة حكمه، ونشير بهذا الصدد إلى أن مشاريع أبي حمو موسى الثاني، العلمية والثقافية، لم تنطلق، إلاّ بعد أن حرّر تلمسان من المرينيين وأعاد للبلاد أمنها واستقرارها.

ويلاحظ، بأن المصادر - بما فيها يحي ابن خلدون - لا تقدم معطيات حول الظروف التي أحاطت بتأسيس اليعقوبية، والمعروف أن بني عبد الواد، اعتادوا، أن يضفوا نوع من الاحتفالية على عملية تشييد المباني الكبرى، إذ ينتقل السلطان عادة إلى عين المكان رفقة العلماء والوزراء وأعيان الدولة لتدشين المشروع. حتى يلفتوا الأنظار إلى أهمية ما يقومون به من أعمال ولذلك لم يترك أبو حمو موسى هذه المؤسسة دون التفكير في وظيفتها والقيام بدورها الذي وجدت من أجله فعيّن لتدريس العلم فيها الفقيه العلامة (أبا عبد الله محمد بن الشريف التلمساني)، الذي قدم إليها من مدينة فاس. وقد أشار إلى ذلك صاحب (البستان) بقوله : "فانطلق إلى تلسمان، وتلقاه أبو حمو براحتيه واصهر له في ابنته، فزوّجها إياه، وبنى له مدرسة، وأقام الشريف يدرس العلم بها، إلى أن هلك رحمه الله سنة 771 هـ..."، ويستشف من النصوص التاريخية أن السلطان أبا حمو موسى حضر أول درس القي بالمدرسة، وهنا لا بد من التساؤل حول اسم المدرسة التي بناها السلطان لهذا العالم الجليل، احتفاء بمقامه وتقديرًا لعلمه وشهرته التي طبقت الآفاق فهل شيّد له مدرسة جديدة غير المدرسة اليعقوبية ؟ لأن عبارة ابن مريم (وبنى له مدرسة) غامضة وغير صريحة، وهي تطرح إشكالية مُعَقَّدَة، فلفظة (وَبَنَى...) الواردة قبل المدرسة، لا يمكن أن نفهم منها أن الأمر بالبناء وتمام عمليات التأسيس والتخطيط، قد وقعت كلها في تلك السنة، ومعنى ذلك، أن عملية التأسيس قد تمت

بعد فترة من قدوم هذا العالم إلى تلمسان، وبالتالي فإنه ليس من المستبعد أن تكون هذه المدرسة ثاني مؤسسة تعليمية تؤسس في عهد أبي حمو موسى. لكن المصادر لم تتعرض لوصف الأجواء التي رافقت عملية تدشين اليعقوبية، وذلك راجع إما لكثرة المنجزات المعمارية لأبي حمو موسى، فقد تحدث بعض المؤرخين عن تأسيسه المساجد والمدارس والبيمارستانات والحمامات، ولكن مع غياب الشواهد الأثرية، تبقى هذه المعطيات مجرد إشارات تاريخية لم تتحقق بعد ميدانيًا. وحتى الأبحاث والدراسات المنشورة لا تعطي أي جديد حول هذه القضية.

وقد اشتهرت المدرسة باسم اليعقوبية، وذلك نسبة إلى والد السلطان أبي حمو موسى – أبي يعقوب – بعدما اكتملت عمارتها فدعيت المدرسة اليعقوبية.

كما كان يطلق عليها أيضا مدرسة "سيدي إبراهيم المصمودي"، الذي توفي ودفن بها سنة 805 هـ/1402 م، وظلت المدرسة تعرف بهذا الاسم حتى اليوم، إن هذه التسميّات التي أطلقت على هذا المبنى، والذي اندثرت معالمه، تؤكد، على تكريم العلماء والأدباء، وإن إقتران هذه الأسماء بالمدرسة تدل على الاهتمام بمكانتها ومحتواها ووظيفتها.

أ - الدور التعليمي والتربوي لليعقوبية :

سنعتمد في دراسة هذه القضية على الكراسي العلمية التي احتضنتها والعلماء الطلبة الذين توافدوا عليها ومارسوا فيها أنشطتهم. فازدانت اليعقوبية بكرسي الفقه والعلوم الدينية، اللذين جذبا إليهما مشاهير العلماء، وأنجب الطلبة. وتضافرت جملة من العوامل لجعل اليعقوبية ناديًا علميًا متميزًا كمًا وكيفًا، من ذلك كثرة محبوساتها، إضافة إلى قربها من المسجد الجامع، فكان الطلبة ينتقلون بيسر وبكثافة بين المؤسستين، كما أن فطاحل العلماء بفاس وتلمسان تنافسوا على التدريس على كرسي الفقه (علوم الدين) باليعقوبية ذات البناء الجميل والفناء الواسع وصفها صاحب (زهرة البستان)[53] فقال : "فأقيمت مدرسة مليحة البناء

واسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات، ووضعت في أبدع الموضوعات، سمكها بالأصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم... غرس بإزائها بسُتّتين يكتنفانها و... صنع فيها صهريجًا مستطيلاً، وعلى طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلا، فيالها من بنية ما أبهجها..."[54].

وانطلاقا من المصادر التاريخية، قمنا بتتبع العلماء والطلبة الذين كانوا على صلة مباشرة باليعقوبية كما هو مثبت بالجدول[55].

وتضم اللائحة كبار العلماء الذين ذاع صيتهم خارج تلمسان، وتركوا بصماتهم واضحة على الحياة الفكرية بالمغرب الإسلامي، ومع ذلك فاللائحة لا تشتمل على رجال العلم الذين قدموا إلى تلمسان ومنها إلى اليعقوبية، لأن المصادر أغفلت الإشارة إليهم، وقد أثبتنا جل العلماء الذين عاصروا فترة السلطان أبي حمو موسى الزيّاني، على اعتبار أن هؤلاء العلماء لم يقتصر تدريسهم لطلبتهم على مؤسسة معينة، بل كانوا يتنقلون بين مراكز العلم من مساجد ومدارس وغيرها، رغبة في تعميم التعليم ونشر العلم بين مختلف طلاب المعرفة في تلمسان.

ومهما يكن من أمر، فقد ساهمت اليعقوبية في تنشيط الحركة الثقافية بتلمسان، بدليل إيوائها المستمر للطلبة واحتضانها لحلقات العلم المنتظمة وهنا لابد من القول بأن مقاربة الدور الثقافي لليعقوبية، لا يتم بمعزل عن جامع تلمسان الذي كان بمثابة جامعة مثل القرويين بفاس والزيتونة بتونس. فالمدرسة شكلت دومًا إحدى الحلقات التابعة لها ويتجلى ذلك، في إيوائها للطلبة واستقبالها للعلماء. إذ لم يتناوب على التدريس باليعقوبية إلاّ عيون العلماء من أمثال أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني، أول المدرسين بها.الذي كان يعتبر من كبار علماء تلمسان، وعبد الله بن محمد بن أحمد الشريف وغيرهما، ولعل مؤسسها نفسه هو أوضح صورة لعلمائها. فقد كان أديبًا وشاعرًا ومثقفًا ترك آثارًا فكرية جديرة بالدراسة مثل كتاب واسطة السلوك.

وبالرغم من التداخل الوثيق بين المدارس والمساجد، فإنه يمكن القول، بأن المدرسة اليعقوبية ساهمت في تكوين وإعداد عدد من الأطر. من علماء وقضاة وخطباء ومدرسين، كان لهم الأثر الواضح في الحياة الفكرية، وقاموا بنشر اللغة العربية وتعميم الثقافة الإسلامية، وتثبيت المذهب المالكي بالمغرب الأوسط. وقد لعبت أسرة العقباني دورًا بارزًا في تنشيط وتنمية الحياة الثقافية من خلال مشاركة علمائها الأجلاء في التدريس ومن الأساتذة العلماء الذين درسوا الفقه بمدارس المغرب الإسلامي، خلال القرن التاسع الهجري، أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي[56] (حامل لواء المذهب المالكي) على رأس المائة التاسعة، أخذ عن شيوخ تلمسان المعروفين مثل الإمام أبي الفضل قاسم العقباني وولده القاضي العالم أبي سالم العقباني... ومحمد بن العباس، وأبي عبد الله الجلاب، والعالم ابن مرزوق الكفيف والمري وغيرهم.

وتعرض الونشريسي لمضايقة السلطان الزيّاني في سنة 874 هـ فانتهبت داره وفرّ إلى فاس فأقام بها، وهناك، "أكب على تدريس المدوّنة وفرعي ابن الحاجب..." ورغم مشاركته في فنون العلم، إلاّ أنه لازم تدريس الفقه الذي يقول فيه : "من لا يعرفه أنه لا يعرف غيره"[57].

وتخرج عليه جماعة من فطاحل الفقهاء كالفقيه ابن عباد ابن مليح اللمطي قرأ عليه ابن الحاجب، والشيخ أبي زكرياء السوسي، والفقيه ابن عبد الجبار الورتدغيري.

واعتمد الونشريسي في جمع مادة كتابه (المعيار) فيما يخص فتاوى إفريقيا وتلمسان على "نوازل المازوني والبرزلي".

ومن تآليفه الخالدة نذكر (المعيار المعرب) في ستة أسفار "جمع فأوعى وحصل فوعى"[58].

وتعليق على ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار. وكتاب القواعد في الفقه صغير، وكتابه المسمّى (الفائق في أحكام الوثائق).

وبجانب الونشريسي نجد أسماء كثيرة لأساتذة وعلماء تعاطوا التدريس بالمساجد والمدارس، وأدوا خدمة كبيرة في مجال التعليم والتآليف، بما اكتسبوه من خبرة وتجربة.

ومن خلال لائحة العلماء والطلبة، يتبيّن، بأن الوظيفة التعليمية لليعقوبية،ة لم تتوقف منذ تأسيسها في بداية النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وإن أصابها بعد الفتور النسبي في بعض المراحل بفعل التحولات التي عرفتها البلاد، والتي أثرت بشكل واضح على الحياة الفكرية بوجه عام، ولاشك أن إهمال أوقاف المدرسة إن لم نقل ضياعها تمامًا، كما هو الشأن بالنسبة لسائر مدارس تلمسان، قد جمّد العلم والمعرفة، ومن ثم جعل المدارس عرضة للتصدع والاندثار كما هو الشأن بالنسبة لمدرستي أولاد الإمام واليعقوبية. وقد سبق أن ذكرنا ما قاله الآبلي، أحد كبار علماء القرن الثامن الهجري" إنما أفسد العلم كثرة التآليف وأذهبه بنيان المدارس"[59]، ويشرح المقري ما أوجزه شيخه فيقول : "وذلك، أن التآليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم فكان الرجل ينفق فيها مالاً كثيرًا وقد يحصل له من العلم نزر يسير، لأن غايته على قدر مشقته في طلبه، وثم يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن فلا يقنع منه أكثر من موقع عوضه فلم يزل الأمر كذلك حتى نسى الأول بالآخر وأفضى الأمر إلى ما يستخرج منه الساخر...

وأما البناء، فلأنه يجذب الطلبة لما فيه من مرتب الجرايات فيقبل بهم على ما يعينه أهل الرئاسة للإجراء والإقرار منهم أو من يرضى لنفسه دخوله في حكمهم ويصرفهم عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك وإن دعوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم"[60].

ويستطرد، المقري معلقً عما آلت إليه التبعية التعليمية التي ترتبت على المدارس المرينية وغيرها مدارس المغربين الأوسط والأدنى "... فلقد أدّى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن الغريبة التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان كفاس

وغيرها حتى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة أصلاً، فضلاً عن غيرها، بل من لم يفتح كتابًا للقراءة قط... وسبب ذلك أنها صارت بالتوارث والرئاسات"[61].

وواضح أن هذا الوصف في العمق إذ أنه إدانة صريحة للخطة "المدرسية" الرامية إلى تدجين التعليم وإخضاعه لإدارة الحكام، ونفس الوصف يعكس من جهة أخرى غيرة واضحة على المهنة وحرمتها وعلى مستوى التعليم بالمغرب"[62].

وخلاصة القول، أن المشروع العلمي الذي حرص بنو زيّان على بلورته وإنجازه منذ عهد أبي حمو موسى الأول، والمتمثل في إنشاء المدارس وتخصيصها بالأوقاف ودعم وتنظيم الدراسة، يتطلب دراسة مفصلة لمعرفة مضامينه وأبعاده. ومن الطبيعي، أن مشروعًا رسميًا من هذا القبيل، كان يفترض منه أن ينهض بالمناهج التربوية وتطوير الإنتاج الفكري، ولكن يبدو أن هذا النوع من التعليم الرّسمي، لا يتجاوز، تكوين الأطر الموالية للدولة، إضافة إلى تثبيت هيمنة المذهب المالكي، والنتيجة المتوقعة لم تحدث نهضة حقيقية في المجال الفكري، إذ لم تعرف مرحلة ما بعد إنشاء المدارس الزيّانية والمرينية تحولاً في الإنتاج الثقافي.

4. تمويل المدارس وأوقافها :

عندما نتناول موضوع الأحباس، لا بد من التمييز بادىء ذي بدء بين نوعين من الأوقاف (الأحباس) عامة وخاصة، وقصد المحبس فيهما مختلف تمامًا، لأن الحبس الخاص، غالبا ما يكون وسيلة لحماية وحفظ الأملاك من سطوة الغاصبين أو لحرمان الإناث من الإرث، في حين أن الوقف العام لم يشمل جميع الأملاك والمرافق الموجهة لخدمة بعض القطاعات الدينية، أو لقطاعات التعليمية والاجتماعية وهذا الصنف من الأوقاف يساهم فيه الأفراد والحكام على السواء.

وإذا حاولنا التعرّف عليه بشكل مباشر، نجد أن عناية المحبسين (الموقوفين) قد انصرفت أصلاً إلى توفير مداخيل تساعد في تسيير المساجد والمدارس والزوايا وخدمات أخرى.

ومن دراسة كتب النوازل، نلاحظ أن الأوقاف المخصصة للمساجد كانت مؤلفة في معظم الأحيان من ثلث التركات[63] ومن الأراضي[64] والدور[65]، والدكاكين[66] والأفران وأشجار الزيتون[67]، والحمامات وأفران الآجر والطواحين[68]، أو بكراء أراضي للفلاحين، وقبض غلاّتها لتوزيعها على العاملين في المساجد والمدارس والطلبة. وشراء كل ما يحتاج إليه المسجد من ضروريات كالأفرشة وزيت الإنارة وغيرها من حصر أموال للترميم والإصلاح، فضلا عن أجور العاملين بالمساجد من إمام ومؤذن ووقاد ومحافظ خزانة وكنّاس وحارس إذا كانوا من جملة منافع المسجد[69]. وفضلا عن الأحباس التي استفاد منها المسلمون في أمور العبادة والجهاد هناك أحباس صرفت في وجوه أخرى، مثل الصدقة على المساكين بشكل دائم خلال شهر رمضان أو بتخصيص أموال تصرف على المؤسسات الاستشافية.

والواقع أن مصدر الأحباس الزيّانية، كانت تعتمد على أحباس الأفراد وأحباس الحكام أو سلاطين الدولة الذين حبسوا جزءًا معتبرًا من أملاكهم على المساجد والمدارس[70] والزوايا[71]. خصوصًا بعد انتشار تيار التصوّف، وظهور زوايا كثيرة بالقرى والأرياف[72].

ومن الأبواب المعروفة في صرف الأحباس بالغرب الإسلامي، الحياة التعليمية والعلمية بشكل عام. ولا شك أن الزيّانيين قد أعطوا مثالاً واضحًا عن العناية الفائقة التي أولتها الدولة الزيّانية لهذا القطاع، لا زالت تشهد بها إلى اليوم اللوحات الحبسية المعلقة ببعض المساجد والمدارس بتلمسان[73]. وهكذا فما من مدرسة أنشئت بتلمسان إلاّ وحبست عليها الأحباس، وحدّدت لها مداخيل الصرف، ودوّنت شروط صرفها والمبالغ المحدّدة لها الخاصة بالإصلاح والعناية بالمؤسسة نفسها

من جميع الأوجه حتى تؤدي رسالتها على أحسن ما يرام، فقد ثبت أن الوكلاء على أراضي الأحباس – لا سيما في المرحلة الأخيرة من تاريخ الدولة الزيّانية كانوا يأخذون من موقوفاتها بدون حق، وأن الناس تحايلوا لامتلاك بعض ما حبس فعلاً، ولذلك لجأت السلطة إلى تكليف ناظر الأحباس بكراء الأراضي للمزارعين، قصد توزيع غلاّتها على المدرسين والطلبة في المدارس والمساجد. والإنفاق على كل ما تحتاجه هذه المؤسسات من أفرشة وإنارة.

وكان للتدهور والتردي الذي عرفته السلطة الزيّانية أثر كبير على مستقبل الأحباس فغيّرت مسيرتها، وحادت عن وظيفتها الصحيحة التي وجدت من أجلها أساساً.

كما يشمل النص التأسيسي لجامع سيدي الحلوي لوحة حبسية تحوي قائمة بأسماء الدكاكين الموقوفة.

وكانت الأحكام الفقهية صارمة، بحيث لا تسمح بتحويل أرض الأحباس عما وضعت له، وليس لأحد أن يستفيد من أموالها، وقد كان فقهاء الدولة الزيّانية صارمين في تطبيق الأحكام الحبسية.

ومما يؤسف له أن أحباس المدرسة التاشفنية[74] على عهد أبي العباس أحمد العاقل (834-866 هـ)(1430-1461 م) ؛ اندثرت واختفت، وانعكست سلبا على توقف المدرسة في تأدية رسالتها[75] العلمية كما كانت في سالف عهدها، وهو ما لاحظه التنسي في معرض حديثه عن السلطان أبي العباس أحمد العاقل قائلاً : "... فوجد كثيرًا من ريع الأحباس قد اندثر والوظائف التي بها قد انقطعت، فأحيا رسمها أو جرّد ما دثر وأجرى الوظائف على أزيد ما كانت عليه قبل"[76].

ولا شك، أن انهيار الدولة ضعف سلاطينها، خصوصًا في مرحلتها الأخيرة، قد أدّيا إلى تسيب الأحباس، وغياب المراقبة الصارمة في الإشراف على الأملاك والعقارات المحبَسَة، وهذه الوضعية السيئة التي آلت إليها الأحباس الزيّانية، لفتت

نظر الكثير من العلماء والفقهاء الذين ساءهم مصيرها، فعلقوا عليها منتقدين ضعف الإدارة المشرفة عليها، ومن هؤلاء العلماء نذكر العبدوسي الذي لاحظ الظاهرة وعلق عليها قائلاً : "... ما ضاع كثير من الأحباس إلا بالإهمال"، مفسرًا ذلك بعدم الالتزام بالأحكام الشرعية، كالمحاسبة مثلا، والتي يحدّد شروطها فيما يلي : "المحاسبة أن يجلس الناظر (أي ناظر الأحباس) والقابض والشهود وتنسخ الحوالة الهامة أول رجوع الناظر إلى آخر المحاسبة، وتقابل وتصحح وترفع على مشاهرة ومشابهة أو كراء أو صيف أو خريف، وجمع مستفيدات الأحباس حتى يصير ذلك نقطة واحدة ثم تقسّم على المواضيع"(77).

وإذا كانت هذه هي حال الأوقاف في أواخر الدولة الزيّانية، كما صوّرتها لنا كتب النوازل المعاصرة، فما هي وضعية المدرسة، كمؤسسة، في المجال التعليمي والتربوي ؟ ذلك ما سنراه ممثّلاً في المدرسة اليعقوبية التي تمثل عصر الازدهار الثقافي والاقتصادي والاستقرار السياسي في ضوء ما توفره لنا المصادر من معطيات وبيانات وأخبار...

حواشي

1. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص17.
2. من الدراسات التي عالجت موضوع المدرسة بالمغرب الإسلامي:

Brosslard Ch., Inscription Arabes de Tlemcen. R.A. 1858-1862.
Bel A., Inscriptions Arabes de Fes, Extrait du Journal Asiatique, 1917-1919
Terrasse (ch), Medersas du Maroc. Ed. Abert Morance, Paris, 1927.
G., L'architecture Musulmane d'occident - Tunise - Algerie- Maroc, Espagne,
Marçais
Sicile, Arts et matier graphique, Paris, 1954.

– عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس – المجلد الثاني - بيروت 1973.

– محمد قبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط – دار توبقال للنشر – الدار البيضاء 1987.

Golvin L., La Maderasa medievale, EDISUD, Aix Provence, 1995.

3. المدارس النظامية، أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك، لتكون مؤسسة علمية لتدريس العلوم الإسلامية والمذهب الشافعي خاصة، وكانت أول مدرسة أنشأها ببغداد هي المدرسة النظامية سنة 457 هـ. وبدأت تمارس وظيفتها سنة 459 هـ.
4. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ط، دار صادر، بيروت 1964، ص 205.
5. نفسه، ص 256.
6. الحاج موسى عوني، "المدرسة المصباحية بفاس، ملاحظات حول إشعاعها العلمي ومميزاتها المعمارية"، المصنفة الفخرية للعالم مصطفى زبيس، المعهد الوطني للتراث، تونس (د.ت) ص 2.
7. الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954، ص 6-7.

8. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط، الرباط 1999، ص 286.

9. ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن (تح، د.ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع)، الجزائر 1981، ص 405.

10. التجاني، الرحلة، تونس 1958 م، ص 251.

11. نفسه، ص 252، وانظر كذلك :

Bruschvig R., La Berberie orientale sous les Hafsides, vol. 2, Paris,1974, pp. 290-291

12. محمد القبلي، قضية المدارس المرينية... ص 51.

13. الحاج موسى عوني، المدرسة المصباحية... ص 2–3

14. أنظر طه الوالي، "التعليم عند المسلمين" – مجلة الفكر العربي – عدد – 20 القاهرة 1981، ص 19.

15. الآية 169 من سورة الأعراف.

16. الآية 105 من سورة الأنعام.

17. الونشريسي، المعيار، ج1، ص 365.

18. د. أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها ج2، ص 121.

19. أنظر :

Bel A., Inscriptions Arabes de Fes…, p. 106 et 282.
Aouni L.M., Etude des Inscriptions meriniedes de Fes.
Aix Marseille. 1- 1991, T.I, p. 33 et 161.

20. عبد الهادي التازي، جامع القرويين... ج1، ص 120.

21. وردت هذه العبارة في لوحة تحبيس المدرسة المصباحية ومدرسة أبي عنان بفاس.

22. يحي ابن خلدون، بغية الروّاد ج2، ص 136.

23. ابن مرزوق، المسند الصحيح... ص 405.

24. ابن قنفد القسنطيني، أنيس الفقير وعز الحقير، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965، ص 49.

25. زيادة عن انمدرسة، اختط لهما مسجداً أو منزلين لاقامتهما.

26. التنسي، تاريخ بني زيّان، ص 139.

27. ابن مريم، البستان، ص 126.

28. أنظر :

Marçais.G, Remarques sur les medersas Funéraires en Berbéres à propos de la Tâchfiniya de Tlemcene (Melaqes Gaudfroy demombynes – Inst- France – Le Caire,1937. P204.

29. Marçais.G, Op.cit..P.263.

30. ابن إبراهيم، البستان، ص 126.

31. Barges J.J.L., Complement..., p. 66.

32. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 246.

33. نقلا عن نيل الابتهاج، ص 245.

34. نقلا عن نيل الابنتهاج، ص 248.

35. نفسه، ص 573.

36. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 573، وانظر أعلام الجزائر، ص 85.

37. التنسي، نفح الطيب ج5، ص 223-224 وانظر:

Golvin L., La medrasa médivale, ouvrage publie avic le concoursdu centre nationale de Livre – Aix-provence, 1995, pp. 199-202.

38. التنسي، تاريخ بني زيّان، ص.141

39. المقري، نفح الطيب، ج5، ص 223-224، شيدت المدرسة من حيث تصميمها على أساس محورين رئيسيين، محور شمالي شرقي - جنوبي غربي، ومحور ششمالي غربي - شمالي شرقي. يخترق محراب المصلى، يدخل إلى صحنها من بابين كبيرين، أما الصحن فمستطيل نحيط به أروقة من جهاته الأربع، وهناك غرف للطلبة بالرواقين الشمالي الشرقي والجنوب الغربي، كما تشتمل المدرسة على مئذنة.

أنظر:

Marçais – G. Madrasa funéraire en Berbarie, a propos de tachfiniya de Telmcen.in (melanges gaude froy demombynes) le caire, 1935-1945, pp 270- 278.

40. أنظر :

DUTHOIT, Rapport sur une mission scientifique en Algerie.
Archives des mission scinentifiques – 1873, 3e serie, T.1, P325.

41. التنسي، نفس المصدر، ص 248-249.

42. يحي ابن خلدون، بغية الروّاد ج1، ص 127.
43. هي المدرسة التاشفينية بنيت بجوار مسجد سيدي بلحسن، وأقيمت البلدية على أنقاضها - أنظر التنسي، ص 139.
44. الدرر الكامنة... ج1، ورقة 156.
45. بغية الروّاد، ج1، 75.
46. الملحق 1.
47. التعريف بابن خلدون، ص 61-62.
48. يحي ابن خلدون، بغية الروّاد ج1، ص 73-74.
49. نفح الطيب ج7، ص 129-261 أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 420-427.
50. تاريخ بني زيّان، ص 141.
51. نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ص 288.
52. بغية الروّاد ج2، ص 136.
53. مجهول، زهرة البستان، مخطوط - مكتبة ريلاندز بمنشستر بانجلترا رقم 283.
54. زهر البستان ورقة 84.
55. أنظر الملحق رق 2.
56. ابن مريم، البستان، ص 53-54 ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 81.
57. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 135-136.
58. نفسه، ص 135.
59. المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (نشر إحسان عباس) دار صادر، بيروت،(د.ت) ج5، ص 275 وأنظر أيضا في نفس الموضوع أحمد بابا التنبكتي في نيل الانتهاج بتطريز الديباج (تقديم عبد الحميد عبد الله الهرّامة) دار الكتاب - طرابلس - الغرب، 2000 م، ص 414.
60. نفح الطيب، ج5، ص 275 نيل الابتهاج، ص 414.
61. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 414.
62. محمد القبلي، "قضية المدارس المرينية، ملاحظات وتأويلات ضمن كتاب : في النهضة والتراكم – المعرفة التاريخية – دار توبقال للنشر – الدار البيضاء، ص 60.
63. المغيلي أحمد بن يحي، الدرر المكنونة في نوازل مازونة – مخطوط المكتبة الوطنية رقم 1324 ومخطوط الرياط رقم د 883، ص 127.

64. نفس المؤلف والمخطوط 1312 – الوزان، وصف إفريقيا ج1، ص 178.

65. الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب – ج7، ص 78 – ج9، ص 406.

66. نفسه ج7، ص 54.

67. ابن رشد، فتاوي ابن رشد (تحقيق – المختار التليلي) دار الغرب الإسلامي 1987، ص 592.

68. الونشريسي، المعيار ج 8، 235 – ج7، ص 64-104.

69. أنظر :

Bel.A, Inscriptions Arabes de Fés (Table des Habous de la Mosquée lalla ghriba à Fés Jadid) Journal Asiatigue, N° 10 - 1907, P.120.

70. يحي ابن خلدون، بغية الروّاد. ج1، ص 217-218.

71. التنسي، نظم الدر والعقيان في شرف بني زيّان (تح – محمود بوعياد) الجزائر 1985، ص 219.

72. الونشريسي، المعيار، ج7، ص 47-48.

73. أنظر اللوحات :

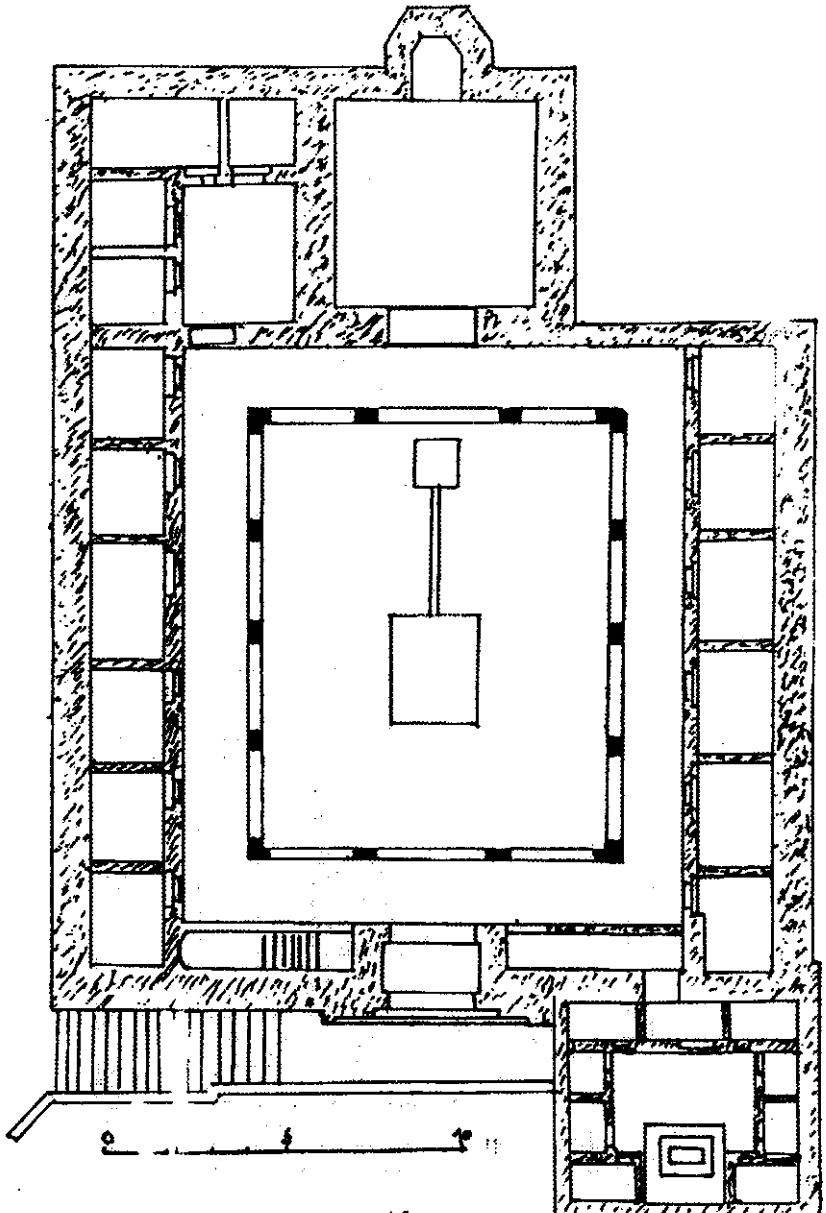
Brosslard (ch). Les Inscription Arabes de Tlemcen. In. R.A N° 18.PP.410 - 411.

74. أنشأها السلطان أبو تاشفين الأول الزيّاني.

75. التنسي، ص 248-249.

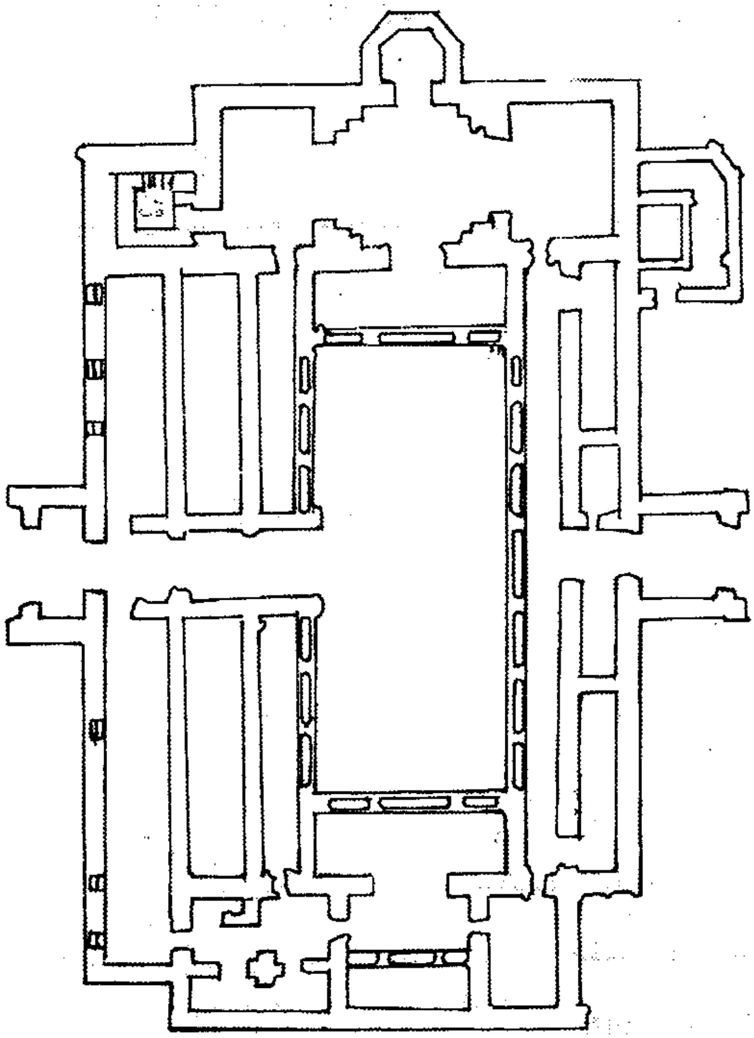
76. التنسي، تاريخ بني زيّان، ص 331.

77. المازوني، المصدر السابق ج 2، ورقة 160.



شكل 1

مخطط المدرسة التاشفينية



شكل 2

مخطط مدرسة العبّاد

الفصل السادس

مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد المريني

(732-759هـ/1331-1357م)

- تمهيـد.

1. مدرسة العبّاد.

أ. تاريخ بناء المدرسة.

ب. التصميم العام للمدرسة.

جـ. سكنى الطلبة.

1. مدرسة سيدي الحلوي.

أ.د. صالح بن قربة

مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد المريني
(732-759 هـ/ 1331-1357 م)

تمهيـد :

ليس المراد من هذا العنوان، أن نعرض لتفاصيل الصراع الزيّاني - المريني بكل خلفياته وأبعاده ونتائجه، فذلك موضوع آخر لا يندرج ضمن هذه الدراسة التي سنسلط الأضواء فيها على المؤسسات العلمية والدينية – التي بناها سلاطين الدولة المرينية بمدينة تلمسان الزيّانية خلال فترة سيطرتهم على المغرب الأوسط - لإبراز دورها ومساهمتها في الحياة الفكرية، انطلاقا من المادة المصدرية والنوازلية والأثرية، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وسنحتكم في دراستها إلى نفس المنهج الذي تعاملنا به عند مناقشة موضوع "المدارس الزيّانية."

استولى السلطان المريني أبو الحسن علي على مدينة تلمسان سنة 737 هـ/ 1337 م[1] وأحسن إلى سكانها وعفا عنهم[2]، ولم يعاملهم معاملة سيئة، بل اعتبر مدينتهم واحدة من مدن دولته العديدة مثل فاس وسلاو ومراكش وغيرها - ولكي يبرهن على سياسته ومشروعه السلمي، أن اتخذ من مدينة المنصورة مقرًا له ثم اتبعها بتدشين مشروعه العمراني الضخم الذي شمل جامع ومدرسة وضريح وقصر ومساكن، واختار له موضعًا استراتيجيا يقع خارج أسوار مدينة تلمسان جنوب شرق قرية العبّاد.

ولما استولى خلفه أبو عنان فارس المتوكل على الله للمرة الثانية عامة 753 هـ/1353 م دشن هو الآخر مشروعه العمراني والمعماري ببناء منشأة معمارية

أخرى، لا تقل أهمية من حيث نوعية مبانيها، عن سابقتها. وقد اختار لها موضعًا مناسبًا يتناسب وهذا الحدث المعماري الكبير، فكان هذا المكان هو ربض سيدي الحلوي وذلك عام 754 هـ/1354 م(3).

ويدل حسن اختيارهما لهذين الموضعين عن فطنة وذكاء وتبصر بالتاريخ وتقديرهما المتواضع للأولياء والعلماء، وهكذا جاء مشروعهما المعماري لتخليد ذكرى عالمين متصوفين مشهورين ذاع صيتهما كامل بلاد المغرب الإسلامي. وهذان الوليان الصالحان هما : أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري دفين تلمسان (ت 594 هـ/1197 م).

وأبو عبد الله الشوذي الأشبيلي الشهير بالحلوي دفين تلمسان (ت 737هـ/1337 م)(4) وصادفت وفاته سقوط تلمسان في يد المرينيين وقد اضطر المرينيون إلى معاودة فتح المدينة أيام حكم السلطان عبد العزيز سنة 772 هـ/1371 م وخلال عهد أبي العباس أحمد سنة 791 هـ/1389 م.

أما فيما يتعلق بالمنجزات المعمارية التي مازالت آثار بغضها ماثلة للعيان حتى اليوم وللتعرف أكثر عليها فيما يلي بيان بأهم المدارس المرينية المشيدة بتلمسان :

1. مدرسة العبّاد : الشكل (2)

في قرية العبّاد المتواضعة قرّر السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني، إنشاء مدرسة بها سنة (747 هـ/1347 م) لتكون أول مركز علمي وثقافي، يساهم في الحركة الثقافية بمدينة تلمسان إلى جانب المدارس العلمية المعروفة آنذاك. ويبدو أن المدرسة الجديدة غلب عليها اسم العبّاد، فأصبحت منذ تاريخ إنشائها تعرف (بمدرسة العبّاد). كماى عرفت باسم مدرسة سيدي بومدين أيضا.

وقد أشار ابن مرزوق إلى هذا الحدث قائلا : "... وبالعبّاد ظاهر تلمسان وحذاء الجامع الذي قدمت ذكره، وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان..."(5).

وأطلق على المدرسة كذلك اسم "المدرسة الخلدونية" في فترة تالية، ولعل هذه التسمية التي ألصقت بها جاءت من تعلّم عبد الرحمن ابن خلدون بها[6]. وتحدث الحسن الوزان عنها فقال : "... وهناك أيضا مدرسة جميلة جدًا أسسها بعض ملوك بني مرين حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم"[7].

وهي تقع إلى الغرب من المسجد الجامع، يفصلهما عن بعضهما رواق معقود، وقد أكدت وثيقة التحبيس المنقوشة على لوحة رخاميّة مثبتة في بدن الدعامة الأولى على يسار بلاطة المحراب العمودية بالجامع الملاصق لها... اسم مؤسسها والأوقاف المحبسة عليهما نقرأ فيها ": الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك والمدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن..."[8].

أما النص التأسيسي، فقد كتب في شريط أعلى المدخل الرئيسي : "الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله ابن مولانا أبي سعيد عثمان ابن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعماية نفعهم الله به"[9].

– تاريخ بناء المدرسة :

إن تاريخ بناء المدرسة يؤكده النقش التأسيسي الذي يزيّن رقبة قبة قاعة الصلاة بالمدرسة نفسها، ويتألف من تسعة أبيات شعرية تتضمن ما يلي :

"الحمد لله ربا العالمين

1. الإســـلام أمير المسلمينـــا	بنانـي كي قيـم لدى دينـا
2. تفـوق النظـم بالنـوم الثمينـا	أبو الحسن الذي فيه المزايا
3. بما أجـرى به الأعمـال دينـا	إمـام لا يعبّر عنـه وصـف
4. أقر إلى الأنـام بهـا عيـونـا	سليل أبي سعيد ذي المعالي
5. فأعـلاه وأعطـاه يقينـــا	وقـد سمّـاه خالقـه عليـا

6. وإيمـانا يكون لـه معينـــا أبـان بالصالحات منه دينـا
7. خلـون من السنين وأربعينـا الشهر الربيع الثاني لسبـع
8. محولـه مقـاصـــده فنـونـا إلى سبع ميين فدام سعـد
9. علـى مرضـاتـه دائما معينا وكان له الإله على الاتصال

ولكن ما ذا يمكننا أن نستنتج من هذه الثروة الهائلة من الآيات القرآنية والعبارات الدينية والأبيات الشعرية ؟

مما لاشك فيه أن تلك النصوص المنقوشة التي تزخر بها مساجد ومدارس بني مرين بالمغرب الأوسط، وتحديداً بمدينة تلمسان الزيّانية؛ إنما تعبّر قبل كل شيء عن تديّن مؤسسيها وتمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف، وتعظيم العلم وأهله وإبراز أهمية هذه المؤسسات في التعليم وتكوين الأطر الدينية، ونشر العلم والثقافة الإسلامية تدريساً وتفسيراً ودراسة وتأليفاً. كما يمكن النظر إليها أيضا من زاوية إعلامية ودعائية على اعتبار أنها تمثل شكلاً من أشكال الدعاية لحكمهم. حتى يضفوا عليه صبغة شرعية، تنال رضا الناس.

وعلاوة على ما سبق، فإنه بمقدور أي شخص مهما كانت صفته أستاذاً أو طالباً بالمدرسة، أو وزيراً، يعمل لصالح السلطة المؤسسة. إلا أن يثني عليهم بالجميل.

وأخيراً نسجل أن أبا الحسن علي أوقف على المدرسة والجامع أملاكاً بالمدينة ولا تزال اللوحة الرخاميّة التي نقشت عليها الحوالة الحبسية (داخل بيت الصلاة بجامع سيدي بومدين) التي تحتوي على لائحة الممتلكات، مغروزة ببيت الصلاة، لم تحظ بدراسة علمية حتى اليوم. على الرغم من أهميتها كوثيقة غنية بالمعلومات والبيانات التي تهم الدارس والباحث معا.

وإذا كانت مدرسة العبّاد (مدرسة سيدي بومدين) هي أول مدرسة تعليمية جامعية أسست ملاصقة للجامع، فإن السلطان أبا عنان أنشأ هو الآخر مدرسة بجوار ضريح سيدي الحلوي سنتناولها بالدراسة في حينها.

والمعروف من سيرة أبي الحسن أنه كان يصحب معه أهل العلم أينما حلّ وارتحل، ويختصهم لمجالسته ومشاورتهم لهم في الأمور الشرعية، كما كان يختارهم ويستخلصهم لنفسه ويجمعهم من سائر البلاد ويجري عليهم الجرايات التي تكفيهم " فاجتمع بحضرته أعلام، ثم ضم لهم من كان بتلمسان وأحوازها حين استيلاءه عليها. .. ولم يزل على هذا إلى أن توفي رضي الله عنه"[10].

وفضلاً عن ذلك، كان يشجع علماء الفقه المالكي في أعمالهم واجتهاداتهم خدمة لهذا المذهب السني الذي كادت معالمه تزول مع الموحدين الذين آثروا المذهب التوحيدي التومرتي. ولكن بفضل هؤلاء السلاطين استعاد مجده وقوته.

وإذا كان هذا تصوير لمسيرة السلطان أبي الحسن المريني السياسية والعلمية وموقفه تجاه العلم والعلماء، فإن منشئ مدرسة سيدي الحلوي، السلطان أبي عنان فارس المتوكل على الله (749-759)، وهي أول مدرسة أنشأها السلطان المذكور بمدينة تلمسان بعد الثورة على أبيه لم يكن أقل حماسا وغيرة وتشجيعا.فقد " كان فقيها يناظر العلماء عارفًا بالفقه والأصول والحديث والتاريخ والعربية والحساب حافظًا للقرآن، عارفًا بناسخه ومنسوخه، كثير التمثل بآياته، عارفًا بالرجال، حسن الخط، حسن التوقيع"[11].

وذكر ابن بطوطة من جهته[12]، أن أبا عنان كان : "يعقد مجالس العمل في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم، وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلّم وفروع مذهب مالك".

وينهي ابن بطوطة وصفه لمجالس السلطان قائلا : "ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية"[13]. ويكفي أنا عنان فخرًا أنه عاش تحت رعاية والده الذي حرص على تربيته وتعليمه تعليمًا مفيدًا، فقد تتلمذ على أكبر علماء عصره أمثال الآبلي[14] أستاذ العلامة ابن خلدون في العلوم العقلية، والمقري

التلمساني القرشي، الذي قرأ عليه صحيح مسلم، وابن الصفار[15]، الذي قرأ عليه القرآن الكريم. ولعل هذه المناقب، وهذه الصفات التي كان يتمتع بها أبو عنان[16]، هي التي لفتت أنظار والده علي أن "يؤثره على سائر إخوته"[17]، ويعيّنه حاكمًا على المغرب الأوسط، لما توجه إلى إفريقية الحفصية برسم توحيد المغرب الإسلامي، كما فعل الموحدون من قبل. ولما تربع هذا السلطان على عرش بني مرين، سار على نهج أبيه في تعظيم الصلحاء والشرفاء والعلماء، وكذلك في بناء وتشييد المساجد والمدارس والزوايا والمستشفيات وغيرها. وكان نصيب المغرب الأوسط منها إنشاء المدرسة والجامع والضريح والزاوية، والمسماة جميعها باسم الولي الصالح سيدي الحلوي - كما سبق أن أشرنا - ومنذ عودته من تلمسان إلى مدينة فاس، بعد الثورة على أبيه سنة 749 هـ/1349 م، بدأ مشاريعه الكبرى خدمة للدين الإسلامي، و"كتب إلى جميع القضاة ببلاده أن يحملوا الناس على عمارة المساجد..."[18].

وفي عام 750 هـ/1350 م، أمر بإحداث خزانة الكتب شرق جامع القرويين بالقرب من المدارس الثلاث الملحقة بالجامع، كما أحدث خزانة المصاحف في قبلة صدر هذا الجامع، وزوّدها " بجملة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجميلة السنية، وأباحها لمن أراد القراءة فيها"[19].

وكانت مجهودات هذا السلطان في هذا الميدان الديني والعلمي، مكثفة من الأعوام الأولى لحكمه، وقبل أن يخلو له الأمر، علما بأن الصراع على السلطة بينه وبين أبيه امتد من سنة 749 هـ/1349 م إلى سنة 752 هـ/1352 م فهل كان القصد من هذه الأعمال والمشاريع، هو لفت الأنظار عما يجري في الجنوب بين أنصار أبي الحسن ومؤيدي أبي عنان ؟.

يبدو أن هناك شيئًا من هذا القبيل قد وقع فعلاً، ذلك أن المعارك بينه وبين والده في سجلماسة ومراكش[20]، سنة 751 هـ/1351 م لم تشغله عن الشروع في

بناء مدرسته العظمى (المتوكلية)[21]. التي تقول عنها الوقفية أنه "أسسها على تقوى من الله ورضوانه، المعدة لتدريس العلم وقراءة القرآن المفضلة بإقامة فرض الجمعة المخصوصة بالمرافق الشاملة والمحاسن المستبدعة[22].

بمعنى أنه أنشأ مؤسسة متكاملة لم يسبق لأحد من سلاطين بني مرين أن أنشأ مثلها.

وإذا كانت المدارس التي أنشأها سلاطين بني مرين شبيهة بالأربطة أو الزوايا، في هيكلها ومخططها لاحتوائها على صومعة وصحن تشرف عليه، بيوت الطلبة وقبة أو قاعة صغيرة تستعمل للتدريس والصلوات الخمس فقط.

وإذا كانت المدارس التي بناها أبو الحسن خالية من صومعة بمعنى أنها كانت عبارة عن مدرسة لا غير. فإن مدرسة خلفه أبي عنان تشبه مدارس الشرق الإسلامي، فهي عبارة عن مسجد جامع أقيمت في حرمه بيوت لسكنى الطلبة، والفرق بينها وبين مدارس الشرق، أن المتوكلية لا تحتوي على ضريح لمؤسسها أو أحد أقربائه[23].

ولهذا تعد هذه المدرسة أضخم مدارس فاس على الإطلاق إذ تتكون من مدرسة ومسجد وجامع.

وعلى الرغم من قدم مدرسة العبّاد، فهي ما تزال محتفظة بشكلها وهيكلها العام، وعناصر عمارتها الأولى. ومع ذلك فقد عرفت في فترة تالية في العهد العثماني بعض أعمال الإصلاح والترميم التي شملت قبتها ومحرابها[24]، كما يشير النقش الكتابي الذي يزين واجهة مدخله (أي المحراب).

بيد أن هذه المؤسسة الجامعة قد تعرضت خلال القرن التاسع عشر الميلادي لأعمال التخريب والهدم من قبل الفرنسيين والتي مست جدران المدرسة ونافورتها[25]، ومهما يكن من شيء، فإنه يمكن إعطاء صورة عن تخطيطها وتصميمها العام بصفة مختصرة. حتى يسهل فهم الدور التربوي والعلمي الذي لعبته في الحياة الفكرية بحضارة بني زيّان.

أ - التصميم العام للمدرسة :

صممت المدرسة فوق مسطح مرتفع عن مستوى أرضية الجامع الملاصق لها، ويصعد إليها بدرج من خمسة عشرة درجة يقود إلى ساحة فسيحة تتقدم المدرسة.

ومساحة المدرسة مستطيلة، يتوسطها صحن مكشوف تحف به بائكة من العقود من جهاته الأربع، كما يتوسطه حوض مستطيل أيضا مقاساته (2.60X3.20 م).

الرواقان الجانبيان، يفتح بكل منهما ثماني غرف صغيرة، أما الرواق الجنوبي للمدرسة فيتقدمه بيت الصلاة، وعن يسار قاعة الصلاة باب صغير يفتح على صحن صغير مقاساته (3.20X3.95 م) بأربع غرف وتقع على يمين قاعة الصلاة ساحة واسعة مربعة. بمعنى أن تصميمها العام لا يختلف عن تصميم المساجد الجامعة باستثناء الوظيفة التي أنشئت من أجلها.

ب - سكنى الطلبة :

ينتهي الرواقان الشرقي والغربي باتجاه الخارج، بمجموعة من الحجرات (غرف) بمعدل ست في كل رواق، أعدت لسكنى الطلبة، وتتكوّن من طابقين سفلي وعلوي. وهذه الحجرات مستطيلة (02X2.80 م) تطل على الرواق المحيط بالصحن بأبواب ضيقة معقودة بعقد متجاوز، كما يعلو أبواب الحجرات نافذة صغيرة فتحت للتهوية والإضاءة. وبناء على ما سبق، يمكن القول، بأن تصميم المدرسة جاء مزدوج المعالم فهي عبارة عن مسجد مدرسي، وعن جناح لسكنى الطلبة وما يتبعها من مرافق كبيوت الخلاء، والمكتبة وغيرها. ومن ثم فمدرسة العبّاد – أو مدرسة سيدي بومدين كما يطلق عليها هذا الاسم الذي غلب عليها لمجاورتها للمسجد الذي يحمل نفس الاسم – تمتاز بأنها مدرسة أنشأت أصلاً لتكون مركزًا لإقراء القرآن الكريم وتدريس العلم.وهذا المبدأ الديني نجده في كل المدارس التي أسسها بنو مرين في ربوع بلاد المغرب الإسلامي إحياء تقاليد المذهب المالكي وفروعه.

2. مدرسة سيدي الحلوي شكل (3) :

تعتبر مدرسة سيد الحلوي، ثاني مدرسة مرينية تؤسس في مدينة تلمسان الزيّانية، بناها السلطان أبو عنان فارس، الذي حذا حذو أبيه في هذا المجال، سنة 754 هـ/1353 م.

تقع المدرسة بجوار الضريح الذي يضم رفات الولي الصالح المتصوف أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بسيدي الحلوي[26]. وقد اختار لإنجاز مشروعه المعماري الكبير، الذي يتألف من المسجد والمدرسة والزاوية والضريح[27]. مكانًا منحدرًا عبارة عن حي سكني، تشرف عليه أسوار تلمسان الشمالية الشرقية التي يتوسطها باب الزاوية[28].

ولعل أجمل المباني جميعها المسجد الجامع الذي (... تتصل به الزاوية المنفسحة الأرجاء اللاّبسة حلل السنار والسناء المزدانة بالقبة التي يحسد ارتفاع سمكها السماك..."[29].

وقد أكد الحسن الوزان، وجود هذه المؤسسات في القرن العاشر الهجرة، بقوله[30] : "وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة... ولها أئمة وخطباء كما تحوي أيضا خمس مدارس بديعة حسنة البناء ومزدانة بالبلاط الملون وغيرها من الأعمال الفنية، شيد معظمها ملوك تلمسان، والبعض الآخر ملوك فاس".

كما ذكر (مارمول من جهته)[31]، أن تلمسان بها "عدة أساتذة في مختلف المدارس يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات.

ويبدو من إشارة ابن مريم أن المدرسة والزاوية ظلتا قائمتين حتى أوائل القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، حيث أورد في ترجمته للوالي (سيدي أحمد بن الحسن) الذي "بقي يحي الليل سنين كثيرة في جامع زاوية سيدي الحلوي رضي الله عنه، على من سمعت من كثير ممن أثق به ممن كان ساكنا بالزاوية... وقال لي أخي سيدي علي وقد كان ساكنا... في ابتداء أمره مدرسة الزاوية"[32].

ومما يؤسف له، أن هذه المنشأة المعمارية الهامة اندرست معالمها ولم يبق منها سوى الجامع والميضأة، الذي لا يزال محتفظًا بشكله وعمارته وزخارفه الرائعة.

أما فيما يتعلق بالسمات والمميزات المعمارية والفنية التي اشتملت عليها هذه المدارس زمن تأسيسها، فليس هنا أفضل من يعبّر عنها مثل ابن مرزوق الخطيب، الذي أعطانا وصفًا جميلاً لمدارس أبي الحسن المريني في العبارة التالية[33] : وكلها – أي المدارس – قد اشتمل على المباني العجيبة والصّنائع الغريبة والمصانع العديدة والاحتفال في البناء والنقش والجص والفرش على اختلاف أنواعه من الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش والمياه النميرة".

وجاء من بعده الحسن الوزان فأكّدَ نفس الظاهرة العمرانية الفنيّة بقوله[34] : "وفي فاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش بعضها مبلط بالرخام، وبعضها بالزخرف المايورقي وتحتوي كل مدرسة على عدة حجر...".

لكن فيما يتصل بهندستها فقد ذكر ابن مرزوق "أنها مختلفة الأوضاع بحسب البلدان[35]، ورغم هذه الاختلافات المتباينة، فهناك تصميم عام تشترك فيه مجموع المدارس المرينية، وقد لاحظ هذه الظاهرة المعمارية (جورج مارسيه Marçais) فعلق عليها بقوله[36] : إن أوصاف المدرسة المغربية شبيهة بأوصاف الرباطات، فأول ما يواجه الداخل للمدرسة هو صحنها الذي يختلف من حيث السعة والضيق حسب مساحة المدرسة – ويتصدر الصحن، في اتجاه القبلة، التي هي بمثابة مكان للصلاة وقاعة لإلقاء الدروس.

وأمام القبة يتوسط الصحن بيلة رخامية للوضوء بمائها. وفي كل مدرسة يحف بالصحن من ثلاث جهات – غير جهة المصلى – حجرات معدة لسكنى الطلبة تتكوّن من طابقين : سفلي وعلوي[37].

وهكذا أصبح بناء المدارس يتحدّد بأبعاد وتكوينات لأداء الوظيفة التي أنشئت من أجلها وهي الوظيفة التربوية والتعليمية وحتى تؤدي هذه المؤسسات العلمية الدور المنوط بها، زوّدوها بالمرافق الضرورية من خزانة للكتب، وبيوت لسكنى الطلبة، وفرض جرايات لهم وللمدرسين، ولاشك أن فكرة تأسيس المدارس الجامعة في المغرب الإسلامي، على يد سلاطين بني مرين لم تكن جديدة في تاريخ المغرب، بل سبقهم إلى ذلك، خلفاء الموحدين وسلاطين بني حفص في تونس. لذلك استهدف المرينيون من بناء المدارس عامة محاربة المذهب الموحدي وإحياء المذهب المالكي الذي فقد مشروعيته ونشاط فقهائه، ينضاف إلى ذلك نزوح عدد كبير من أهل الأندلس المالكيين[38] إلى المغرب. بعد سقوط بعض المدن مثل قرطبة واشبيلية ومرسية وغيرها من المراكز المذهبية المجاورة[39].

غير أن مدارس بني مرين، تميّزت عن سابقتها في المجالات الفنية والتنظيمية وكذلك في الدور الفكري الذي لعبته في تنشيط الحركة الفكرية في المغرب بشكل عام[40]. ويبدو أن المرينيين قد تأثروا بما كان سائدًا في المشرق الإسلامي ومغربه. من إنشاء المدارس على يد السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والحفصيين، وأنه لابد من التقرب من الفقهاء والطلبة ورجال العلم عامة، لأن توطيد أركان الدولة لاياتي بالقوة العسكرية وحدها فحسب، بل لابد من الاعتماد على ركيزة دينية فكرية وعلمية، وعلى الذين يمثلونها، وذلك بأن تؤسس لهم مدارس رسمية فيكون أساتذة هذه المدارس وطلبتها مرتبطين ارتباطا وثيقا بالسلطان الذي عينهم في تلك المؤسسة وأغدق عليهم هدايا ورواتب شهرية قارة يتوصلون بها[41].

وحتى وثائق التحبيس، تعطي دلالات واضحة في هذا السياق وتحدّد الهدف من إنشاء المدارس المرينية بصفة عامة.

ومن الأمثلة على ذلك، وثيقة التحبيس المحبسة على مدرسة المدينة البيضاء (فاس الجديد)[42]، التي تضمنت ما يلي :

"الحمد لله رب العالمين رافع درجات العالمين ومجزل ثواب العاملين المحي بالمدارس ما درس من معلم العلم والدين... وبعد فهذا ما أمر بتخطيطه وإنشائه دفعًا وردعًا لأيدي المعتدين مولانا الخليفة الإمام... أبو سعيد نوّر الله ثراه... على إقراء القرآن العظيم وتدريس العلم بمدرسته المباركة..."(43).

ويفهم من منطوق الوقفية، أن الهدف من إنشاء هذه المدرسة هو الرغبة في الحصول على الثواب،لأن مؤسسة المدرسة، هي بمثابة (صدقة جارية) ينتفع من ثوابها منشؤها بعد وفاته(44).

على أساس أن المدرسة مؤسسة دينية وعلمية يتلى فيها كتاب الله وتدرس فيها علوم الدين والدنيا، كما تشير إليها عبارة "المحي بالمدارس ما درس من معلم العلم والدين"، بمعنى أن من عوامل بناء المدرسة النهوض بالحركة العلمية التي عرفت فتورًا، على إثر الاضطرابات التي تلت سقوط الموحدين وقيام الدولة المرينية. ذلك الركود كاد يعم العالم الإسلامي كله، عقب سقوط الخلافة العباسية التي حكمت أزيد من خمسة قرون (132-656 هـ / 750-1250 م).

والمعروف أن العالم الإسلامي، كان يضم حواضر علمية مزدهرة، مثل بغداد وبخارى وسمرقند ونيسابور والري وحلب ودمشق والموصل والقاهرة لعبت دورًا مهما في دفع النهضة الفكرية والعلمية بالمشرق، وبالمقابل كان بالمغرب والأندلس مراكز ثقافية مثل القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وفاس وسبته ومراكش وقرطبة واشبيلية وغرناطة.

غير أن هذه الحواضر تعرضت لنكسة في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي. ففي الشرق سقطت القواعد العلمية من جراء الغزو المغولي. وعرف المغرب بقايا الحروب الصليبية التي ما زالت في بدايتها متجهة نحو مصر ثم تونس فيما بعد.

وقد أعطانا ابن الأثير وصفًا دقيقًا لأبعاد هذه الكارثة وأثرها على مستقبل الإسلام والمسلين كما يستشف من عباراته التالية التي يقول فيها(45) : "ولقد بلي

الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبل بها أحد من الأمم منها : التتر الذين أقبلوا من الشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها... ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر. ومنها أن الذي أسلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على سابق".

وكانت من آثار هذه الكارثة، ذهاب العديد من العلماء والمراكز العلمية وخزائن الكتب، وفي الأندلس ازداد الضغط المسيحي، وأخذت المراكز الإسلامية تسقط الواحدة تلو الأخرى، مما اضطر رجال العلم والفن والأدب أن يغادروها إلى مناطق مختلفة، من بلاد المغرب الإسلامي، مثل سبته وفاس وتطوان وتلمسان وتونس وغيرها(46).

أما المغرب الإسلامي، فقد شهد بدوره نكسة في الميدان الفكري نتيجة تصدع خلافة الموحدين، وقيام دويلات متصارعة على أنقاضها. وقد أدى ذلك بطبيعة الحال، إلى تراجع الحركة الفكرية المزدهرة التي عرفها المغرب زمن الموحدين، بسبب الاضطرابات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تلت سقوط الموحدين.

وقد صوّر لنا – هذه الاضطرابات السياسية وانعدام الأمن الذي عم البلاد – العبدري في رحلته التي يصف فيها أحوال البلاد في العبارة التالية(47) : "... إن المسافر عندما يخرج من مدينة فاس ولا يزال إلى الإسكندرية في خوف ظلماء وحبط عشواء، لا يأمن على ماله ولا علة نفسه...".

ويستطرد العبدري قائلا(48) : وأما العلم فقد درس أصله في أكثر البلاد".

وهكذا فإنه برغم ما أصاب المغرب من جراء تلك الأحداث، فقد استطاع المرينيون أن يحافظوا على التراث الإسلامي، والنهوض بالحركة العلمية قدمًا إلى الأمام بفضل ما بذلوه من جهود في جميع الميادين، لعل أهمها طبعًا إنشاء المدارس العلمية لصالح طلبة العلم، فضلاً عن إلحاق خزائن الكتب بها، إلى جانب رعاية العلم وأهله بكل الوسائل الممكنة، وهو ما كشفت عنه وثيقة التحبيس السالفة

الذكر، والتي جاء فيها "... فهذا ما أمر بتخطيطه وإنشائه... أبو سعيد نوّر الله ثراه... على إقراء القرآن وتدريس العلم بمدرسته المباركة".

ويقول ابن أبي زرع عن أبي سعيد عثمان سنة 720 هـ/1320 م[49] : "أمر أمير المسلمين أبو سعيد أيد الله ببناء مدرسة بحضرته فاس الجديد، فبينت أتقن بناء، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤونة في كل شهر حبّس عليها الرباع والمجاشر كل ذلك ابتغاء وجه الله ورجاء مغفرته. " وتضيف وثيقة التحبيس على هذه المدرسة العبارات التالية : "وكمل بناء المدرسة المباركة وبدئ بالإقراء فيها وسكناها في ذي قعدة عام واحد وعشرين وسبعمائة"[50].

انطلاقا من النصين السابقين يمكن تحديد الهدف من إنشاء المدرسة في منظور المرينيين وهو :

1. إقراء القرآن العظيم.
2. تدريس العلم للطلبة الذين تتكفل المدرسة بإيوائهم والإنفاق عليهم من مال الأوقاف.

ولكن ما ذا تعني عبارة "إقراء القرآن العظيم وتدريس العلم". ولا شك أنها تشير إلى أن هذه المدرسة تقوم بتدريس اختصاصين مختلفين، الاختصاص الأول يشمل الطلبة الذين يتابعون دراستهم في علوم القرآن مثل القراءات السبعة وتجويد القرآن.

أما الاختصاص الثاني وهو تدريس العلوم الدينية المرتبطة بمذهب الإمام مالك ذلك، لأن المقصود بكلمة "العلم" التي وردت في وثيقة التحبيس معناها كما تشرحه المصادر الرسمية المرينية – علوم المذهب المالكي، فقد جاء عند ابن مرزوق الخطيب في مسنده، أنها العلوم الشرعية المرتبطة بمذهب إمام دار الهجرة[51]. وقال أيضا عن السلطان أبي الحسن أنه كان إذا : "انقطعت صلاة المغرب وفطره

حليب غالبا، ... لقراءة العلم فيقرأ بين يديه ما يتخيّره للقراءة فتارة الموطأ وتارة ابن الحاجب، وتارة التهذيب"[52].

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى ملاحظة مهمة تستوجب الوقوف عندها وهي أن مسألة (تدريس علوم القرآن) ليست جديدة في منظومة التعليم بالمغرب، وأن المرينيين لم يكونوا السباقين إليها، فقد سبقهم الموحدون في تدريسها، ولكن خالفوهم في مسألة المذهب فقط[53].

فقد عرف عن الموحدين استحداثهم لطبقة من الحفاظ هم (حفظة القرآن الكريم وهم صغر الطلبة)، والطلبة في معاهدهم ومدارسهم للاستغناء عن الأطر المالكية الذين تمسكوا بالمذهب المالكي، وذهبوا في مشروعهم (المدرسي) أبعد من ذلك، فقد حاول الخليفة يعقوب المنصور (580-595 هـ/1184-1199 م)، الذي يمثل عصر الازدهار القضاء على الفقه المالكي وفروعه كما يتجلّى ذلك من كلام عبد الواحد المراكشي الذي يقول فيه ": وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب. .. ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد...[54].

وهكذا وعلى الرغم من سياسة التعسف التي انتهجها الموحدون في القضاء على معالم المذهب المالكي واضطهاد رجاله، فإنه سرعان ما استعاد اعتباره وقوته من جديد، إمام المرينيين الذين جعلوه مذهبًا رسميًا لدولتهم، ومن ثم عملوا على توطيد أركانه، ومما سهل مهمتهم ما امتاز به المذهب من بساطة واعتدال، ورغم بروز تيارات عقدية وسياسية كادت تعرقل مسيرته، إلا أنها لم تصمد أمامه ولم تقدر على منافسته أو منازعته في الميدان بعد أن تمكن من نفوس المغاربة.

والحديث عن هذا الموضوع، يجرنا إلى مناقشة موقف المرينيين من هذا المذهب وسِرِّ اهتمامهم الشديد به، فهل هناك من أسباب منطقية تكشف عن سياسية التقرب والاحتماء بالمذهب المالكي ؟

من المعروف تاريخيًا، أن بني مرين لم يكونوا أصحاب طريقة دينية، أو أصحاب اتجاه جديد في الفقه والعقيدة، أو أصحاب دعوة إصلاحية دينية، لتركيز سلطتهم ولتبرير موقفهم للاستيلاء على الحكم ولهذا قاموا بعدة إجراءات – كنا قد لمحنا إليها - فقد جربوا حظهم مع المتصوفة محاولين استغلال نفوذهم لاستقطاب الجماهير الشعبية المختلفة – لكن يبدو أن أغلبية المتصوفة رفضوا التعاون معهم(55). ولهذا اتجهوا إلى بناء مدارس سنيّة لفقهاء المالكية لكسب النفوذ المعنوي والروحي في هذا الميدان، الذي كان يعتبر من العوامل الحساسة لتدعيم أسس الدولة(56).

لأن هذه المدارس ستكون أطر فقهية تتبنى المذهب المالكي، وتشغل الفراغ الديني الذي تركه الموحدون، حيث اختفت معظم الأطر الموحدية، ورفضت التعاون مع الحكام الجدد، يتبين ذلك من فرار الشرفاء الطاهريين الذين التجأوا إلى قصبة تاوريت، لما استولى يعقوب بن عبد الحق على مراكش " وأجلى الموحدين وشيعتهم عنها"(57).

ويمكن إدراج هذا العامل ضمن العوامل الرئيسية التي أدت إلى إنشاء المدارس في المغرب الإسلامي عامة. فقد ظهرت المدرسة في إفريقية الحفصية حوالي 647 هـ/1249 م. وفي المغرب الأقصى سنة 679 هـ/1280 م أو في المغرب الأوسط سنة 710 هـ/1310 م، وفي الأندلس 670 هـ/1350 م(58).

وبعد هذا كله ألا يحق لنا أن نتساءل، ألم يكن تأسيس المدارس المرينية شبيه بما قام به الموحدون من قبل، عندما أسسوا معاهد لتكوين طبقة من الحفاظ والطلبة لتولي مناصب الدولة والدفاع عن المذهب الموحدي ؟

وهكذا فقد دشن المرينيون مشروعهم الجديد هذا بتأسيس أول مدرسة للطلاب على يد القاضي أبي أمية الدلائي بتفويض من أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق،وكان إنشاؤها بقبلة جامع القرويين قريبا منه. ويبدو أنها لم تكن تحمل اسما

معينا في بداية الأمر، كما يفهم من عبارة ابن أبي زرع[59]. التي تضمّنت أن يعقوب بن عبد الحق أمر "ببناء المدرسة لطلبة العلم..."، بيد أن وثيقة التحبيس[60] وكذا الفهارس المعروفة مثل فهرس أحمد المنجور[61]، تسميها بمدرسة الحلفاويين ولعل سبب هذه التسمية يرجع إلى ظروف تاريخية، فقد أشار الأستاذ عبد الحي الكتاني[62]، إلى أنه كان بهذه (الحومة) قبل بناء هذه المدرسة مسجد يعرف بجامع الحلفاويين، نزل به الولي الصالح أبو زيد الهزميري المراكشي لما رجع من محلة السلطان أبي يعقوب المريني، وهو محاصر لتلمسان، وقد يكون هذا المحل هو الذي بنيت فيه المدرسة المذكورة، وقد يرجع سبب التسمية كذلك، إلى كون الشيخ أبي عبد الله الحلفاوي (ت 758هـ/1357 م). تلميذ الشيخ الزّيات، وشيخ أبى الحسن اللجائي وغيره كان يأوي إليها فسميت باسمه[63].

وإلى جانب هذه المدرسة، أنشأ يعقوب بن عبد الحق مدرسة أخرى بمدينة مكناسة سنة 679 هـ، أي في نفس التاريخ الذي أنشئت فيه المدرسة المذكورة[64].

وبعد هاتين المدرسيتين، يتوقف المشروع "المدرسي" المريني، زهاء نصف قرن من الزمن، إلى غاية سنة 720 هـ/1320 م، لتبدأ الحلقة الثانية من حلقات المسلسل التعليمي السني على عهد خامس سلاطين الدولة المرينية[65].

وقد فسّر هذا التأخير الملحوظ بالنسبة للحكام الجدد، بأن الأوضاع السياسية والاجتماعية لم تكن قارة، وأنها لم تخل من عقبات واضطرابات ولذلك، كان الهدف من استعراض الخلفيات التي سبقت فكرة إنشاء المدارس المرينية بالمغربين الأقصى والأوسط، هو إعطاء صورة بسيطة تساعد القارئ على فهم الدور الفكري الذي لعبته تلك المؤسسات في النهوض بالحركة العلمية والثقافية بالمغرب الأوسط، إلى جانب تكوين الأطر المتخصصة في الفقه المالكي.

والمجال هذا لا يتسع لمناقشة تفاصيل هذا الموضوع الشائك المتشعب الجوانب، لأن ذلك يستوجب منا القيام بدراسة شاملة لاستِفائه، ومن ثم سوف

نقتصر على ذكر أسماء المشاهير من العلماء والأدباء الذين درسوا بهاتين المدرستين المذكورتين، وساهموا في تكوين الكثير من طلبة العلم في مختلف التخصصات الدينية والدنيوية في الفقه وأصوله والحديث، والتفسير والرياضيات والفرائض والحساب وعلوم القرآن إلخ...

وفيما يلي جدولاً بيانيًا بأسماء العلماء الذين عاصروا السلطانين المرينيين، أبي الحسن وأبي عنان وتعاطوا تدريس العلوم بمدارس تلمسان وفاس وغيرهما من حواضر المغرب ومراكزه العلمية وكان البعض منهم قد شغل مناصب عليا في الدولة.

جـدول رقم 2

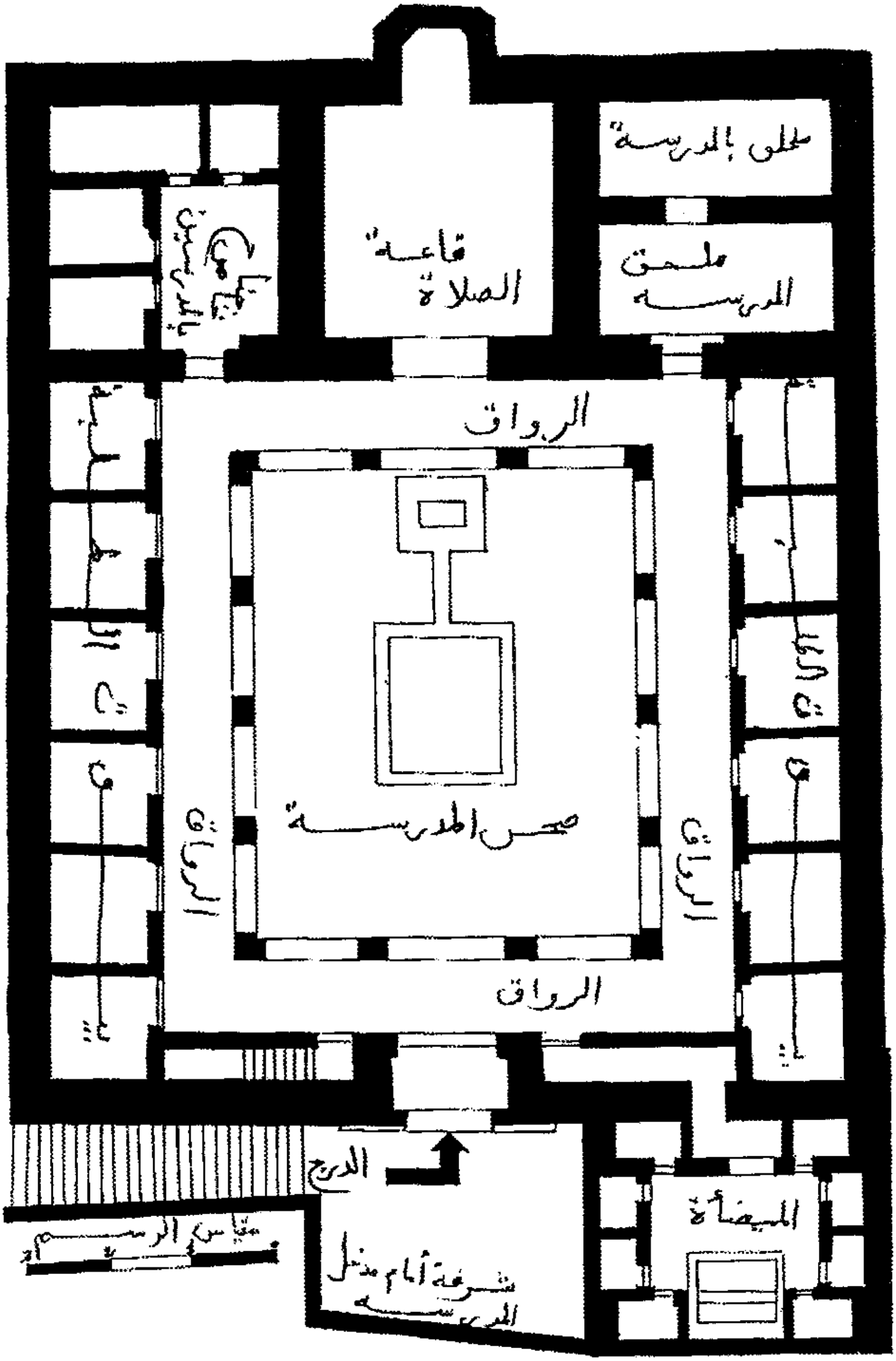
يبين أسماء العلماء والأدباء بمدارس تلمسان

أسمـــاء العلمـــاء	تاريـخ الوفـــاة	صفتـه وألقـابه العلميـة	آثـــاره وأفكـاره	المـــراجـــع
أبو زيد عبد الرحمن بن الإمام محمد بن عبد الله بن الإمام البرشكي.	741هـ/1341م	فقيها – شيخ المالكية – العلامة النظار – انضم إلى مجلس أبي الحسن سنة 737/ هـ1337م	شارح على ابن الحاجب في الفروع	- تعريف الخلف ج 201-212/1 - الأعلام ج 3, ص 331. - نيل الابتهاج، ص 245-248 - بغية الروّاد ج 1، ص 71-72
				- ابن مرزوق - المسند، ص 265
أبو موسى عمران بن موسى المشدالي البجائي.	745هـ /1345م	فقيها مالكا – من أكبر فقهاء تلمسان – محقق.	مقالة في اتخاذ الركاب من خالص الفضة.	- بغية الرواد ج1، ص 72 - المقدمة ج3، ص 1211 - نفح الطيب ج5، ص 223 - نيل الابتهاج، ص 350-352
أبو موسى عيسى بن الإمام، أخو أبي زيد المذكور.	749هـ/1349م	فقيه مالكي – انضم إلى مجلس أبي الحسن المريني (مثل أخيه)	؟ ؟	- تعريف الخلف ج1، ص 20 - نيل الابتهاج، ص 291
أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور التلمساني.	749هـ /1349م	قاضي – تولى القضاء بتلمسان وفاس،وكان عارفا باللغة وكان مقربا من السلاطين	؟ ؟	- المسند الصحيح، ص 27

أبو العباس أحمد بن الحسين بن سعيد المديوني	769هـ /1369م أو 768هـ/1368م	فقيه – استعمله أبو الحسن المريني في الزكاة. وقاضي تلمسان على عهد أبي عنان	؟ ؟	- نيل الابتهاج، ص 105
محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر القرشي التلمساني – شهر بالمقري	759هـ /1347م	قاضي – فقيه ومحقق.	- الحقائق والرقائق في التصوف المحاضرات. عمل من طلب لمن حب القواعد	- جذوة الاقتباس ج1، ص 298 - الإحاطة ج2، ص 191-226 - سلوة الأنفاس ج7، ص 271 - تعريف الخلف ج2 ، ص 493 - نيل الابتهاج، ص 420-427 نفح الطيب ج7، ص 129
أبو عبد الله الشريف التلمساني	771هـ/1370م	من كبار علماء تلمسان مارس التعليم بتلمسان وفاس.	المنهل	- التعريف بن خلدون، ص 536
أبو العباس أحمد بن علي الخطيب الشهير بابن قنفد القسنطني.	809هـ /1049م	أستاذاً وقاضياً. تولى القضاء ببجاية وقسنطية ومراكش	أنس الفقي وعز الحقير	
سعيد بن محمد العقباني	811هـ /1409م	أستاذاً وقاضياً وفقيهاً تولى القضاء ببجاية ومراكش وسلا ووهران وتلمسان.	- شرح الحوفية وتفسير سورتي الأنعام والفتح. - شرح البردة – شرح ابن الحاجب الأصلي.	- الديباج المذهب، ص 124 - شجرة النور الزكية ج1، 250 - تعريف الخلف ج2 ، ص 236 - الأعلام ج3، ص 161 - نيل الابتهاج، ص 189-190

جدول 3 (مدارس المغرب الأقصى)

اسم المدرسة	أستاذها وشيخها	مستواه وألقابه العلمية	المصدر
مدرسة العطارين	ابن البناء أبو العباس أحمد بن عثمان (ت723 هـ/1323م).	فقيها وفلكيا ورياضيا وطبيبا، ألف أكثر من 100 كتاب في مختلف العلوم.	- جذوة الاقتباس، ص 148-152
مدرسة الصهريج	إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي. (ت747 هـ/1347م).	عالماً – وسفير إلى أمير غرناطة في عهد أبي الحسن المريني.	- جذوة الاقتباس، ص 85-86 - الدِّيباج المذهب، ص 99
مدرسة فاس الجديدة	أبو العباس أحمد بن قاسم الجذامي المعروف بالقباب. (ت778هـ/1377م).	من كبار علماء فاس - يحضر مجالس أبي عنان.	فهرسة السراج – مخطوط بخزانة العامة - الرباط، ص 116
المدرسة المتوكلية	محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني. (ت 864هـ/1460م).	كان فقيها مالكيا - أول من أدخل مختصر خليل لمدينة فاس سنة (805هـ/1403م).	- فهرسة السراج، ص 116 - جذوة الاقتباس، ص 424
المدرسة المصباحية	أبو العباس أحمد بن عمر المزجلدي	من كبار علماء المالكية بفاس.	- جذوة الاقتباس، ص 173
مدرسة الحلفاويين	محمد بن علي بن أملال الميدوني	كان فقيها مفتيا وإماماً وشيخا بمدنية فاس.	- نيل الابتهاج ج، ص 292-293 - سلوة الأنفاس ج1 ، ص 336



شكل (2)

تلمسان : مخطط مدرسة العباد

حواشي

1. أنظر:

Marçai.G., et W, *Les monuments arabes de Tlemcen*, Paris, 1903, pp. 223-224

2. شجرة النور الزكية، ص 161 – أبن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 531 – سلوة الأنفاس ج1، 364.
– التشوف 316 - أنس الفقير ص 102-103، عنوان الدراية ص 28 - نيل الابتهام ص 193-197.

3. Brosslard Ch., les, inscriptions arabes de Tlemcen (R.A), 1959.P1. 17.

4. يحي ابن خلدون، بغية الروّاد ج1، ص 127-128 ابن مريم، البستان، ص 68-69.

5. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص 406.

6. أنظر Marçai.G., et W, *Les monuments arabes de Tlemcen*, p. 274.

7. الحسن الوزّان، وصف إفريقيا ج2، ص 24.

Brosslard Ch., Les inscriptions arabes, pp.401-410

8. رشيد بوروبية، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية (ترجمة إبراهيم شبوح) – الجزائر 1979، ص 83.

9. Brosslard Ch., Les inscriptions arabes de Tlemcen. (R.A. n°18), pp.108 -190

10. ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص 220.

11. ابن الأحمر وآخرون، بيوتات فاس الكبرى، ص 64.

12. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تحقيق د. على المنتصر الكتاني) ج2، ص 820.

13. تحفة النظار... ص 761.

14. ابن مريم، البستان، ص 214، ابن خلدون، كتاب العبر ج7، 814-815.

15. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 427، ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص 64.

16. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص

17. السلاوي، الاستقصاء ج3، ص 180.

18. ابن الحاج النميري، فيض العباب... ص 11.
19. الجزنائي، زهرة الآس، ص 76.
20. ابن خلدون، العبر ج7، ص 379.
21. لمليح السعيد، المرجع السابق، ص 143-144.
22. أنظر مضمون الوقفية في
Bel -A., Inscriptions arabes de Fes, (J.A), t. XI, 1918, pp. 363-364.
23. لمليح السعيد، المرجع السابق، ص 145.
24. Marçais G.,W., Les monuments arabes..., p. 278
25. Barges J.J-L, Tlemcen Ancienne Capitale..., p. 310.
26. ابن الحاج النميري، فيض العباب... ص 279، ابن خلدون، بغية الروّاد ج1، ص 127-128 ابن مريم، البستان، ص 68-70.
27. Marçais G., L'architecture Musulmane..., p. 278.
28. Marçais G.,W., Les Monuments..., p. 285.
29. ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص 279.
30. وصف إفريقيا ج2 ، ص 390.
31. مارمول، إفريقيا، (ترجمة محمد حجي وآخرون)، دار النشر المعرفة 1989، ص 300.
32. البستان، ص 33.
33. ابن مرزوق، المسند الصحيح... ص 303.
34. الحسن الوزان، وصف إفريقيا ج1، ص 225.
35. ابن مرزوق، نفس المصدر السابق، ص 406.
36. الفن الإسلامي (ترجمو عفيف لهنسي) ط. دمشق 1968، ص 212.
37. نفسه، ص 212-213.
38. لعب الأندلسيون دورًا مهما في بعث المذهب المالكي وانتشاره بدليل، أن أول من سن سنة بناء المدارس السنية المالكية بمدينة فاس هو (المفضل أبو أمية الدلائي الأندلسي الأصل)، الذي كان يشغل منصب القاضي والمحتسب في دولة يعقوب ابن عبد الحق المريني - أنظر القاضي، جذوة الاقتباس، ص 339.
39. محمد القبلي، قضية المدارس المرينية، ص 53-55.
40. لمليح السعيد، المدارس المرينية، ص 99-100.

41. نفس المؤلف والكتاب، ص 102.

42. تعتبر مدرسة المدينة البيضاء، ثاني مدرسة أسست بمدينة فاس.

43. من نص وصورة الوقفية راجع :

Bel A, Inscriptions arabes de Fes, (1917) t. VI, pp. 158-160.

44. ابن مرزوق، المسند الصحيح... ص 407.

45. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج12، ص 138.

46. استفادت بلاد المغرب الإسلامي من هذه الهجرة - هجرة العلماء - التي أدت إلى ازدهار الحياة الفكرية والعلمية لا سيما على عهد الزّيانيين والمرينيين في تلمسان وفاس.

47. رحلة العبدري، ص 4.

48. رحلة العبدري، ص 11.

49. الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 411-412.

50. أنظر: Bel A., Inscriptions arabes de Fes, pp. 152-153.

51. ابن مرزوق، المسند... ص 138.

52. نفسه، ص 138.

53. لمليح السعيد، المدارس المرينية، ص 104.

54. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار العرب، ص 278.

55. لمليح السعيد، المرجع السابق، ص 106.

56. نفســه، ص 106.

57. ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص 15-17.

58. لمليح السعيد، المرجع السابق، ص 106.

59. الذخيرة السنية، ص 162.

60. حوالة أحباس المدارس القديمة فاس، الخزينة العامة، الرباط رقم (48 مخطوط) ص 23.

61. فهرس أحمد المنجور (تحقيق محمد حجي) دار المغرب للتأليف الترجمة، الرباط 1975، ص 62-63.

62. عبد الحي الكتاني، ماضي القرويين وحاضرها (محفوظ) ص 49-50.

63. لمليح السعيد، مرجع سابق، 107.

64. ابن غازي، الروض الهتوف، الرباط 1964، ص 35.

65. محمد القبلي، قضية المدارس المرينية... ص 56.

ثبت بمصادر ومراجع البحث

1. المصادر :

1. ابن أبي زرع (ت 726 هـ /1325 م)

– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس – دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط 1973 و ط 2 تحقيق عبد الوهاب منصور – الرباط 1999 م.

2. ابن الأثير : – الكامل في التاريخ. ج 12ط

3. ابن الأحمر وآخرون : – بيوتات فاس الكبرى.

4. ابن الحاج العبدري الفاسي : – المدخل (نشر دار الفكر – ط – 2 القاهرة 4 – أجزاء 1977 – م).

5. ابن الحاج النميري : – فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب. (إعداد ودراسة محمد بن شقرون) الرباط 1984 م.

6. إبن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي).

– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. (تحقيق وتقديم علي المنتصر الكتاني) ط 4 مؤسسة الرسالة جزآن. بيروت 1985.

7. إبن جبيرات : – رحلة ابن جبير، ط. دار صادر. بيروت 1964 م.

8. ابن حجر : – نثير فوائد الجمان في نظم فحول الزمان.

9. ابن خلدون (عبد الرحمن) ت 808 هـ (1406 م).

– كتاب العبر والديوان المبتدأ والخبر في أنباء العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزآن 6 و- 7 ط - دار الكتاب اللبناني 1983 م.

– مقدمة ابن خلدون (تحقيق علي عبد الواحد وافي) 4 أجزاء - ط. لجنة البيان العربي. القاهرة 1966 م.

– التعريف بابن خلدون.

10. ابن خلدون (يحي) ت 78 هـ/
– بغية الرّواد في ذكر ملوك بني الواد (تحقيق عبد الحميد حاجيات (780 هـ).
– الجزء الأول - الجزائر 1980 م.
– الجزء الثاني - (نشر الفريد بل) الجزائر 1915 م.
11. ابن مرزق (محمد) (ت 781 هـ /1379 م).
– المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن (دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا) – الجزائر 1981 م.
12. ابن مريم التلمساني:
– البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان - نشر ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1986.
13. ابن قنفد القسنطيني : (ت 809 هـ/1375 م).
– انيس الفقير وعز الحقير (نشر المركز الجامعي للبحث العلمي) الرباط 1965 م.
14. ابن رشد ( )
– فتاوي ابن رشد (تحقيق المختار التليلي) دار الغرب الإسلامي 1987 م.
15. ابن غازي : – فهرست ابن غازي الروض الهتون.
16. ابن سهل : – الإعلام بنوازل الأحكام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1728 م.
17. أبو جمعة المغراوي : – الاختصار والبيان فيما يعرض للمعلمين وأنباء الصبيان (نشر رابح بونار،الجزائر 1974).
18. أحمد بابا التنبكتي (10 هـ) : – نيل الابتهاج بتطريز الديباج (تقديم وتنسيق د. عبد الله الهدّامة) ط. دار الكتاب طرابلس المغرب 2000 م.
19. التنسي (محمد عبد الله) ت.
– نظم الدرر والعقبان في بيان شرق بني زيّان ملوك تلمسان (تحقيق وتعليق محمود بوعيار) ط. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985 م.
20. الحاج موسى عوني : – المدرسة المصباحية بفاس، ملاحظات حول إشعاعها العلمي ومميزاتها المعمارية.
المصنفة الفخرية للعالم مصطفى نربيس – المعهد الوطني للتراث. تونس (ب.ت).
21. السراج (محمد بن أبي القاسم الحميدي) : – فهرست السراج. الخزانة العامة بالرباط رقم 26430.
22. العبدري : – الرحلة المغربية (تحقيق وتقديم محمد الفاسي) الرباط 1968 م.

23. المغيلي أحمد بن يحي : – الدرر المكونة في نوازل مازونة – مخطوط المكتبة الوطنية رقم 1324 – الرباط – د 833.

– محمول. زهرة البستان – مخطوط المكتبة (يلانندر بمنشيستر بانجلترا رقم 283).

24. المقـري (أحمد بن محمد التلمساني) (ت 1041 هـ).

– نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (تح : إحسان عباس) دار صادر بيروت 1968 م ج 5-9 ط 1988 م.

25. المنجور (أحمد بن علي بن عبد الله) ت 995 هـ/1557م.

– فهرست المنجور (تحقيق محمد حجي) دار المغرب للتأليف والترجمة – الرباط 1975 م.

26. الناصري السلاوي : – الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج 2 – دار الكتاب – الدار البيضاء 1954 م.

27. الـوزان الحسن (ت 9 هـ/)

– وصف إفريقيا (ترجمة محمد حجي ومحمد لخضر). دار الغرب الإسلامي.ط 2. 1983 م.

28. الونشريسي (أحمد أبو العباس 9 هـ) :

– المعيار المعرب والبيان المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. ط. وزارة الشؤون الدينية الرباط 1981 م ج 7 و8.

2. المراجـع :

1. التازي عبد الهادي : – جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، المجلد الثاني، بيروت 1973 م.

2. الحاج موسى عوني : – المدرسة المصباحية بفاس ملاحظات حول إشعاعها العلمي ومميزاتها المعمارية، المصنفة الفخرية للعالم مصطفى زبيس – المعهد الوطني للتراث تونس (ب.ت).

3. السعيد لمليح : – المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب.

– أطروحة دبلوم الدراسات العليا مرقونة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس 1988-1989 م.

4. القبلي محمد : – قضية المدارس المرينية، "ملاحظات وتأملات" مقال نشر ضمن كتاب في النهضة والتراكم، المعرفة التاريخية دار توبقا. (للنشر - الدار البيضاء 1995 م).

5. الكتاني عبد الحي : . – ماضي القرويين وحاضرها (مخطوط).

6. المنوني محمد : – ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين (منشورات كلية الآداب) الرباط 1979.

7. بن قربة صالح : – مقدمة لدراسة الكتابات الأثرية المغربية في العهد الإسلامي - مجلة الدراسات الأثرية معهد الآثار، عدد 2، الجزائر 1993 م.
8. بورويبة رشيد : – الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية (ترجمة إبراهيم شبوح) ط. الجزائر 1979 م.
9. حاجيات عبد الحميد : – أبو حمو موسى الزيّاني، حياته وآثاره. ط. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974 م.
10. زهدي يكن : – الوقف في الشريعة والقانون، ط.دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1971 م.
11. عبد المالك المراكشي : – الذيل والتكملة لكتابي الأصول والصلة (تحقيق محمد بن شريفة) ط.أكاديمية المملكة المغربية.
12. عبد الواحد المراكشي : – المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ط. القاهرة 1949 م).
13. محمد فتحة : – النوازل الفقهية والمجتمع،أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من 6 إلى 9 هـ/12–15م. منشورات كلية الآداب. الدار البيضاء 1999 م.
14. مارمول : – إفريقيا (ترجمة محمد حجي وآخرون) دار نشر المعرفة 1989 م.

15. **AOUNI L.M.,** Etude des inscriptions merinides de Fés Aix, Marseilles
16. **Bourouiba R.,** L'est religieux musulmane en Algérie, S.N.E.D, Alger, 1973.
17. **Bargas J.J.L.,** *Notice sur la Cathédrale d'aller en 1839,* J.A. 1848, pp. 181-188.
    - *Tlemcene, ancienne capitale du royaume de ce nom,* Paris.
18. **Bel A.,** inscriptions arabe de Fès (Extrait du journal Asiatique) T.X, 1917 – 1918.
19. **Brosslard Ch.,** *Les inscriptions Arabes de Tlemcen,* in (revue Afrique), 1856-1862.
20. **Dubhait,** «Rapport sue une mission scientifique en Algrerie». Archives des missions scientifique 1873. 3ème série. T.I. Médarsa.
21. **Golvin L.,** *La médierole.* Edisud. Aix.provence, 1995.
22. **Marcais G.,** *L'architecture musulmane d'occident (Tunisie-Algerie-Maroc-Espagne, siècle orthographiques).* Paris 1954. «Remarques sur les médersas tuméraines en Berberie à propos de la Tachfiniy a de Tlemcen».
23. **Marcais G. et W.,** *Les monuments arabes de Tlemcen,* Paris, 1905.
24. **Ferrasse Ch.,** *Médrasas du Maroc,* éd. Abert-Morance, Paris, 1927.

الفصل السابع

المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب

إعداد الدكتور خلف محمد نجيب

المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب

تمهيد :

بدأت الحملات الأولى الموجهة نحو بلاد المغرب من طرف الخلافة الإسلامية، بعدما تمكن المسلمون من السيطرة على الأوضاع في مصر[1]. لقد جاءت هذه الحملات على شكل غارات سريعة، وكان القصد منها أول الأمر معرفة المسالك والممالك وإجراء بعض التحالفات مع القبائل البربرية والتبشير بالدين الجديد.علما أن أبرز هذه الغارات هي التي قام بها معاوية بن حديج والتي كان من أهم نتائجها إنزال الهزيمة الأولى بالجيش البيزنطي وعلى رأسه البطريق قريقوار و ذلك سنة 647 م. لقد تمكن المسلمون في هذه المرحلة من معرفة البلاد ووضع إستراتجية طويلة المدى لتحكم فيها.

إن عقبة بن نافع هو من سيبدأ في تنفيذ هذه الإستراتيجية بجدية و حذق، فالمسلمين قبله عادة ما كانوا يرجعون بعد كل حملة إلى برقه محملين بالغنائم والأسرى، أو فارين أمام محافل البربر[2].

لقد تفطن هذا القائد الفذ الذي كانت له تجربة واسعة في شؤون المغرب، أنه لن يكون للإسلام مستقلا بهذه المنطقة دون الشروع في تنفيذ سياسة تعتمد أساسا على الاستقرار النهائي بالمنطقة[3]، و إنشاء مدينة القيروان التي أصبحت عاصمة الوسع الإسلامي الجديد، استمرت عملية الفتح مدة طويلة من الزمن واجه فيها المسلمون مقاومة عنيفة من طرف البربر. و ما كسيلة والكاهنة[4] إلا العناوين الكبرى لهذه المقاومة.

وبعد التيقن من أن دين الله هو الحق ودخول البربر أفواجا إلى الدين الجديد، ومساهمتهم الفعالة في استكمال فتح المغرب الأقصى و الأندلس وابتعاد ساحات الجهاد عن بلاد المغرب[5] الأوسط، ظهرت الحاجة في إعادة تنظيم البلاد التي أصبحت ولاية إسلامية كاملة الحقوق و الواجبات بعدما كانت أرض جهاد.

واجه خلفاء بني أمية أو بني العباس صعوبات جمة في التحكم في في بلاد االمغرب وتنظيمها تنظيما إداريا واقتصاديا. وعملوا على إجراء تغيرات أساسية[6] في اقتصاديتها التي كانت في أول الأمر مشلولة، إثر الحملات العديدة التي جاءت من االشرق لإدخال بلاد المغرب في إطار الدولة الإسلامية.

ورغم أسلمة هذه البلاد ومساهمة أهلها في فتح الأندلس و صقلية، إلا أن سكان المغرب الأوسط والأقصى سريعا ما خرجوا عن طاعة الخلافة، وثاروا عنها في ثورات تلونت بألوان مختلفة صفرية وإباضية الخ...

لقد تمكنت الدولتان الخارجيتان المتاخمتان لصحراء، من ربط علاقات سياسية واقتصادية بدول إفريقيا جنوب الصحراء. يشهد على ذلك نص ابن الفقيه الواصف للعلاقات التجارية بين المغرب[7] وإفريقيا جنوب الصحراء، ويظهر مدى تنظيم هذه االتجارة ومدى تحكم المغاربة في آليتها و تقنيتها. كما يوضح الإصطخري[8] الإهتمام المتزايد التي حضت به هذه التجارة من طرف االفاطميين، حيث عمدوا إلى السيطرة على تاهرت وسجلماسة لتحكم فيها. لقد بينت النصوص مدى الربح الكبير الذي يجنى من هذه التجارة[9].

أما ابن حوقل فإن أهميته لا تنحصر في الكم الهائل من المعلومات التي يقدمها عن بلاد االمغرب في ذلك القرن، والتي كانت معرفة متداولة في عهده عند شرائح الأمة االمهتمة بالأدب الجغرافي، إن أهمية ابن حوقل ترجع أولا وقبل كل شئ إلى ألمجهود االعقلي الكبير الذي بذله في التحليل والمقارنة ومحاولة التعمق في فهم أوجه الاختلاف الموجودة ما بين البلدان والأمنخة وعادات وتقاليد الشعوب،

فعمله يعد حقا عملا قيما وهاما من حيث كونه في ذاته محاولة فهم[10].

اعتمد هذا الجغرافي الكبير على منهج متميز، فعمل إلى تقسيم العالم إلى أقاليم، حدد لكل واحد منها خصائص، وقسم الأقاليم إلى مناطق، وصف مسالكها ومدنها وممالكها التي زارها بنفسه في أغلب الأحيان، والتي يرى منها من خلالها المناطق والأقاليم المجاورة لها.

إن الدارس لكتاب ابن حوقل يقف وقفة تقدير للمنهجية العلمية والدقة المتناهية في معالجة المواضيع المختلفة، لقد وضع هذا العالم لنفسه صراطا مستقيما اتبعه بجدية كبيرة في دراسته لبلاد المغرب.تظهر هذه الجدية بجلاء عندما يريد تحديد المنطقة التي يحب دراستها، وعند محاولة شرح الخرائط التي عادة ما تتبع نص كتابه، مقدما أهم خصائصها والخطوط العريضة المتعلقة بها، كالمسافات الموجودة بين مدنها والمنتوج الذي تشتهر به، محددا كل ذلك بالمقاسات كفرسخ و الميل، كما يقدم الجغرافي أيضا خراج بعض المدن ومجمل ضرائبها معتمدا في ذلك على تقارير الإدارة المالية لذلك الزمن.

لا شك إن نص ابن حوقل يهتم كثيرا ببلاد المغرب، ويقدم دراسة حول هذا الإقليم تمتاز بالعلمية والعقلانية، وتظهر بوضوح مجهود الإنسان المغربي الكبير في إطاره الزماني والمكاني المحدد.

إن دراسة الأدب الجغرافي الإسلامي مهمة جدا لمعرفة أحوال المغرب الأوسط في االقرون الوسطي. ولتمكن من تتبع الأحداث التاريخية والحضارية من خلال المصادر الجغرافية. كما يجب على الباحث أن يحدد مدى تأثير المصادر الجغرافية، ومدى تأثير الأحوال الاقتصادية والسياسية والدينية، في الواقع اليومي المعاش الذي عادة ما يكون التربة المنبتة للتاريخ.

إن مواقف الشعوب المختلفة، أو الطبقات الاجتماعية المكونة لشعب من الشعوب، قد تختلف من الحدث التاريخي، تأييدا ومعارضه، فالكثير من القبائل

المغربية حالفت صاحب الحمار أبي يزيد كيداد، والكثير من أهل المدن وقفوا ضده. كما أن جهات من المغرب الأوسط بأكملها أصبحت شيعية، ومناطق أخرى ظلت على مر العهود سنية هكذا دواليك. لذا يجب علينا كباحثين أن نقف أمام النص الجغرافي موقفا حذرا وأن نقوم بغربلته، بطرح العديد من التساؤلات، التي قد تمكننا إذا ما وجدت لها الأجوبة المناسبة، من تحديد موقف كل شريحة من شرائح المجتمع من الحدث التاريخي أومن النص الجغرافي. كما يمكننا إذا ما اتبعنا هذا المنهج من معرفة الشريحة أو الطبقة التي كتب لها النص أي التي يعنيها[11].

وتحديد الشريحة الاجتماعية التي ينتسب إليها كاتب النص.إننا كمؤرخين مغاربة عادة ما نقف من النصوص المشرقية موقف تمحيض و تحليل، وهذا عادة ما يساعدنا على تفهم البيئه التي وضع فيها النص، إن موقفنا هذا لا يشوبه تعصب ولا يشكك في كون حضارتنا حضارة أصيلة ساهم المشرق الإسلامي في تكوينها على مر العصور.

لقد اهتم الكثير من الجغرافيين المشارقة ببلاد المغرب و صفا ودراسة، و يظهر من دراسة الكتب التي حوت أوصافا للمغرب الأوسط في إطار دراسة شاملة للعالم الإسلامي، إن هذه المنطقة من الأرض، لم تحض بعناية كبيرة ولا بالاهتمام الكافي في الأدب الجغرافي لتلك الحقبة. وإنما درست دراسة المقاطعة البعيدة التي تعتبر من تخوم بلاد الإسلام.

لقد اهتم ببلاد المغرب العديد من الجغرافيين المسلمين، زارها بعضهم زيارات لم تكن شاملة، واكتفوا في غالب الأحيان بالسير وراء القوافل على المسالك الكبرى التي تمر عليها تجارة المغرب في ذلك الحين[12]. و تركوا المناطق الداخلية الجبلية والصحراوية خارجة عن نطاق استكشافهم. ولم يقدموا حولها أوصافا. بل إن العديد من المهتمين بميدان الجغرافية، إنما كتبوا مصنفاتهم اعتمادا على المصادر

التي سبقتهم، ومما استقوه من معلومات عن أهل البلاد أو من شهادات بعض المغاربة الذين زاروا بلاد المشرق لدراسة أو للحج أو التجارة. أو ممن زار بلاد المغرب من مشارقة لسياحة أو التجارة أو الجهاد.

إتسمت أوصاف هؤلاء الجغرافيين لبلاد المغرب الأوسط،في كثير من الأحيان ببعض من التحامل على أهله،وربما رجع إلى المقاومة الطويلة التي أبداها السكان أمام الفتح الإسلامي "عقبة-كسيلة" "حسان-الكاهنة"[13] الثورات الخارجية، صاحب الحمار، الخ ذلك.

إن النص الجغرافي الذي قمنا بدراسته، سواء أكان نصا ارتبط ارتباطا وثيقا بالخلافة العباسية كما هو الحال بالنسبة لنص ابن حوقل، أو بالخلافة الفاطمية كما هو الحال بالنسبة للمقدسي نصا مهمًا. علمًا أن الأولى كما هو معروف كانت تتصدر مساحة شاسعة، امتدت لتشمل وسعا كبيرا من العالم القديم حوى[14]. الجزء الجنوبي من الأمبراطوية البيزنطية والمجال الهلينيستي. اتسمت الدولة العباسية بحضاراتها العريقة التي كانت يحدها من الشرق نهر الهندوس ومن الغرب المحيط الأطلسي. بتشجيع كبيرا لحياة التمدن و العمران كما كان اقتصادها نشطا، إعتمد إعتمادا كبيرا على المداخل الكبيرة للتجارة الدولية، لقد شجع الوضع الاقتصادي الجيد النشاط العمراني فأنشئت العديد من المدن الكبيرة من العدم، وأستكمل تعمير الكثير من المراكز الحضرية القديمة كما فتحت مسالك كثيرة وأمنت البلاد.

إننا مازلنا إلى يومنا هذا نجهل الكثير عن تجارة المغرب الأوسط في عهد الجغرافيين موضوع الدراسة، لا نعرف الشيء الكثير عن السلع التي تستوردها هذه المنطقة، عن كمياتها، نوعيتها، قيمتها التجارية ومدى استعمالها[15] عن أهم المدن المستفيدة من هذه التجارة، ومدى استفادة القبائل منها الخ.كانت تجارة المغرب الأوسط مع كافة أنحاء المغرب والعالم الإسلامي وأوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء

نشيطة، فالنصوص الجغرافية وحتى النصوص الأدبية تعكس ذلك، وتظهر أن بلاد المغرب الأوسط كانت بلاد إنتاج كبير للمنتوجات زراعية ومصنعة، و إن جزء وافر من هذا السلع كان معدا للتصدير[16]. كما أن النصوص الجغرافية المدروسة تظهر أن بلاد المغرب عامة كانت سوقا نشيطة، وأن مدن المغرب الأوسط قد ساهمت مساهمة كبيرة في تشجيع هذه التجارة، كونها مراكز إنتاج كبيرة وتجمعات تقطنها أعدادا هائلة من المستهلكين سواء أكانوا من الطبقة المتوسطة الكثيرة العدد أو من طبقة الأثرياء، لقد اشتهرت مدن المغرب الأوسط بكثرة حرافييها ألحذاق، الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تثمين المواد الخام التي كان إنتاجها في الريف وفيرا[17]، كما أن النصوص الجغرافية تبرز خاصية مهمة في ألنسيج العمراني الجزائري، كونه متكون في غالبيته من مدن صغيرة ومتوسطة تعتمد في سد احتياجات سكانها على ريفها القريب والبعيد كما تستورد العديد من السلع الكمالية ونصف كمالية.

كانت بالمغرب الإسلامي في هذا الوقت مدنا كبيرة، ظهرت على أطرافه الشرقية والغربية، هذه المدن كانت مراكز تجارية هامة تربطها العديد من المسالك بأقطار العالم القديم. وكانت أسواقا نافقة تستورد العديد من منتجات المغرب الأوسط وتربطها به مصالح كثيرة، فالقيروان وتونس وسوسة وفاس ومراكش، كان أغلبها عواصم لدول عظيمة، حكمت المغرب كله أو أجزاء منه لمدة طويلة من الزمن. هذه العواصم سيطرت على ثروات المغرب و عادة ما كانت تتبعها أجزاء واسعة من المغرب الأوسط.ولم تظهر في المغرب الأوسط في ذلك الحين دول مركزية قوية، فلا الدولة الرستمية ولا الأغلبية ولا الإدريسية[18] ولا حتى الحما دية إتسمت بالقوة والاتساع، إنما كانت في أغلبها دولة متوسطة، أسست مدنا متوسطة أهمها كانت طبنه المسيلة، تاهرت، قلعة بنو حماد، بجاية و تلمسان.

حكمت الجزائر كما سبق آن ذكرنا دولا كثيرة تعددت عواصمها، وتمركزت الحياة السياسية و الاقتصادية حول هذه الحواضر و حول المدن الكثيرة الأخرى التي أسندت لها مهام إدارة البلاد و تنشيط اقتصادها.

إن الدراسة الممحصة للنصوص الجغرافية، التي تعتمد على مقارنة النصوص فيما بينها واستعمال النص التاريخي لتأكيدها، تبين بوضوح أن النمو الاقتصادي وتطور النسيج العمراني الحاوي له، عرف في هذه الحقبة وتيرة سريعة.وضع الجغرافيون الثلاثة موضوع الدراسة بنصوصهم خريطة وصفية لمدن و قرى المغرب الأوسط، هذه الخريطة جاءت واصفة للمدن التي جاءت على مسارا لمسالك، فأغلبية هذه المدن صورت كمراحل هامة أو ثانوية تخدم الطرق العابرة للمغرب (من الغرب للشرق و من الشمال للجنوب)[19]، ثم أن النص الجغرافي كأنما اعد للتجار ومستلزمات الضرائب و الإدارة.

علما أن وصف المدينة أو الريف عادة ما يرتبط بالإنتاج المادي و بالثروات، فقليلا ما يتحدث النص عن الأمور الاجتماعية أو الثقافية. ثم إن النص لا يركز عن الأحداث السياسية أو الكوارث البيئية من جفاف أو فيضانات أو حروب، و مدى تأثيرها في حياة البلاد الاقتصادية و العمرانية. علما أن هذه الأحداث قد جعلت العديد من المدن الكبيرة والمتوسطة تتدحرج و تتخلف لتصبح مدنا صغيرة أو قرى.

I. وصف ابن حوقل لبلاد المغرب :

إن الأوصاف الجغرافية التي قدمها الجغرافيون الأوائل لبلاد المغرب اتسمت بكونها ناقصة. ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يعرفون عن المغرب الأوسط إلا القليل، فما عدا إفريقية التي تمكنوا من معرفة مسالكها و أحوالها الاجتماعية والاقتصادية، وشبكتها العمرانية بصفة جيدة. إمتازت أوصافهم لباقي جهات المغرب بالشمولية،

فهم يرون في هذه البلاد مناطق شاسعة يقطنها البربر. وهم لا يهتمون بها إلا من حيث دخولها للإسلام، وتأثرها بحضارة العربية. أو كونها مناطق تأسست بها دويلات معادية للخلافة بالمشرق، أو انتشرت بها مذاهب غير مذهب السنة" خوارج أو شيعة. "جعلت النصوص الجغرافية الهجرة أو السفر لبلاد المغرب لتجارة أو السياحة أو لأمور أخرى، هجرة نحو عالم معلوم. أي أن هذه النصوص جعلت صورة المغرب أكثر وضوحا[20] في بلاد المشرق، ولم ينتهي القرن العاشر حتى تمكن الجغرافيون من وضع أدب جغرافي هام، كما زودوا من يهتم بأمور المغرب الأوسط بالكثير من المعلومات المفيدة الخاصة بهذه المنطقة الهامة من المغرب الإسلامي.

يقدم النص الجغرافي لابن حوقل الكثير من المعلومات عن العلاقات التجارية الوطيدة الموجودة ما بين بلاد المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء، فالكاتب يصف مثلا المسالك الهامة، التي كانت تسلكها قوافل ذلك الزمن، كما يبين المدن والمنا طق التي كانت مهمة في التحكم في هذه التجارة فيقول في هذا الصدد "ثم البحر المحيط الجنوب فيمر على ماسة ومغارب سجلماسة وغربوا في بلد لا عدد لأهلها إلى أن يصل إلى البرية التي لا تسلك إلى الحين". ثم يذكر الأسباب التي جعلت التجار يهجرون هذه الطريق وهي :

لقد كانت المسالك المارة بسجلماسة أو بتاهرت من أهم الطرق الرابطة بين المغرب الأوسط و إفريقيا جنوب الصحراء، كما امتازت هذه الأخيرة بتنوع سكانها فنجد فيها البصري والكوفي والبغدادي والتلمساني والتنسي كما جاء في النص (سكانها أهل العراق وتجار أهل البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق، وهم وأولادهم و تجارا تهم دائرة و مفردتهم دائمة و قوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة و نعم سابقة، فلم يدانيها التجار إلى بلاد الإسلام سعة حال و لقد رأيت صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأود غوست، شهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينارا)[21].

ثم يقوم ابن حوقل بتقديم شرح مفصل للخريطة التي رسمها لأرض بلاد المغرب فيقول : "وقد رسم على ساحل البحر من أسفله من المدن مبتدئا عن اليمين : أطرابلس، قابس، مرسى الخرز، بونة، مرسى الدجاج، جزائر بني مزغنة، تامدفو، أشرشال، برشك،.ثم يلي ذلك من الجانب الأيسر في وسط البر مدينة القيروان، يوجد على يسار هذه جبل لأوراس والمدن الجزائرية التالية وهي :كما ذكرها الجغرافي، بسكرة، تهودا، باديس ويؤخذ من القيروان طريق إلى جبل أوراس عليه مدينة تبسة وباغاي، وطريق آخر هو أقرب إلى الساحل يأخذ إلى الأربس وتيفاش ثم قصر الإفريقي ثم تيجيس وقسنطينةوميلة، ثم مقرة ثم إلى المسيلة[22] ،وهي على نهر يصب في البحر عند أشر شال وبين ميلة وهذا النهر مدينة سطيف، وبين تيفاش ومدينة أبه قصر الزيت، ومن باغاي طريق إلى مقره عليه دار ملوك وطبنه، وطريق آخر إلى طبنة عليه بلزمه ونقاوس، على الطريق الأخر من تيجبيس إلى مقرة مدينة دكمة، ويأخذ من مسيلة من جانب النهر المقابل طريق إلى اليسار عليه ابن إمامة، و طريق أخز يميل إلى الأعلى عليه تأمز كيدا[23] وأشير، وسوق كران مليانة، وبين سوق كران والنهرمدينة حانط حمزة على الطريق الأخذ إلى سطيف، ويقراء موازيا للطرق الأسفل من الصورة :وهذه نواحي السودان المختصة بلادهم على البحر المحيط. وبين هذا النص و الطرف غريوا، كزم، زغاوه، نم بين جبل نفوسة والطرف نواح أكوكو وفي البحر رسم من الجزائر :مالطة، قوسره، صقلية، سردانية، قرسيقة، وفي قسمه الأعلى جنوه"[24]. ويستفاد من النص أيضا أن بتاهرت[25] جالية مشرقيه قوية من الكوفة والبصرة ومناطق أخرى من المشرق الإسلامي.

ثم يقدم لنا ابن حوقل مجموعة من مدن المغرب الأوسط الساحلية التي توجد على طريق آخر فيقول : "ويوجد عليالساحل الأسفل من المدن ابتداء من اليمين، تنس، وهران، ثم يكمل بأن يقدم عددا من مدن المغرب الأقصى، كمليلة و نكور

الخ... و يذكر في طريقه إلى فاس العديد من المدن المغربية، ليعود لوصف بعض المدن الجزائرية كيلل، الشلف، عزة، تخب، وبالأسفل من تنس على الطريق الخضراء وهي علينهر يأتي من الأسفل وعند ميناء هذا النهر تاهرت. وبعد ذكر عدد من المدن التونسية يبدأ هذا الجغرافي في وصف بعض المدن الجزائرية من جديد مبتدءا بمدينة القالة.

1. مرسى الخرز :

يقول عنها" و على الساحل منها بهذا النحو على نحو مرحلة مرسى الخرزبه معدن المرجان، ومرسى الخرز أيضا قرية غير أنها نبيلة المكان. ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة ولا يوجد المرجان في مكان غير هذه القرية المدعوّة بمرسى الخرز. وبمدينة تنس وبمدينة سبتة المحاذية من الأنبه من الأندلس لمدينة جبل طارق، وهي المعروفة بالجزيرة الخضراء والذي فيها من المرجان قليل الجوهر حقير المقدار في جانب ما يخرج من مرسى الخرز. ولسلطان المغرب فيها أمناء على ما يخرج، وناظر يلي صلاتها ومعاونها وما يلزم ما يخرج من هذا المعدن، وللتجار لها أموال كثيرة من أقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشراه، و يعمل بها في أكثر الأوقات في إثارة المرجان الخمسون قاربا، وما زاد عن ذلك مما في القارب العشرون رجلا.وما زاد ونقص، والمرجان نبات ينبت كالشجر في الماء يستحجر في نفس الماء بين جبلين عظيمين، والعاملون فيها يكثرون الأكل والشرب والخلاعة، ولهم بها مكاسب وافرة، ينتبذون نبيذ العسل، فيشربون من يومه ويسكرون الأسكار العظيم، ويعمل من الصداع مالا يعمله نبيذ الذرة"[26].

ويظهر من النص أن هذه المدينة الجزائرية كانت غنية جدا بمادة المرجان ذا النوعية الجيدة[27]، وأن مرجانها لا يضاهى من حيث الكمية و النوعية، الأمر الذي

جعل التجار يقصدونها بكثرة. ثم يعود ابن حوقل لوصف هذه المدينة الصغيرة، فيقول أنها أقرب من القرية للمدينة وهي ناحية قليلة الزرع يجلب إليها قوتها مما يجاورها من فاكهة وغيرها، وفيها من صيود السمك لم ارى ببلد مثله سمنا... إلا أن شهرتها ونبلها متصل بنوعية معدن مرجانها العالية، والكميات الكبيرة المستخرجة منه، ثم يعود هذا الجغرافي ليقارن بين وفره مرجان القالة ونوعيته، وقلة ما تنتجه باقي مناطق المغرب، كساحل سبتة من هذه المادة ورداءة نوعيته. كم يظهر النص علاقة السلطة المركزية بالمدينة ويؤكد على تواصلها. فلسلطان البلاد في القالة العديد من الأمناء يسهرون على أخذ حق الدولة من هذه المادة وعلى إدارة استخراجها.

علما أن المرجان كان من المواد الأساسية في الحركة الاقتصادية للمدينة، والكثير من الصيادين يقومون باستخراجه وجمعه من قاع البحر، مستعملين العديد من القوارب الكبيرة التي قد يصل عدد ركابها العشرين رجل. إن عملية صيد المرجان كانت تشغل 1000 رجل أو أكثر (خمسين قارب في كل قارب عشرون رجلا) دون ذكر العدد الهائل من الحرفيين الحذاق والتجار والسماسرة الذي ارتبطت عيشتهم بهذه المادة. لقد كانت الحياة في القالة سهلة، فالعاملين في ميدان المرجان كانوا من الطبقة المتوسطة، كما يقدم لنا ابن حوقل صورة من صور الحياة اليومية بالقالة، حيث يجتمع بعض هؤلاء العمال في أوقات الفراغ لتناول شراب العسل المسكر.

2. عنابـــة :

(ومدينة بينة مدينة مقتدرة ليسب بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها كالأربس، وهي على نحو البحر ولها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة،وفيها خصب ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة، وأكثر فواكهها من

باديتها، والقمح والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له. ولها معادن حديد كثيرة و يحمل منها إلى الأقطار المعربية الكثير، ويزرع بها الكتان، ولها عامل قائم بنفسه و معه من البربر عسكر لا يزول كالرابطة، ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب والكراع، ولها من العسل الحيز الكثير)[28].

إن وصف عنابة "بونة" يماثل من حيث الدقة و صف القالة، فالمدينة كما هو الحال بالنسبة لأغلبية مدن المغرب الأوسط مدينة متوسطة، بها حياة اقتصادية نشيطة. تعتمد على التجارة ويعيش القائمين عليها حياة تمتاز بالرخاء، أما ضواحي المدينة فهي أكثر خصوبة من ضواحي القالة، يصل المدينة من خيراتها الكم الكبير، االأمر الذي يجعل أحوال سكانها ميسورة، فالمؤونة وافرة في متناول الجميع، وأسعارها رخيصة كما أن منتوجها من الحبوب وهي المادة الأساسية لغذاء أهلها وافر. ثم يتحدث لنا الكاتب عن نبات صناعي كان يزرع بكثرة في عنابة، هو نبات الكتان التي يستعمل في صناعة النسيج[29].

أما الثروة الحقيقة للمدينة فممدنية فيها مناجم الحديد ذات النوعية العالية والإنتاج الوافر، حيث كان إنتاجها يصدر إلى مناطق العالم القديم، علما أن هذه المادة الاستراتيجية في ذلك الحين محضور تصديرها لأرض الإسلام من طرف الحكومات المسيحية، لما لها من دور هام في جميع أوجه التصنيع و خاصة المتصل بالصناعات العسكرية أما تجارة بونة فالغنم والبقر والماشية والدواب وسائر الكراع، تربي فيها الأبقار بكثرة، وريفها تنتج كميات كبيرة من العسل.وبعد هذا الوصف الوافي لمدينة بونة يتكلم المؤلف عن الطريق الرابط ما بينها وبين جزائر بني مزغنة، يورد ابن حوقل فيها أوصف بعض المدن.

3. مرسى الدجاج وبعض المدن الأخرى :

وهي على حسب قوله مدينة منيعة مسورة. مرساها فقير آمن وريفها غني كثير

الخيرات، فالقمح فيها والشعير والألبان والمواشي كثيرة تكفي حاجيتهم وحاجة مجاوريهم والأسعار فيها منخفضة كما أن تجارتها نافقة، فهي تصدر خيرات ريفها إلى باقي مناطق المغرب[30].

ثم يتحدث المؤلف عن الجزائر العاصمة "جزائر بني مز غنة" فيذكر أنها مدينة مسورة على سيف البحر، و بها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيّبة، أما ريفها فهو شاسع وخصب تكثر فيه المواشي والأبقار، يشتهر بكثرة إنتاجه للعسل الجيد والسمن والتين، حتى أن هذه المحاصيل تصدر إلى باقي بلاد المغرب فنجدها في أسواق القيروان على بعدها.

كما يشير الكاتب إلى تامد فوس وهي مرسي ومدينة على حسب قوله قد خربت وكذلك الحال بالنسبة لمدينة أشرشال التي يقول عنها أنها أزلية فيها مرسى و آثار قديمة وأصنام من حجارة ومبان عظيمة[31].

أما مدينة برشك فهي مدينة مفتوحة قد تهدم سورها، ماءها من الآبار والعيون والوديان، تنتج الفواكه بكثرة وهي ذات بادية كثيرة العسل. كما أن الأراضي التي تحيط بها أراض حنطة و شعير، تكفي حاجة المدينة ويصدر كميات هائلة منه.

أما مدينة تنس، فعليها سور أحاط جزء من السهل وجزء من الجبل، فتحت فيه أبواب عديدة، و شرت أهلها من واد كبير وهي مدينة متوسطة، ريفها خصب ينتج الكثير من الفواكه كالسفرجل المعنق ذا النعومة والحلاوة وطيب الرائحة، لقد تمكن أهل المدينة من ربط علاقات وطيدة مع أهل الأندلس، يتعدى إليها الأند لسيون بمراكبهم لتجارة وينتقلون منها إلى سائر المدن، وللسلطان بها وجوه أموال غزيرة.

ثم يذكر الطريق الرابط بين مدينة تنس و وهران، واصفا مراس عديدة ليس لها مدن كمرسى عطا.

أما قصر الفلوس فهو حسب قوله مدينة مخربه، عليها سور، وهي لطيفة جدا ماؤها من عين جارية تغذي أنعاما كثيرة.

أما مدينة وهران فإن ما يشد انتباه ابن حوقل فيها مرساها الذي يقول عنها " أنه في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثيل يقول الكاتب في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى. فقد كنفته الجبال، وله المياه الوفيرة التي تأتيها من واد عليها جنان وبساتين ذات غلال قربه، وتجاربها مع كل المغرب يصلها الكثير من تجار الأندلس إليها يصلون محملين بسلع الأندلس، ومنها يخرجون بسلعها إلى الأندلس.

ثم يعود ابن حوقل[32] فيذكر الطرق الرئيسية للمنطقة، ويتخذ من المدن الداخلية الهامة أي مدينة تاهرت والمسيلة منطلقا لها من هذه الطرق وهي كالآتي :

أ- الطريق الرابط بين القيروان و فاس و المار بتاهرت.

وأهم مراحل هذا الطريق من القيروان إلى الجهتين قرية مرحلة، ومنها إلى سبيبة مرحلة، ومنها إلى مرماجنه مرحلة[33]. وهذه الأخيرة، لها تجارة نشيطة وأسواق عامرة وتسكنها قبائل مجانة. ومن مرماجنه إلى مدينة مجانة مرحلة، وهذه االمدينة لها سور من الطابية، وقد عرفت بزراعة الزعفران واشتهر بحجارة الطواحين[34] وهي تنتج أيضا الفضة والحديد[35]. وتشرب المدينة من مياه الوادي الذي يسقي باديتها[36]، وتأتي بعد مجانه مدينة تيجس بعد خمس مراحل يمر فيها المسافر على قرى ومناهل، يفارق فيها الطريق المؤدية إلى باغاي قبل الوصول إلى نهر ملاق.

ثم يصف قرية مسكيانة وهي أكبر حجما من مجانة، وكانتا تخضعان مجمعتين لسلطان واحد، لقد اشتهرت هذه المدينة بسعة مياهها وكثرة سمكها ورخص أسعاره وسوقها الممتد كالبساط.

ومن مسكيانة إلى باغي[37] مرحلة، وهذه المدينة متسعة كبيرة، عليها سور قديم "أزلي" من الحجارة، ولها ربض عليه سور أيضا، توجد الأسواق فيه، وقد

كانت في الماضي داخل المدينة. وشرب أهلها يأتيها من واديها وكانت في ضواحيها الجنان والمزارع الواسعة، التي توفر لها كميات معتبرة من المحاصيل. أهمها الحنطة والشعير[38]. كما تخضع المدينة لسلطة عامل يراقب أموالها وصلاتها يقول عنه ابن حوقل : "عامل بنفسه لا من تحت يد أحد" ثم يعرج الكاتب على جبل الأوراس الأشم ذا المياه الوفيرة والمراعي الغينة والعمارة المتصلة على حسب قول هذا الجغرافي. فيذكر أنه لتمكن من قطع هذا الجبل، لا بد من أثنى عشرة يوما. ولباغاى مسلك آخر يأخذه المسافر إذا أراد، وهو يمر على مدينة بلزمة الأزلية، ثم يمر المسافر على نقاوس وطبنة.

وإذا أراد أن يتجه إلى تيجيس أو بونة فليكمل الطريق، وإذا أراد قسنطينة فليمر على تيجيس وليكمل من قسنطينة[39] إلى ميلة فسطيف فأشير إن أراد ذلك. ومن باغاي إلى دوسانة[40] مرحلة، وهي قرية أوراسية سكانها من اللهان،ومن دوسانة إلى دار ملول مرحلة ومنها إلى طبنة مرحلة. وكانت هذه المدينة كبيرة وواسعة شاسعة كثيرة البساتين والزروع، اشتهرت بزراعة الكتان والقطن، وكثرت إنتاجها من الحبوب، وأهلها قبيلتان من العرب وبرقجان، دخل ما بينهم الشقاق والحسد، فساء حالهم و تدهور اقتصادهم. والخارج من طبنة يصل بعد مرحلة مقرة، وهي منزل ما بين طبنة والمسيلة، وهذه الأخيرة محدثة استحدثها علي بن الأندلسي" أحد خدم آل عبيد وعبيدهم[41] والمدينة مسورة بسور من الطابية، يشرب أهلها من وادي السهر "وادي القصب الحالي "و هو غزير المياه غير عميق يسقي مساحات كبيرة من الأجنة والمراعي. ومن غلات هذه المدينة[42]الحنطة كما هو الحال بأغلبية مدن المغرب الأوسط والشعير، كما تشتهر بإنتاج وافر من السفرجل المعنق والقطن، و تكثر ببواديها المواشي والأبقار والدواب، وهي تابعة لقبائل بني برزال وبنو زنداج وهوراة ومزاتة عليهم صدقات و خراج كثير.

و من المسيلة يصل المسافر إلى مكان يسمى جوزا فيه ماء لا لسكان فيه

مرحلة، ومن هذا المنزل الى هاز وهي قرية كانت قديما مدينة عظيمة فخربت، و كانت في عهد ابن حوقل مفازة كثيرة الرمل بها مياه محبوسة، و من هاز إلى جرتيل مرحلة. وجرتيل قرية كبيرة كثيرة الزرع وافرة المحاصيل، تسقى من عيون[43]، والخارج من جرتيل يصل إلى ماما بعد مرحلة، و هذه الأخيرة لها منبر وسور و خندق به ماء يشرب أهلها وتسقى أراضيهم من واد.

و بعد قطع مرحلة يصل المسافر إلى إحدى المدن الكبرى والهامة بالمغرب الأوسط، عاصمة أول دولة مستقلة به وهي مدينة تاهرت.

وتاهرت مدينتان على حسب ابن حوقل، الأولى أزلية قديمة، أي أسست فيما قبل المرحلة الإسلامية، والثانية محدثه، تأسست بعد الفتح الإسلامي، أما المدينة القديمة فعليها سور، وهي محصنة طبيعيا حيث تقوم على جبل غير عال وبها مسجد جامع.

أما المحدثة أي عاصمة الرستميين فتجارتها رابحة ونشطة، يقصدها الكثير من الناس. وبالمدينة مسجد جامع. وشرب أهلها من الواد ومن عيون، وهذه العيون غزيرة تسقي جنائنها وتزيد من إنتاجها. إن توزيع المياه داخل المدينة كان منظما تنظيما يدل على ما وصل إليه أهل تاهرت من نمو وتحضر. حيث تدخل مياه المدينة كما هو الحال في فاس إلى أكثر دورها ساقية السكان وبساتينهم وجنائنهم المنتشرة. أما ريفها فمشهور بكثرة إنتاجه من العسل وبها العدد الهائل من الأنغام والأبقار الكوراع ولسائمة.

ب - الطريق المؤدي من المسيلة إلى فاس :

ينطلق المسافر من فاس إلى نهر سبو، وهو نهر كبير غزير الماء كثيره إليه يصل نهر فاس. ويصل مائة إلى البحر المحيط. وفي منطقة سالاوي قرى متصلة إلى نمالته مرحلة، ومنها إلى كرانطة ومن هذه الأخيرة إلى قلعة كرماطة، ومنها إلى فج

الجبل المعروف تيازا إلى مزا وروا، ومنها إلى وادي مسون ثم تابرب مرحلة، ومنها إلى صاع مرحلة[44]. ومن هذه الأخيرة إلى جرواة أبي عيش مرحلة، ومنها إلى ترفانة مرحلة، ومنها إلى تلمسان مرحلة، ومنها إلى قرية العلويين مرحلة، ومنها تاتانلوت مرحلة ومنها إلى عيون سي مرحلة، ومنها إلى وادي الصفاصف مرحلة، ومنه إلى أفكان مرحلة، ومنها إلى تاهرت ثلاث مراحل، ومنها إلى معسكر ومن هذه الأخيرة إلى جبل توجان إلى عين الصفاض مرحلة، ومنها إلى يلل مرحلة ويلل إلى الشلف. وهي مدينة ذات سور حصين ونهر ومزارع مرحلة. ومنها غزة وسوق إبراهيم مرحلة، ومنها إلى تنس مرحلة ومن هذه الأخيرة إلى بني واريفن مرحلة لطيفة بين جبال شواهق، وهي قرية أزلية على نهر االشلف لها كروم وسواني كثيرة[45]. وبها السفرجل المعنق الفراس مرحلة، ولها ناحية خصبة وفيها سوق جامع وحمام. ومنها إلى مليانة مرحلة، ومليانة مدينة أزلية لها أرحية على نهرها ومزارع كثيرة مسقية، ومنها إلى سوق كران وهو حصن قديم أزلي، عليه مزارع على نهر وسوق عامرة مرحلة[46]. ومنها إلى قرية رطل ماوزغة ذات المياه العذبة مرحلة، ومنها إلى أشير وهي مسكن آل زيري ابن مناد، والتي يحيطها سور وبها حصن وأسواق وعيون مطردة ومزارع وأجنة واسعة مرحلة، ومن أشير إلى تامزكيدا مرورا إلى الوادي المالح وصولا إلى مسيلة مرحلة.

أما القسطنطينية إلتى لكتامة، فمدينة تشابه ميلة في حالها، أما نقاوس فكبيرة واسعة يحيط بها سور حجارة. لها مياه غزيرة و أجنة عظام[47]، وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكروم، وأما بلزة فحصن منيع يسكنه رجال جلد وهو وسط فحص عليه سور تراب، و لهم زروع كثيرة مستعينة و يشتهر هذا الحصن بكثرة الخيرات ورخصها.

ثم يتكلم الكاتب عن التجارة التي تجهز إلى بلاد المشرق، وهي تجارة الرقيق والسلع، "كالمولدات الحسان الذين أنجبن أولاد من أمراء والملوك المشرق"

كسلامة البربرية" أم أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن الفتاس. وقراطيس أم أبي جعفر هارون الواثق بن االمعتصم"، والغلمان من الروم،والعنبر والحرير والأكسية الصوفية الرفيعة إلى جانب االصوف وما يعمل بها. والمعادن كالحديد والرصاص والزئبق والخيل والبغال والأبقار.

II. علاقة ابن حوقل بالفاطميين :

لقد اهتم هذا الجغرافي بالفاطميين وتتبع أحداثهم، ووصف مناطق نفوذهم بدقة كبيرة. فرصد نمو حركتهم باليمن وفي سواحل إفريقيا الشرقية و في مصر.وكان رأيه فيهم حسنا، فهم بالنسبة إليه المثل الصالح الذي يجب إتباعه، وأكثر خلق الله استحقاقا للخلافة فهم أسياد المغرب[48].

إن عمل ابن حوقل حول المغرب الأوسط كان عملا جيدا، يمتاز بالتدقيق في جمع المعلومات والمعطيات، ومنهجه وصفي عادة ما يصبح تحليلي، إذا ما اقتضت الحاجة لإيصال الفكرة إلى القارئ. هذا الموقف من الفاطميين خاصة ومن التشيع على العموم، جعل الكثير من المؤرخين والجغرافيين الذي أتوا من بعده يتهمونه بالعمالة للفاطميين[48]، ولا يعتمدون على كتابة في تأليف مصنفاتهم.

إن بعض مواقفه من أحداث بلاد المغرب الأوسط، جعلت عددا من المستشرقين الكبار يشككون في الكثير من المعلومات التي جاءت في كتابه وخاصة تلك المتعلقة بالأمور بالدولة الفاطمية، بل أن مؤرخين كبار كدوزي وبرنشفيك يرون فيه جاسوسا يعمل لصالح هؤلاء. كما نجد في كتابه أوصافا تكاد تكون هجاء وتصغير لجيوش أموي الأندلس، بل نجده يعرض على الفاطميين الاستيلاء على الأندلس، فهو القائل : (إن ثروات الأندلس هي غنيمة سهلة للفاطميين إذا ما أرادوا أخذها).

والملاحظ أن النص يبيّن مدى الشلل، الذي أصاب الطرق البحرية زمن وضع الكتاب، التي كانت نشطه في العصر القديم (عهد الفينيقيين والرومان

والبيزنطيين). حيث نقصت أهميتها بعد الفتح الإسلامي لبلاد الجزائر. لقد ابتعد المسلمون عن استعمال الطرق البحرية مباشرة بعد الفتح الإسلامي للبلاد. ذلك أن السيطرة على البحر كانت بيزنطية، وأن العرب لم يتمكنوا من تقنيات ركوبة أول أمر ولم تكن عندهم قوة بحرية متمرسة لتمكنهم من السيطرة عليه. ثم أن البلاد المسلمة كانت متصلة بريا فيما بينها.لقد عمل التجار في هذه الحقبة من الزمن على ربط بلاد المغرب الأوسط بباقي العالم القديم، بعدد من المسالك الهامة، استعملتها قوافل كثيرة خاصة أن الجمال والبعير والبغال كانت متوفرة بأعداد كبيرة عندنا في ذلك العهد.

لقد ركزت النصوص على أهمية هذه المسالك، وخاصة الرابطة بين الشرق والغرب والشمال و الجنوب، هذه الأخيرة كانت تربط مدنا جزائرية كثيرة بنظيرتها في إفريقيا جنوب الصحراء، هذا هو الحال بالنسبة لتاهرت وتلمسان ورقلة وعددا هاما من المراحل الأخرى.

كما اشتهرت هذه المسالك بأهمية تجارتها بالنسبة للمغرب الأوسط خاصة والعالم القديم عموما. ذلك أن هذه الأخيرة على صعوبة مسالكها القاطعة لمفاوز الصحراء كانت مدرة لربح كبير، لقد اعتمدت هذه التجارة على منتوج ملح ملاحات الصحراء وسباخها، وعدد كبير من السلع الكمالية الأخرى من الجهة المغربية. وعلى التبر وريش النعام وسلع عديدة أخرى من الجهة السودانية. إن النصوص الجغرافية وإن أكدت على الأهمية القصوى لهذه التجارة[50]، إلا أنها لم تتحدث كثيرا عن تنظيمها وعن المجهودات الكبيرة والمصاريف الضخمة التي جندت من أجل تجهيز مسالكها، بحفر عددا كبيرا من لآبار وتحضير المراحل التي تنزل بها القوافل، والعمل على محالفة بدو الصحراء للإستفادة منهم في هذا المجال. أما بالنسبة للمغرب الأوسط فإن النصوص لم تقدم لنا معلومات ضافية عن هذا الموضوع. فهي تقدم لنا الطريق على شكل عدد من المراحل التي تربط ما بين

مركزين مهمين في هذه التجارة. ولا تقدر المسافة بالتحديد فالتقدير يكون باستعمال مرحلة صغيرة أو كبيرة علما أن هذه المراحل ترتبط عادة بأمور تحدد طولها أهمها:

1) صعوبة المسالك ففي المناطق السهلية "هضاب العليا، السهوب، الصحراء الرملية، يستطيع الجمل أن يقطع مسافة تصل إلى 60 كلم يوميا، بينما لا يتمكن من ذلك في المسالك الوعرة أو الطرق الحجرية التي تضر بسيقانه.

2) قرب المراحل من بعضها البعض قد يرتبط أيضا بأسباب جغرافية، ففي المناطق الخصبة الأهلة بالسكان، عادة ما تكون هذه المدن أو القرى المستعملة من طرق القوافل كمرحلة متقاربة لوفرة الغداء والماء. أما في المناطق السهبية والصحراوية الجافة،فإن هذه المراحل عادة ما تكونمتباعدة، مرتبطة بتوفر الماء أو الكلاء للحيوانات على الأقل. هذا كله يؤدي بنا للقول أن هذه النصوص الجغرافية تقدم عددا هائلة من المعلومات عن التجارة الجزائر في ذلك العهد، عن مدنها وقراها وسلمها العمراني، كما تصف لنا الريف و الأماكن الأخرى من البلاد. إلا أنها تهتم إلا القليل بالشريط الساحلي للبلاد الذي كان في العهد القديم الشريط المتصدر سوى من الناحية العمرانية أو الديمغرافية أو الحضارية أو الاقتصادية. فكأن كتاب هذه النصوص يجهلون أهمية هذه المنطقة الحيوية، أو أن هؤلاء وصفوا لنا البلاد من خلال المسالك المدخله لها والتي كانت تمر إما بالهضاب العليا أو بالسهوب والصحراء.

والملاحظ أيضا أن الطرق الساحلية التي كانت تستحوذ على جزء كبيرمن تجارة المغرب القديم، والتي كانت معروفه ومحددة، وقد وصلت إلينا في وقتنا هذا بعض أثارها بل تمكن بعض علماء الآثار من وضع العديد من مخططتها، لم يزرها الرحالة أو لم تصل لهم عنها معلومات كافية لتقديمها في مصنفاتهم.

لقد كانت هذه الطرق وضلت لمرحلة من الزمن بعد الفتح مبلطة بالحجارة، استعملت عليها العجلة، إلا أن التجارة الجديدة اعتمدت على الجمال والبغال، ولم

تكن لهذا تحتاج لتبليط ولا لتهيئة الطرقات بالجسور والقناطر. فهي بذلك تكتسب قوة جعلها تصل إلى أبعد الأماكن. لقد علمنا في دراستنا هذه على محاولة الغوص في النص، فكنا نقرأه عدة مرات مستعملين المعلومات الجغرافية والتاريخية، معتمدين على العلوم المساعدة، أي أننا حاولنا التفكير بالطريقة التي كان يفكر بها الجغرافي أو التاجر أو الفلاح في ذلك الحين. أن هذه الطريقة تظهر مدى صعوبة هذه التجارة، وضعف التجار أمام المصاعب الجغرافية منها والسياسية. لذا نجد الجغرافيون يؤكدون على صعوبات الطريق المادية، من أنهار عميقة، أو سيول أو رمال متحركة، أو مياه عكرة موبؤة أو سامة، أو فجاج عميقة وصعبة، أو رياح وأمطار وثلوج. وبعد ذكر هذه المصاعب يقدم الكاتب بعض الحلول كالقيام بالتجارة في فصول معينة. أو استعمال طرق قد تحيد عن الطريق الرئيسي قليلا، أو تكون أطول منه مسافة لكنها خالية من المصاعب الظرفية.

كما عملت النصوص على تحديد مواقع نقاط المياه، أنواع السلع، منازل القبائل سؤا أكانت مسالمة أو معادية، إلى غير ذلك من الأمور الحيوية ذات الأهمية القصوى بنسبة للمسافر عموما والتاجر على وجه الخصوص. إن جغرافية المسالك هي قبل شيء جغرافية المشاة والفرسان و ليست جغرافية البحارة[51].

III. الوضع السياسي التي كتبت فيه النصوص :

لقد استعانت الخلافة العباسية بعلم الجغرافية، ووظفته في خدمة أهدافها ورعياها، كما عكس هذا العلم مراحل قوة وضعف الخلافة، فالدارس لنص كتب "الأرض" إنما يجد فيها نوعا من أنواع أدب الخلافة. عمدت هذه الكتب "كصورة الأرض"، إلى إعادة بناء صورة العالم فوضعت له مركزا جديدا هو بغداد، التي هي قلب الأرض ومركزها. فابن حذردابية واليعقوبي إنما انطلقا في وصفها للعالم من هذا المركز. كما كانت مناطق العالم تصنف ابتداء منه.

إن ضعف السلطة المركزية العباسية،وظهورالعديد من الإمارات الشبه مستقلة أو المستقلة كالأغالبة بإفريقية، التي كانت تشمل الجزء الشرقي من الجزائر. والرستميين والإدارسة بالنسبة في الجزء الغربي منها واللتان كانا مستقلين ومعادين لهذه الخلافة ستغير لا محالة الوسط الذي سيظهر فيه علم الجغرافية المغربي.

إن المصنفات الجغرافية التي صنفت حول الجزائر في ذلك العهد، أخذ كتابها موافق مسبقة من هذا البلد، كانت تمثل موافق تأثرت بموقف الدولة العباسية من الدولة التي تتحكم في تلك الجهة من الجزائر. علما أن الخلافة العباسية كانت تحالف الأغالبة وتعادي غيرهم من سلطات ببلاد المغرب.

فالنص الجغرافي عادة ما يكون مرآة تظهر في كثير من الأحيان مواقف صاحبة المعلنة والمخفية من مسائل زمنه، فإن كان صاحب النص موالي للعباسيين أو غيرهم فإن ذلك يظهر من خلال نصه.

والواقع أن سيرورة التفتت السياسي ببلاد المغرب الأوسط لم تقف عند استقلال بعض مناطقه وتكوين دويلات معادية للخلافة العباسية به[52]، بل تعدى ذلك إلى وجود مناطق شاسعة خارجة عن نفوذ السلطة المركزية داخل هذه الدويلات الصغيرة، بل أن إمارات شبه مستقلة أو مناطق شاسعة يتبع سكانها إمارة دولة مجاورة ظهرت داخل حدود هذه الدويلات، كما كان الحال للإباضية بجريد والأوراس الذين كانوا يدينون بالولاء لأمير تاهرت وهم تابعون إداريا للدولة الأغلبية.

تظهر العناصر المؤثرة في المجتمع المغربي، بوضوح من خلال النص الجغرافي وهي متكونة عن طبقة الفلاحين والبدو في المناطق الريفية،ومن طبقة التجار والكتاب والجند في الحواضر.هذه الفئة الأخيرة تمكنت من نفوذ كبير بإفريقية لصمودها أمام ثروات البربر، وتمكنها من أراضي شاسعة أخذتها من خلال سياسة الإقطاع التي أستعملت خلال فترات طويلة لترويض الجند.

لقد تبين لنا من خلال مقارنة النصوص، أن كل نص حديث يحمل في طياته أمور قديمة عديدة تمتاز بالديمومة وبعض من الحاصل الجديد، هذا الحاصل هو في أغلب الأحوال سياسي يؤثر ببطء على الوجه المادي للمنطقة، فلا يظر مثلا في وصف الجزائر عند المقديسي أن هذه الأخيرة كانت خاضعة لأكثر من سلطة. وإن هذه السلطات كانت متعادية، بل والحاصل أن هذا الجغرافي انما يهتم بنوع المسلك أو المرحلة أكثر من اهتمامه بالمتحكم فيها. لقد امتازت جغرافية القرن لتاسع بإخلاصها لفكرة وحدانية الخلافة الإسلامية سوء تحت سلطة العباسيين أو الأمويين أو الفاطميين.

إن ظهور طبقة من الاقطاعيين الكبار المنحدرة من الجند العرب بإفريقية[53]، شحنت الجو العام و جعلت الطبقات الشعبية من المجتمع على استعداد دائم للقيام بالقلاقل والثروات. أما في المدن فإن سرعة النشاط الاقتصادي مكن في برهة وجيزة من الزمن مجموعة قليلة من الغناء الفاحش..بينما بقت طبقات واسعة من المجتمع في وضعية مأسوية تقرب في بعض الأحيان من العبودية، كل هذه الأمور جعلت بلاد المغرب تعيش فوق برميل برود، دائما على استعداد الثروات التي في كثير من الأحيان ما يكون نتيجتها خراب مهول "تورات الخوارج، ثورة صاحب الحمار، الثورة الشيعية الخ...

إن جغرافية المسالك تهتم أكثر من غيرها بعالم الريف، على الرغم أن الكتاب لم يفردوا لهذا الوسع فصولا ولم يهتموا به اهتماما خاصا. لقد كان اهتمامهم بعالم الريف منحصرا بالأمور التي لها علاقة بالمدن أو بالتجارة، فالنصوص لا تتحدث عن المجتمعات الريفية ولا عن القبائل المكونة لها إلا من خلال علاقتها بالمدن.

IV. ابـن خرد دابـح :

لقد تكوّن هذا الجغرافي تكوين الكتاب، و تعلم التقنيات المتصلة بمصالح الإدارة[54]، وبما أن الدولة العباسيين كانت عربية اللسان فارسية التكوين، فلقد

عمل الكثير من الفرس على التمكن من اللغة العربية وإجادتها، ذلك أن هذه الدولة رغم عروبة مؤسسيها إلا أنها قامت على أيدي الفرس، والفرس أمة قديمة عريقة ذات حضارة كبيرة، أثروا أيما تأثير في تكوين حضارة الدولة العباسية. إن استعمال اللغة العربية كوعاء تعبّر من خلال شعوب الخلافة العباسية على اختلاف ثقافتهم، جعل هذه الأخيرة تصبح اللغة الأولى وتصبح اللغة الأولى وتلعب دورا علميا في نشر الثقافة.

لقد عمل ابن خرد دابج في ديوان البريد، و تشبع بآداب و تقنيات الإدارة، كما أهدي هذا الجغرافي كتابه إلى أحد االمسؤولين الكبار في الإدارة. و جاء محتوى هذا المصنف شاملا واصفا للمعمورة، اتبع الجغرافي في كتابته، منهج التقليد الأعمى للقدماء كبطيموس. احتوى هذا المصنف وصفا مبسطا للعالم الإسلامي[55]. إن الشيء الملفت في تقسيم فصول هذا الكتاب، كونها لم تقسم تقسيما إداريا كما جرت العادة ولاية ولاية. زد على ذلك كون الكاتب لم يفضل بلاد العرب أو العراق وفارس عن باقي ولايات الخلافة كما كانت العادة والتقليد. بل ساوي بين بلاد العرب وهي التي تحوي الأماكن المقدسة وبين بلاد المغرب أو اليمن وباقي جهات أرض الإسلام.

فالكاتب يذكر مكة المكرمة، على أهميتها القصوى في الأدب الجغرافي في عدد قليل من السطور. ويعمل في نفس الوقت على التأكيد على دور بغداد كمركز الخلافة الأوحد. وهو عندما يتكلم عن اليمن يؤكد على ماضي فارس التليد. لقد عبر ابن خرداذبة بلغة الضاد عن الثقافة والمعرفة الفارسية مضيفا إلى ذلك إلماما واسعا بكل جوانب وتقنيات الإدارة. ظهرت هذه الثقافة الواسعة بوضوح في كتاب المسالك والممالك الذي شمل موضوعات هامة ومتنوعة جاء محتواها كالآتي.

1) لقد عمل المؤلف على تأكيد مسائل هامة تهم الإدارة والتجار والحجاج وطلبة العلم، فقدم وصفا للمسالك كما امتد اهتمامه إلى الضرائب.

2) إن أكثر من نصف كتاب إبن خرددابح مخصص للأدب الجغرافي،كوصف ولايات الخلافة ومدنها و أريافها ومسالكها و ممالكها.

3) اهتم الكاتب فيما تبقى من كتابه، بمواضيع مختلفة جغرافية تاريخية، تمتاز بالشمول على عكس مواضيع النصف الأخر من الكتاب التي كان تقنية.

يعتبر ابن خردداذبح بحق الجغرافي الذي أخرج علم الجغرافيا،من الاختصاص التقني الضيق الذي جعلها مادة تقنية لا يهتم بها إلا ذوي الاختصاص فقط. إلى مادة مليئة بالحيوية متفتحة على العلوم الأخرى. يجد فيها القارئ زيادة على ما يحتاجه من معلومات جغرافية، مادة دسمة تتعلق بالتاريخ وبالعجائب[56].

لقد تعمد هذا الجغرافي والأديب على التفتح عن علوم زمانه الأخرى، كما فهم الأهمية البالغة في عدم عزل هذا العلم على الثقافة الحرفية،فالباحث لا يستطيع من خلال النص الجغرافي فصل ابن خرد دابح الجغرافي عن ابن جردذابح الأديب.

وضعت جغرافية هذا المؤلف لطبقة الكتاب والعاملين في دواوين الدولة والمثقفين والتجار[57]، فهي مادة ضرورية لهذه الطبقات في تحقيق عملها وكسب رزقها. ذلك أن معرفتها مفتاح نجاحهم. لقد تكلم الكاتب عن علاقة الجغرافيا بالإنسان وبالدولة. ووصف المسالك والممالك والمدن والبادية، رابطا كل ذلك بالخراج والضرائب والزكاة[58].

أما إذا رجعنا لذكر بلاد المغرب في كتاب المسالك والممالك، لأبي قاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خردذابح فقليل غير ممنهج، ولا يوجد وجه للمقارنة بينه و بين عمل ابن حوقل الذي امتاز بالدقة والجدية. ذلك أن ابن خردذابح لم يقدم إلا نُبذا قليلة حول هذه البلاد تبقي الباحث على ضمئه. حيث لم يقدم الكاتب إلا وصفا لطرق ذاكرا مراحلها دون أن يصف هذه الأخيرة. علما انه يقدم في الصفحة الواحدة والسبعين من كتابه، الطريق الرابط بين مدينة السلام بغداد وبلاد المغرب وذلك في الفصل الوارد في الكتاب تحت عنوان ذكر بلاد المغرب[59].

V. الطريق من برقه إلى المغرب :

تنطلق هذه الطريق من عاصمة السلام بغداد، وتمر بمراحل عديدة وقرى أو حتى بمحطات، منها السيلحين ثم الأنبار ثم الرب. ..الخ.هذه المدن التي تتواجد على طول الطريق في العراق و الشام ومصر وليبيا. والجزء من المسلك الذي يهمنا في هذا البحث هو الخاص ببلاد المغرب(59).

(ثم برقه إلى مليتيه خمسة عشر ميلا، ثم إلى قصر العسل تسعة وعشرون ميلا، ثم إلى أويران إثنا عشر ميلا، ثم إلى سلوق ثلاثون ميلا، ثم إلى برسمت على الساحل أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى بلبد على الساحل عشرون ميلا، ثم إلى أجدابية أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى قصر العطش أربعة وثلاثون ميلا، ثم إلى اليهوديتين أربعة وثلاثون ميلا، ثم إلى القريتين ثلاثة عشر ميلا، ثم إلى قصور حسان ابن النعمان الغساني ثلاثون ميلا، ثم إلى المنصف أربعون ميلا، ثم إلى تورغا أربعة و عشرون ميلا، ثم إلى رغوغا عشرون ميلا، ثم إلى ورداسا ثمانية عشر ميلا، قال الشاعر :

قد نقي البرير يوما شاسا... و ساقاها العين إلى ورّداسا

ثم إلى المنحى اثنان وعشرون ميلا، ثم إلى وادي الرمل عشرون ميلا، ثم إلى طرابلس أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى سبرة أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى بير الجمالين عشرون ميلا، ثم إلى الفوارة ثلاثون ميلا، ثم إلى قابس مدينة الأفارقة ثلاثون ميلا، ثم إلى بئر الزيتونة ثلاثة عشر ميلا، ثم إلى كتانة أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى اليسر ثلاثون ميلا، ثم إلى القيروان مدينة المجالي أربعة وعشرون ميلا، وهي مدينة إفريقية وهي في وسط المغرب وهي في أيدي ابن الأغلب(60).

وفي يده قابس وجلولا وسبيطله مدينة جرجير الملك وكان روميا، وبينها وبين القيروان سبعون ميلا،وزرود وغدامس وقلسانة وقفصه وقصطيليه ومدينة الزاب

وتهود وسلسمان ووادان و طفرجيل وزغوان و تونس. وبين بر الأندلس عرض البحر وهو هناك ستة فراسخ. ثم إلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة خمسة أيام.

ويظهر أن خرددابح لم يكن يعلم الكثير عن بلاد المغرب الأوسط ولا على جغرافية مسالكها، الأمر الذي جعله يخلط ما بين المدن التونسية ومدن الجزائر. ثم أن الكاتب لم يقدم لنا كل المدن الجزائرية التي كانت تعد حقا من أهم مراحل التجارة العالمية في العهد الوسيط، ثم يعود المؤلف ليذكر الدول القائمة ببلاد المغرب فيقول :

"وفي يدي الرستمي الإباضي وهو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وهو من الفرس، ويسلم عليه بالخلافة وسلمه وسلمية وتاهرت وما ولاها، وبين إفريقيه وبين تاهرت مسيرة شهر على الإبل."(61).

ويكمل المؤلف وصفه لبلاد المغرب الأقصى فيقول :

"ومدينة سبتة إلى جانب الخضراء وملك سبتة ليمان وفي يدي ابن صغير البربري المصمودي وخلفائه إلى واد الرمل ووادي الزيتون وقصرالأسود إلى طرابلس ووراء ذلك البحر الأندلسي.

ثم يشير المؤلف إلى بني مدرار قائلا :

"وفي يدي الخارجي الصفري درعة، وهي مدينة كبيرة كثيرة الأهل، وفيها معدن فضة وهي مما يلي إلى بلاد الحبشة ومدينة تدعى زيز. وفي يدي ابراهيم بن محمد البربري المعتزلي مدينة تلي تاهرت تدعى أيزرج".

ثم يعود ويتحدث عن الأدارسة قائلا :

" وفي يدي ولد ادريس بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رحمة الله عليهم تلمسين، ومن تاهرت إلى مسيرة خمسة وعشرون يوما عمران كلها، وطنجة وفاس وبها منزله. ومن تاهرت إليها مسيرة أربعة وعشرين ليلة، وخلفها طنجة وخلف طنجة السوس الأدنى، وهي من القيروان على ألفي ميل ومنه وخمسين ميل

وأهلها برير، وخلف السوس الأدنى السوس الأقصى وبينهما مسيرة نيف وعشرين يوما، وفي يديه وليلي ومدركة ومتروكة ومدينة زقور، وغزة و عميرة والحاجر و تاجرا أجرا وفنكور الخضراء، وهي على البحر وعندها ستة فراسخ، وأوراس وما يتصل ببلاد زاغني بن زاغني و السودان العراه إلى ما يحاذيه من نواحي البحر وليس يسلّم عليه بالخلافة و إنما يقال له السلام عليكم يا ابن رسول الله(62).

حواشي

1. لقبال موسى، عقبة بن نافع الموسوعة تاريخية للشباب وزارة الثقافة الجزائر ص 15.
2. المرجع نفسه، ص 16.
3. عبد الحميد حاجيات، حول شخصية عقبة بن نافع، مجلة الدراسات التاريخية، 1986، ص 39-40.

- Letourneau R., l'Occident musulman du milieu du VII[e] à la fin du XVI[e] siècle A.I.E.O, Alger 1958, p.147

4. محمد بن عميرة، موقف الكاهنة من الفتح الإسلامي، مجلة

5. Mercier. E, Episodes de la conquête du l'Afrique par les Arabes, Revue Africaine, n° 48 P 255 et s.

6. Combat. P. L, l'Evolution des cites du Tell en Ifriqiya du VII du XII siècle, O.P.U 1986 P 30 et s.

7. Kitab Al Buldän, Ed de Geoje (B.G.A.V, P 87 G. Wiet, les pays, le Caire, 1937 P 204-207-217-224-227.

8. Mukhtasar Kitab Al Buldän, Ed, de Goeje (B.G.A.V P 87 J Trad, H. Massé, Abregé du livre des pays. Damas 1973 P 107.

9. Al Istakhri, al Masâlik wa Mamalik, Ed, Mohamed Djabri Abd Al Heni,, le Caire, 1961. P 34.

10. Miquel A. La géographie humaine du monde musulman Jusqu'au milieu 11[e] siècle, Paris, 1967, p. 302.

11. Miquel A. Op. Cit, P. 299 et suivantes.

12. Voir sur ce sujet, Marçais G. La Bérbèrie aux X° siècle d'après El Ya'qubi, Recueil d'articles art musulman et histoire maghrébine, Alger, 1956, P 42 et s.

13. Mercier, E. op.cit. P 244 et s.

14. Mercier, A. op.cit P 299 et s.

15. Voir De Planhol, le monde islamique, Paris, 1957

16. Lewcki,T. Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des Missionnaires ibadites nords africains au pays du Soudan occidental et central au Moyen Age, Folia orientalia, P. 7 et s.

17. Mohamed Moncef, Ben Slama, Le Rayonnement économique de Kairouan sous les Aghlabides, D.E.S. d'histoire du droit et des faits sociaux, université de Paris, 1967, p. 15 et s. - Combuzat P.L, op. cit T 1.

18. Marçais, G. La Bérbèrie au IX[e] siècle, p. 42

19. Ibid, P 52 et s

20. Garcin. J.C, Ibn Hawqal et le Maghreb, Revue de L'occident musulman et de la Méditerranée, N° 35, 1983.

21. ابن حوقل المصدر نفسه، ص 66.

- Lewicki T., Quelques extraits, p .6 et s.

22. ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 67.

-Sur Msila voir l'article, de Paul Masseira, Msila du X[e] au XV[e] siècle. Bulletin de la société d'histoire et de géographie de Sétif, t II 1941 P 183 et s.

23. ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 67.

24. نفس المصدر، ص 68.

Sur Tahert, voir G. Marcais Dessus Lamare, Tihert taghdemt, Mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, t 1. P 173-193.

25. ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 75.

P.L .Cambuzat... op.cit, p .154 et s.

26. Courtois C.Remarque sur le commerce maritime en Ifriquiya p. 51 et s dans mélange d'histoire et d'archéologie de l 'Occident musulman, Alger, 1957. T II P.L. Combuzat ... Op. cit. p. 154.

27. المصدر نفسه، ص 76.

28. المصدر نفسه، ص 76.

P. L. Combuzat, op.cit t 2... p 68 et 69.

29. المصدر نفسه، ص 76.

30. المصدر نفسه، ص 76.

31. يقول أنه زار هذه المناطق و المدن و القرى وأنه أطلع على أحوالها بنفسه مما انتهيت إليه و أدركته بالعيان أو أخذته عمن تشاء فيه.ابن حوقل، ص 83.

32. - Combuzat, P., op.cit… p.150 et s.
33. -Talbi, M, L'Emirat Aghlabide, histoire politique, Paris, 1968 P .571 et s.

يذكر الكثير من الجغرافيين نوعية الرفيعة لحجارة مجانة التي كانت تصدر إلى جميع أنحاء المغرب.

34. ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 84.

35. -Ibid. p. 38 et suit
36. -Talbi M, L'Emirat… p. 263.

37. المصدر نفسه، ص 84.

38. يسميها ابن حوقل القسطنطنية.

39. - P. L. Combuzat, op.cit, t II P 94.

40. ابن حوقل، ص 85.

41. - Voir aussi pour Msila, Massiera. op.cit. p. 183 et s.

أنظر على طبنة :لقبال موسى، قاعدة طبنة الشرعية والخلافة في بلاد المغرب الإسلامي، حوليات جامعة الجزائر، ص 81 و أتبع.

-Sur Mana voir Combuzat P.L., op.cit., .t. II, p.147, et Talbi M.,op.cit .P 68

42. ابن حوقل، المصدر نفسه ص 86.

- Marcais, G. A Dessus Lamare, Tihert Taghdemt P 176 et s.
G. Marcais, La Bérbèrie du VII° au XVI° siècle article de conférence faite a la séance d'ouverture du deuxième congrès des sciences historiques, Alger, Avril, 1930, p. 18.

43. ابن حوقل المصدر نفسه، ص 88.

44. المصدر نفسه، ص 89.

-Sur Fès voir, Blachére R, Fès chez les géographes arabe du Moyen Age, Hesperis, n°. 14, 1934, P. 44 à 48.

45. ابن حوقل، المصدر نفس المصدر نفسه، ص 89.

46. ابن حوقل المصدر نفسه، ص 90.

47. إن الزمن الذي ألف فيه هذا الكتاب الهام يمكن أن يشرح هذا الاهتمام الشديد ماعدا ابن خلدون الذي اعتمد على هذا المصدر.

48. Garçin, J. C, op. cit. P. 79.

49. جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية الجزائر،1984 ، ص 233 ويتبع.

-Voir sur ce sujet, T. lewcki, L'Etat nord africian de Tahert et ces relations avec le Soudan occidental à la fin du XIII° et IX° siècle C.E.A. n° 8, 1962, P. 515 et s.

50. De la Chapelle, l'introduction du chameau. Hesperis
51. André Miquel, op cit. p 335
52. Chik Bekri, le Kharidjisme berbère, A.I.E.O, t. XV, 1957, P. 55-106.
53. -Combuzat, P.L op cit

54. و هذا ما جعل أدبه الجغرافي مطبوع بطابع الخلافة.

55. - Miquel, André, La géographie humaine…P 90.
56. - André Miquel, op cit. P 89 et s.
57. - Miquel A. La géorgraphie humaine P. 91 et s.

58. ابن خردابح : المسالك و الممالك، وضع مقدمة و هومشه و فهارسة الدكتور محمد مجزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1408 هـ، 1988 م.

59. ابن خرداذبح، ص 80.

60. المصدر نفسه، ص 81.

61. المصدر نفسه، ص 81.

62. المصدر نفسه، ص 82.

الفصل الثامن

أوصاف الجزائر في كتابة أبي عبيد الله البكري

إعداد الدكتور خلف محمد نجيب

أوصاف الجزائر في كتابة أبي عبيد الله البكري

1. زمن تأليف الكتاب.

جمع البكري مادة هذا الكتاب[1] في مرحلة تقاسمت فيها حكم بلاد المغرب عدة دويلات. تمثلت في الدولة الزيرية والحمادية اللتين امتدا يسلطانهما على الفضاء االكائن من الجزائر غربا إلى طرابلس شرقا. بينما تمكن زيري ابن عطية الزناني من السيطرة على مدينة فاس، وعلى بعض المناطق الواقعة غرب مجال الدولة الحمادية. كما شهد زمن المؤلف بداية الغزوة الهلالية، التي أثرت تأثيرا بليغا في نمو المنطقة وأكسبتها طابعا بشريا واقتصاديا متميزا.

تمكن الهلاليون من مجال شاسع، اتسم بالانبساط، وسيطروا على مناطق واسعة، ببلاد ليبيا وإفريقيه، لقد عملت صنهاجة الشمال بفرعيها الزيري الحمادي، على الوقوف المستميت ضد المد الزناتي المتمثل في التحالف الاستراتيجي بين زناتة وبني أمية، الأمر الذي أضعف التكتل الصنهاجي الزناتي وسهل مهمة بنو هلال فسيطروا على داخل البلاد بينما بقت المناطق الساحلية تحت سلطة هذه الدول.

ويظهر أن زناتة بعدما تمكنت من حكم مدينة فاس ومناطق واسعة من المغرب الأوسط والأقصى باسم بني أمية الذين قدموا لها المال والسلاح، استقلت عنهم عندما سقطت دولتهم.

في هذا الوقت بذات تمكنت صنهاجة الجنوب من التوحد، بعدما نظمها الفقيه الكبير عبد الله بن ياسين. وخرجت من باديتها غازية وفاتحة لمناطق واسعة من المغرب

الأقصى (تمثلت في زمن تأليف الكتاب في السوس الأقصى وسجلماسة ومنطقة درعة. أما ببلاد الأندلس فقد سقطت السلطة الأموية بعد حكم دام مائة وأربعة و ثمانية (سنة 184)) توالى عليها فيه ستة عشر خليفة، لقد ساهمت هذه الدولة مساهمة كبيرة في الجهاد ضد المسيحيين، وعانت كثيرا من ثورات البربر والمولدين.ومع هذا كله فقد ساهم الأندلسيون بشتى أطيافهم مساهمة فعالة في الحضارة الإسلامية.

عرف الأندلس بعد سقوط هذه الدولة، حقبة اتسمت بالفوضى والوهن، استقل فيها الكثير من الأمراء والقادة ورؤساء المقاطعات بأجزاء مختلفة من أرضه. وتمكن فيها المسيحيون من السيطرة المباشرة على مناطق أخرى منه كما عمت سيطرتهم اللامباشرة على أغلب المناطق الباقية.

لقد انقرضت العديد من دويلات ملوك الطوائف في نهاية القرن الخامس الهجري، وبالتحديد في سنة (460 هـ/68-1067 م)، عهد تأليف البكري لكتابة. وبقيت دويلات أخرى تصارع المد المسيحي تارة وتتصارع فيما بينها أطوارا أخرى كالعبادين في اشبيليه والزيريين في غرناطة وبني نون في طليطلة وبني هود في سرغوطة وبني عامر في بلنسيه الخ...

2. المؤلف:

لقد تمكن أبو عبيد محمد البكري أحد أجداد عبيد الله البكري، موضوع دراستنا سنة (392 هـ/1001-1002م) من تكوين إمارة في مدينة ولبدة، الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي واستقل بها استقلال تام بعد سقوط الأمويين سنة (402 هـ/1011) لكن ابنه لم يتمكن من المحافظة على استقلال إمارته، وفر بكنوزه وأملاكه المنقولة إلى قرطبة بعدما تمكن المتأدب بن عباد منها. دخل أبو مصعب عبد العزيز مدينة قرطبة مصحوبا بإبنه عبيد الله البكري مؤلف كتاب المسالك والممالك، واستقر فيها مدة من الزمن، لكنه بعد وفاة أبيه خرج منها سنة

(456 هـ/1064) متوجها نحو المدية، حيث استقبله أميرها محمد بن عينان أحسن استقبال وجعله من خاصة.

توفي البكري في عمر متقدم شهر شوال (487 هـ/1094) وقد ملئت شهرته الأفاق، وكثرت تأليفه في الشعرية النثرية والجغرافية وفي علم النبات والفلسفة.لم يحفظ الزمن من مؤلفات البكري إلا بعض العنوانين نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

1) كتاب المعجم، الذي توجد منه نسختان واحدة في مكتبة مدينة ميلانو والأخرى في مكتبة ليدن.

2) أما كتاب المسالك والممالك موضوع دراستنا، فيعد من أهم مؤلفات البكري، وهو من المصادر القيمة لتاريخ المغرب الوسيط عموما والقرن 11 منه على الخصوص، ومع أن كتاب البكري قدم لنا صورة حية للعالم الإسلامي في القرن الحادي عشر، إلا أن أجزاء منه خصصت لمصر و لأسيا الإسلامية. علما أن الجزء المخصص لبلاد المغرب كان الأغناء والأكثر نفعا واستفاضة.

اعتمد المؤلف في جمع مادة كتابه على الوثائق الرسمية للإمارة وعلى من التقي بهم من علماء وتجار زمانه. علما أنه لم يزر بلاد المغرب.ورغم ذلك فإن وصفه للمالك ومسالك ومدن وأرياف بلاد المغرب امتاز بالدقة المتناهية.

3. وصف البكري لبلاد الجزائر في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي :

نجد في كتاب البكري الكثير من المعلومات الهامة حول بلاد الجزائر في العصر الوسيط، هذه المعلومات مفيدة جدا لكون هذا الجغرافي على إطلاع واسع بأحوال هذه البلاد من الناحية العمرانية والاقتصادية والاجتماعية. كما جاء كتابه شامل تحدث فيه عن أرض الإسلام قاطبة، إلا أننا اعتمدنا في بحثنا هذا على الجزء الذي ترجمة ماك قوكين دوسلان تحت عنوان وصف إفريقيا الشمالية(2).

يبدأ البكري الإشارة في كتابه إلى الوطن الجزائري عندما يصف بعض غرائب إفريقيه وبلاد كتامة، وذلك في الصفحة 33 من النص العربي لترجمة دوسلان، ويذكر في هذا الصدد غناء هذه البلاد من الناحية الاقتصادية الزراعية الغابية ومن حيث الموارد المعدنية كالحديد والنحاس... إلخ.

لكنه في هذا الباب لا يذكر العمران ولا يصف الأرض ويترك هذا الأمر للمقطع الذي يبدأ من الصفحة 49 من النص العربي، حيث يصف لنا المدن الواقعة على الطرق الهامة الرابط بين القيروان التي كانت أعظم مدينة بالمغرب الإسلامي انذاك والمدن الهامة الأخرى، أو ما بين هته الأخيرة فيما بينها البعض. ويبدأ بوصف الطريق الواصل بين القيروان عاصمة الزيريين وقلعة أبي طويل" 2قلعة بني حماد "العاصمة الحمادية والتي ستلعب دورا مهما فيما بعد.

3. وصف المدن الواقعة على الطريق بين القيروان وقلعة أبي طويل.

1. قلعة أبي طويل(2) :

يبدأ البكري بوصف هذه المدينة الإستراتجية بالتأكيد على حصانتها، فهي عنده "حصينة منيعة"، والزائر لموقع القلعة الآن يرى هذا الأمر. ويعود الكاتب بعد ذلك للحديث عن مراحل تطور هذه المجمع العمراني من قلعة عسكرية عاتيه، إلى مدينة كبرى أصبحت عاصمة لدولة جزائرية هي مملكة بني حماد، فيقول :

"تمصرت بعد خراب القيروان "إثر الزحفة الهلالية، حيث هجر إليها أهل المال والأعمال من تجارة وأصحاب حرف وعلماء وأعيان" ثم يقدر لنا البكري عظمة المدينة وموقعها في السلم الهرمي لتجمعات العمرانية المغربية في زمانه بقوله "وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجه".

وبعد هذا الوصف القصير للقلعة يعود البكري لوصف المدن الموجودة بين القيروان عاصمة بني زيري والقلعة بني حماد عاصمة الحماديين، بعد حديث موجز

عن بعض المدن الواقعة في الجزء التونسي من بلاد إفريقية.

2. مجانة المطاحن :

أول مدينة يذكرها في الجزائر هي مدينة مجانة المطاحن، المشهورة بحجارتها الكاشطة التي كانت تصنع منها طواحين لا تفنى والتي ليس لها مثيل على الأرض، ويقول البكري أن المدينة "قديمة" أي قديمة التأسيس، ويلاحظ عند البكري انه يصف المدن التي أسست قبل الفتح الإسلامي للمغرب بأوصاف مختلفة كقديمة، وأولية ورومية.

3. تبسة :

يخرج المسافر من مجانة المطاحن متجها إلى مدينة تبسة، فيمر على نهر ملاق الغزيرة مياهه، ليصل إلى تبسة التي يقول عن تأسيسها البكري أنها "أولية" أي قديمة التأسيس، عامرة بآثار الأولين "التي مازالت شاهدة على ذلك الماضي البعيد أيام البكري أي في القرن الحادي عشر. ثم يصف لنا الكاتب كما جرت العادة عنده الأوضاع الاقتصادية لهذه المدينة فيذكر نشاطها الزراعي وكثرة إنتاجها من الفواكه والحبوب والثمار على حد قوله" وهي (أي تبسة) كثيرة الثمار والأشجار".

4. مسكيانه :

لا يطنب البكري في وصف مسكانيه ربما لكونها "قرية" كما ورد في نصه أو ربما لكونها لم تكن من المراحل الهامة في الطريق التجاري(3). إلا أنه يؤكد عن وجود نهر بجوارها أي توفر المياه للزراعة المسقيه.

5. باغايه :

تقع هذه المدينة الاستراتيجية في موقع يتحكم في الطريق الهام المار بين جبال الأوراس جنوبا وقارة الطرف شمالا، وهي من الاستحكمات العسكرية التي تدافع عن المنطقة وعن هذا المسلك الهام الرابط بين الصحراء والتل(4).

لقد كانت هذه المدينة في مرحلة الفتح الإسلامي قلعة حصنية، حاول الفاتحون الاستيلاء عليها، واعتمدت عليها الكاهنة للوقوف ضد حسان ابن النعمان.

لعبت هذه المدينة الاستراتيجية دور أساسي في الدفاع على إفريقية الأغلبية[5].

أما البكري فإنه لم يفرد لهذه المدينة الهامة إلا بعض الأسطر من كتابه ليؤكد على أنها "جليلة أولية" وأنها غنية من الناحية الثورات المائية والزراعية فمي "ذات أنهار ومزراع ومسارح".

وربما رجع إسهاب البكري في ذكر المدنية لكونها أصبحت في عهدة أقل أهمية، بعد تأسيس مدينة المسيلة وبعد التوسع الكبير في اتجاه الغرب الذي عرفته الحقبة الفاطمية الزيرية عموما. ثم أن علاقات سكان المدينة مع السلطة المركزية الزيرية لم تكن على أحسن حال، وكان ذلك سر تخريبها من طرف بلوكين بن زيري سنة 975 م.

6. قصاص :

تقع هذه المدينة في الجهة الشمالية من جبل الأوراس وهي بذلك تحرس المسلك الطبيعي المار بشمورة[6]، لقد أسس المدينة في العهد البيزنطي فهي قديمة حسب البكري 7ومنها قبر مدغوس الذي يقول عنه البكري أنه "قبر مثل الجبل الضخم مبني بأجر رقيق قد خرق وبني طيقانا صغارا وعقد بالرصاص وصورت فيه صور الحيوان وهو مدرج النواحي".

7. حصن بلزمة :

تسيطر هذه القعلة على فحص واسع، وعلى الطرق العديدة المارة عبره، خاصة الطريق بين القيروان والزاب وبين هذا الأخير والمغرب الأوسط[7].

لعبت بلزمة منذ العهد البيزنطيين دورا هاما في الدفاع عن السهول والمناطق الخاضعة للبيزنطيين، ضد هجمات البربر المتكررّ، لم تذكر لنا المصادر متى فتحت بلزمة ومن فتحها، إلا أن المؤكد أن هذه القلعة استعملت مبكرا من طرف المسلمين في تأمين بلاد الزاب[8]، وفي حراسة سكان منطقة الأوراس الذين اعتمدوا المذهب

الإباضي أنذاك، والذين كانوا يعادون الولاة ومن بعدهم الأغالبة. لعبت بلزمة دورا سياسي هاما، حيث حالفت أحيانا الأغالبة ووقفت ضدهم أحيانا أخرى، الأمر الذي جعل أمراء القيروان يكيدون لإضعافها، وقد تمكنوا من ذلك في عهد أبي الغرارنيق الذي استدعى أعتى فرسان بلزمة وقتلهم كيدا. نتج عن ذلك ضعف القوات المتواجدة في القلعة،مما سيسهل على للكتاميين في العهد الفاطمي مهمة الاستلاء عليها وتخريبها لقد حاول الزيريون إعادة تفعيل دورها الاستراتيجي في الدفاع عن الوسع الافريقي ضد الهجمات الزناتية، إلا أنهم اقطعوها لحماد فيما بعد.

أما المدينة في عهد البكري فلم تكن تلعب الدور الهام الذي كانت تلعبه عهد الأغالبة، فهي على حسب قوله "حصن أولي وهو في بساط من الأرض كثير المزارع والقرى، وهي مدينة كثيرة الأنهار والثمار والمزراع[9]" وبشرقيها مدينة اللوز، وتسير من نقاوس إلى طنبه.

8. طبنـه :

يقع موقع طبنه قرب مدينة بريكة الحالية ما بين واد بيطام ووادي بريكة، على السفح الغربي للهضبة التي تسيطر على سهل طبنه، لعبت المدينة دورا أساسيا في دفاع عن إفريقية من الهجمات الزناتية الأتية من الغرب، وكانت المدينة قلعة بيزنطيه ذات تحصين منيع أيام عقبة بن نافع، الأمر الذي جعل هذا الفاتح يمتنع عنها في حملته الثانية التي اوصلته إلى المحيط، بقت طبنه تلعب دورا مهما بعد افتتاحها من طرف موسى بن النصير.

أطنب البكري في وصف المدينة فهي بالنسبة له مدينة كبيرة، والكاتب قليلا ما يستعمل هذا الوصف بنسيه لمدن المغرب وأما عن سورها فهو من بناء المنصور بن الدوانيق. "وهو مبني بالطوب ثم يعود البكري إلى مشكلة تأريخ تأسيس المدينة فيقول" ويقال أن الذي بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزارمرد وكأن البكري يشّك في هذا القول[10] فيعود إلى ما جاء عند مخبره محمد بن

يوسف "بكون طبنه" قصر قديم أولي كبير جليل مبني بالصخر عليه أزاج كثيرة ينزله العمال وهو ملاسق لسور المدينة من جهة القبلة والحقيقة هي كون المدينة قديمة أسست في العهد البيزنطي، أما أبو جعفر المهلبي فهو الذي أسكن فيها قوما من وفرجومة كانوا حلفاء له، لقد لعبت المدينة دورا هاما في كل أحداث المنطقة في عهد الولاة وأيام الأغالبة(11).

وكما كان الحال بنسبه لبلزمة، فقد قطنت بطبنه حامية تميمية. أتعست المدينة وتكثف عمرانها، مستهلكة كل الأراضي الشاعرة الموجودة داخل الأسوار، ثم أنشأ بعد ذلك ريضها. بعد هذا يصف لنا الكاتب دار إمارتها فيقول : "وبها قصر وأرياض، وداخل القصر جامع وصهريج يقع فيه ماء نهرها ومنه تسقى بساتينها"، أما أبواب المدينة فعديدة فمنها المبني بالحجارة كباب خاقان الذي عليه باب من حديد، ومنها من كانت مصارع أبوابه حديدية كباب الفتح الذي يقع في الجهة الغربية من السور، وكذلك باب تهودا والباب الجديد، كما يشق المدينة سماط بين باب خاقان وباب الفتح.

ثم يصف لنا المؤلف عمران المدينة فيقول "ولها بساتين يسيرة ملاصقه للريض ومقبرتها بشرقها وبقرب المقبرة غدير يعرف بغدير فرغان، وهو يجري في مصلى العيد وليس من القيروان إلى سجلماسة أكبر منها". ويقابل المدينة من جهة باب الفتح، سور مبني على فحص فسيح مقدار ثلثي مدينة طبنة، بناه عمر بن حفص، ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب.

أما من الناحية الاقتصادية فللمدينة أسواقا عديدة، زيادة على ما يحتويه السماط "وبها أسواق كثيرة غير السماط المذكور.

أما الناحية الزراعية فإن فياضنات وادي بيطان، جعلت المحاصيل تتمكن من المياه اللازمة لها، وتنتج إنتاجا وفيرا من الحبوب والكتان والقطن يقول البكري "ونهرها بيطام إذا حمل سقي جميع بساتينها وفحوصها ويقول أهلها "بيطام بيت الطعام" لجودة زرعها(12).

9. مقرة :

توجد هذه المدينة بمحذاه جبل الحضنة، على الطريق المؤدي من طبنه إلى مسيلة، والذي يؤدي أيضا إلى قلعة بني حماد. إن خصوبة أراضي الناحية وتوفر كميات هامة من الماء لسقي، جعلت البيزنطيين يهتمون بتأمينها فأنشؤوا بها العديد من التحصينات الصغيرة، مؤمنين الطريق الهام لرابط ما بين الحضنة وسطيف، أما مقرة البيزنطية فكانت وظيفتها اقتصادية أكثر منها إستراتيجية، ذلك أن حصني زابي وتوبني "Tubunca" لعبا الدور العسكري والأمني.

بقت المدينة في العهد الإسلامي تلعب دورها اقتصاديًا، وعندما أصبحت طبنه عاصمة للزاب في النصف الثاني من القرن الثامن، بقت تعتمد على بعض الحصون الصغيرة في الدفاع عليها. أما في القرن الحادي عشر فقد تبعت المدينة من الناحية الإدارية قلعة بني حماد، فازدهرت من الناحية الاقتصادية وقد جاء في وصفها عند البكري : "ومن طبنه إلى مدينة مقرة وهو بلد كبير ذو ثمار وانهار ومزارع ومنها إلى قلعة أبي طويل، أما من باغاية إلى بلد بسكرة فأربعة أيام"[(13)].

10. بسكرة :

توجد هذه المدينة على الطريق الهام الرابط بين القيروان والزاب، على مرحلة من طبنه غربا وعلى أخرى من تهودا جنوبا، لقد استعمرت ناحيه بسكرة من طرف الرومان الذين عملوا على تأمينها، ببناء العديد من التحصينات الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، لكن فسكرة "Vescara" القديمة اختفت ولم يبقى من أثارها شيء. أما عن بسكرة أيام الفتح الإسلامي فيظهر أنها كانت في مرحلة أفول، فالنصوص تذكر باديس وتهودا كمراكز كبيرة ولا تعير اهتمام ببسكرة، فهل هجرها سكانها وتخرب عمرانها ؟

في العهد الأغلبي أحيطت المدينة أحيطت بسور وخندق، وعرفت نموا عمرانيا ونشاطا اقتصاديا كثيفا، فالبكري يقدم لنا وصفا للمدينة أيامه يقول، أنها كوره فيها

مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة وهي مدينة كبيرة. "وملاحظ أن البكري لم يستعمل مصطلح كرة لذكرأي مدينة من المدن الجزائرية في عهده. ومن هذا المعنى نفهم أن المدينة كانت عاصمة لرستاق أي لعمالة،وأنها كانت في القرن الحادي عشر على رأس هرم مدن الناحية من حيث الأهمية[14]، وبسكرة مدينة كبيرة مسورة وعليها خندق، فهي بهذا تماثل كل مدن المغرب الأوسط التي كانت محصنة،إلا أنها تمتاز عن غيرها من مدن الشمال،بوجود الخندق الذي يزيد من تحصين المدن السهلية، أما عن أهم معالم المدينة فيقول الكاتب" وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات "وقد توسعت المدينة من الناحية العمرانية خارج الأسوار، بأرياض واسعة خارج الخندق، وللمدينة أبواب ثلاثة أهمها باب المقبرة وباب الحمام، أما شرب أهلها فمن الآبار ومن نهر كبير يجري في جوفيها منحدر من جبل أوراس،وداخل المدينة يوجد جنان يدخله الماء[15].

أما من الناحية الاقتصادية فناحية المدينة كانت تنتج كميات كبيرة من التمور، اشتهر منها الكبسا والياري الذي خصص للخلفاء الفاطميين حسب البكري، ولها إنتاج وافر من الزيتون والثمار المختلفة الأخرى.

أما من الناحية المنجمية فالمدينة اشتهرت في القرن الحادي عشر،بجودة نوعيه ملحها الذي يستخرج من جبل الملح وكان يستعمل في مطابخ قصور القيروان ولطعام الخليفة.

اشتهر أهل المدينة بالعلم، وهم على مذهب أهل المدينة. علما أن مدن كورة بسكرة كثيرة منها : جمونه وطولقة ومدينة مليلي.

11. بنطيوس :

توجد. هذه الواحة على مسيرة مرحلة من بسكرة في اتجاه الجنوب الغربي، كانت تابعة لبسكرة يقول عنها البكري":وهي من بنيان الأول"[16]، ويؤكد ذلك علم الآثار حيث يشير قزال إلى وجود قصر يسمى قصر جريانه وهو حصن مربع مبني بالصخر طول ضلعه 80 م أحيط بخندق[17].

12. قرية مشلون :

وقد اشتهرت هذه القرية في كورة بسكرة بعلمائها الأجلاء مثل أبو عبد ألله المشلوني[18] وابنه إسحاق، الذين كانوا من الأقطاب التي تشع بعلمها على هذه المنطقة، وقد سمع عنهما أبو عبد الله بن ميمون ومقاتل وأخرين كثر.

5. وصف مدن طريق آخر بين القيروان والقلعة.

وتحت عنوان طريق أخر من القيروان إلى قلعة أبي طويل، يورد لنا الكاتب بصفة مقتضبة عدد من المحطات الجزائرية الواقعة على هذا المسلك الهام، أهمها مدينة تيجيس.

1. مدينة تيجيس :

هذه المدينة الأولية، كانت مكان إقامة الدوق الذي كان يقود القوات البيزنطية أيام الفتح الإسلامي أما بعد الفتح الإسلامي فقد دخلت المدينة في أفول، بينما ازدهرت باغايه التي كانت تقطنها حامية من الجند، وقد عاد لتيجيس الازدهار الاقتصادي والنمو العمراني في العهد الأغلبي، ولعبت المدينة دورا هاما في عهد الفاطمي وأيام الزيرين والحمادين، جاء وصف البكري للمدينة مختصرا حيث يقول : "وهي مدينة أولية شامخة البناء كثيرة الكلاء والربيع". كانت مدينة تيجيس تابعة لباغايه ثم إلى قسنطينة في أواخر القرن العاشر، وأخذت نوع من الاستقلالية أيام الزيرين، ومن مدينة تيجيس يدخل المسافر إلى بلاد كتامة حيث يصل إلى مدينة تويوت، ومنها إلى مدينة تابسلكي ومنها إلى مدينة تامسلت وهي مدينة جليلة الزرع والدرع. ومنها إلى مدينة دكمة وهي على نهر كبير ذات مزارع ومسارح. ومنها إلى الغدير الذي تخرج منه عيون نهر سهر"القصب" الآن، وهو النهر الذي يسقي المسيلة[19].

2. وصف مقتصر للتجمعات السكانية الواقعة على طريق قيروان بونة.

بعد ذكر المدن الواقعة في الأراضي التونسية وقبل البدء في وصف بونه، يقدم

لنا الكاتب لمحة عن النسيج العمراني للمنطقة حيث يقول : أن المسافر يمر مسافة خمسة أيام في بلاد كثيرة القرى والعمارة.

3. مدينة بونة :

إن بونة القرون الوسطى مكونة من مدينتين إحداها القديمة (Hippo)[20]، وكانت تسمى في العهد الإسلامي بمدينة الزاوي، أما الحديثة فكانت على بعد ثلاثة أميال من الأولى. يصف البكري مدينة عنابة وصفا مطولا كما جرت العادة عنده عند ذكر المدن الهامة، على أنه لا يصفها بكونها كبيرة أو جليلة أو عظيمة كما فعل مع بعض المدن السابقة الذكر كبسكرة.بل يقول عنها" :ومدينة بونة أولية. .. على ساحل البحر في نشر من الأرض منيع مطل على مدينة سبوس، وتسمى اليوم مدينة الزاوي وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال"، وبالمدينة الحديثة مساجد وأسواق وحمام، وقد سورت المدينة في العهد الاسلامي بعد سنة 450 هـ، أما شرب أهلها فمن بئر غزير مائها محفورا في الحجر الصلد، كما يوجد بغرب المدينة ماء سائح "أي واد" يسقي بساتينها وهو منتزه حسن، ومدينة بونه بحرية برية، وافرة الإنتاج الزراعي من لحم ولبن وحوت وعسل، ثم يورد الكاتب أن جوء المدينة موبوء يصح فيه السودان ويسقم فيها البيضان.

يعتمد ا اقتصاد اعتمادا أساسيا على إنتاجها الزراعي الوافر، وعلى مساهمتها الفعالة في التجارة الدولية "تجارها أندلسيون" حسب قول البكري. ومستخلص بونه غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار.وهذا دليل بالأرقام على أن اقتصاد المدينة كان قويا، وأنها كانت تحت السلطة المباشرة للدولة، أما شرقي المدينة فيذكر لنا الكاتب مدينة مرسى الحزز.

4. مدينة مرسة الحزز :

يبدأ البكري بتقديم الموقع الاستراتيجي للمدينة بقوله : "وهي مدينة قد أحاط بها البحر، إلا مسلك لطيف ربما قطعة البحر في الشتاء عليها سور"[21]. فالمدينة إذن محصنة بالبحر يصعب التمكن منها برا، كما كان الحال بالنسبه لمدينة المهدية

بتونس. ثم يتحدث الكاتب على أهمية المدينة الصناعية والجهادية فيقول":بها سوق عامرة وقد صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة، وفي هذه المدينة تنشأ السفن والمراكب الحربية التي تغرى بها إلى بلاد الروم، وهذه المدينة يقصدها الغزاة من كل أفق لآن مقطعها يقرب جزيرة سردانية. "ثم يتكلم لنا الكاتب عن بعض نقائص المدينة حيث أنها كثيرة الهوام والحيات، هؤائها فاسد، مما يؤثر في صحة سكانها سلبا فهم صفر الأوجه، أما جباية المدينة فنصف جباية بونة أي عشرة آلاف دينار، والملفت للنظر إغفال البكري للدور الهام للمرجان في اقتصاد المدينة.

6. وصف المدن الواقعة على طريق الواصل بين القلعة وتنس :

1. مدينة المسيلة :

يقول عنها البكري : "مدينة المسيلة مدينة جليلة على نهر يمسى بنهر السهر، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة 313 هـ، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن يسماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي "... وقد حصنت المدينة بسورين يجرى بينهما جدول ماء جار، يدور حول المدينة يسقيها عبر منافذ حددت لذلك. إزدهرت الحياة الاقتصادية في المدينة حيث اشتهرت بأسواقها العامرة وحماماتها، ولها بساتين كثيرة، ولها إنتاج وافر من القطن، كثيرة اللحوم، رخيصة الأسعار[22].

2. مدينة غدير وارّوا :

توجد هذه المدينة على ملتقى طريقين هامين هما :

أ - الطريق الواصل بين سوق حمزة وطنبه على مرحلتين من المدينة.

ب - الطريق الواصل بين دكامة والقلعة والمسيلة[23].

لعبت المدينة أثناء العهد البيزنطي دورا هاما في تأمين المنطقة، فهي من أهم الاستحكامات الدفاعية عن غرب موريطانيا السطايفية، وكانت[24] في العهد

البيزنطي مهمة جدا من الناحية الاستراتيجية، إلا أن دورها تراجع بعد الفتح الإسلامي. فيقول عنه البكري : بمدينة الغدير جامع وأسواق عامرة، وفواكه كثيرة رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار،قنطار عنب فيها بدرهم، وسكانها هوارة يعتدون بستين ألفا"[25]. ومدينة الغدير ما بين سوق حمزة وطبنة تسير مرحلتين، وتسير من مدينة المسيلة إلى نهر يقال له جوزة ومن جوزة إلى مدينة أشير.

3. قرية طرفلة :

هذه البلدة لم تذكر إلا في كتاب البكري، وهي موجودة شمال الغدير، ويرجع تاريخ تأسيسها إلى المرحلة القديمة قبل الفتح الإسلامي[26]. وقد وصفها البكري بلقوله":وبشرقي مدينة الغدير قرية أولية يقال لها طرفلة، لا تعدل لها قرية وهم يقولون - طرفلة طرف من الجنة".

4. مدينة أشير[27] :

لقد عمل الخليفة القيم على التحالف مع صنهاجة للوقوف أمام الخطر الزناتي الداهم، واستند على زيري بن مناد الذي أظهر الحنكة والشجاعة لتحقيق هذا المشروع الهام. وكان على هذا الأخير أن يوحد صنهاجة، وأن يبدأ في تحضير ركائز إمارته، فأسس مدينة أشير في جبال التيتري سنة (324/35) مساعدة مادية ومعنوية من طرف الخليفه[28].

يصف البكري إذن مدينة أسست في زمان قريب من زمانه من سلطة كانت تحكم أيامه، وهذه الاخيرة كانت منطلق قبيلة صنهاجة نحو تأسيس دولة ستحكم ثلثي المغرب الأوسط. ويبدأ الكاتب الحديث عن الأمر الذي شدّ انتباهه فيقول عن موقعها : "وهي جليلة" حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال، وهو في شرقيها الذي ينفد إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الأقدام وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة لها دائرة عليها وبداخل مدنينتها عنيان

ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر إحداهما تعرف بعين سليمان والخرى بعين تالانتيرغ"[29].

إذن أعجب البكري كثيرا من موقع المدينة المحصن طبيعيا، والذي ما زال يعجب إلى يومنا الكثير من الزائرين، وقد أكدت الاستكشفات الأثرية والحفريات، ما أورده البكري عن أن المدينة كانت محصنة طبيعيا، وأن سورها إنما بني لتقوية بعض نقاط الضعف التي لم تكن محصنة طبيعيا كما يحب. أسست المدينة على صخر عال يصعب تسلقه تحيط به الجبال العالية من كل جهة، بحيث لا وجود لمكان يتسع لجيوش الجرادة، وبداخل المدينة مصدر لمياه الشرب متكون من عينان ثرتان، لا يبلغ لهما غور[30] ولا يدرك لهما قعر. وهما بذلك تقدمان كميات من مياه الشرب لا يستهان بها في حالة حصار المدينة[31]. ويظهر أن المدينة كانت قليلة المياه رغم ما ورد في النص من تأكيد لضخامة منسوب العيون، وهذا ما ستؤكده المصادر متاخره عن زمان البكري، وما ستشهد به الحفريات التي أجريت في موقع المدينة في القرن السابق، والتي أظهرت أن سكان المدينة كانوا يخزنون مياه الأمطار الساقطة على سقوف ديارهم في صهاريج ويستهلكونها عند الحاجة.

ثم يقول لنا البكري. أن المدينة مسورة، ويعطينا تفاصيل عن بناء سورها فيقول : "والذي بني سورها بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاثمايه (367 هـ). "ويقدم أيضا تفاصيل عن أفول المدينة وخرابها[32]"من طرف يوسف بن حماد ابن زيري واستباح أموالها وفضح حرمها وذلك بعد أربعين وأربع مايه ثم تراجع الناس إليها بعد (455 هـ).

أما المتوجه من أشير إلى مليانه فإنه يمر بقريتين هامتين هما سوق[33] هوارة وسوق كرم والملاحظ أن هتين القرنيتين كانت ذات أهمية تجارية، وإلا ما ذكرهما البكري والملفت أيضا أن المؤلف لم يهتم بقديم صفة هذه القرى أو حتى منتوجاتها.

5. مليانة :

ومن المدن الهامة التي اعتمد عليه الزيريون ومن بعدهم الحماديون مدينة مليانة[34]، التي دخل تجديدها وإزدهارها في مشروعهم التوسعي نحو الغرب وفي تأمين فتوحاتهم ضد زناته، قد وصف البكري المدينة وصفا مختصرا جاء فيه : "وهي (أي مليانة) مدينة رومية فيها أثار وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها أرحاء جددها زيري بن مناد واسكنها إليه بلحين"[35].

6. مدينة الخضراء :

الخارج من مليانة يتجه إلى مدينة الخضراء[36] وهي مدينة جليلة على حسب راي البكري. وهي على نهر إذا حمل دخل بعضها"، وللمدينة بساتين وأراضي زراعية تسقى بمياه النهر ولا ندري لماذا أسهب البكري اسهابا مخلا في وصف هذه المدينة. هل لآن المدينة كانت صغيرة قليلة الأهمية اقتصاديا، أو لأنه لم يتحصل من مخبرية عن معلومات كافية حولها.

7. مدينة بني ورايفن.

هذه المدينة قديمة حسب البكري، أي أنها أسست قبل الفتح الإسلامي كما أن البكري لم يحدد رتبة المدينة وقيمتها، فهذه المدينة لم يصفها بكونها عظيمة أو جليلة كما جرت عنده العادة في وصف بعض المدن المهمة، ثم إنه لم يقدم لنا لمحة عن نشاطها الاقتصادي ولا الزراعي بل اكتفى بذكر أنها "واسعة المسارح قليلة الكلأ"[37]، وكل هذا يدفعنا إلى القول إلى أن ورايفن كانت بلدة يهّم أهلها بنشاط تربية الحيوانات أكثر من اهتمامهم بالنشاطات الأخرى.

ومن مدينة ورايفن ينتقل المسافر إلى مدينة قارية.

8. مدينة قارية :

وهي مدينة لطيفة "أي صغيرة" ذات عيون ولا نجد عند البكري حول هذه البلدة سوى أنها ذات عيون ماء، ونحن نعرف أن وفرة الماء أمرا هاما لمن يريد السفر في

بلاد المغرب وخاصة في الفصول الحارة منها(38).

9. مدينة تنس :

يصف البكري هذه المدينة وصفا وافيا، لكنه رغم ذلك لا يصفها لا بالعظمة ولا بالجلال ولا بالمناعة، كما وصف بهذه النعوت المدن المهمة الجزائرية في عهده، لكنه يقدم لنا معلومات هامة حول موقعها فهي على مسافة من البحر "تنس بينها وبين البحر ميلان... وهي على نهر يسمى تناتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم يأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق، ويريق في البحر" فالمدينة إذا بريه إلا أنها على اتصال بالبحر عن طريق مجرى ألواد، أي أن المدينة يحصنها مجرى ألواد، الذي يحيط أغلب جهاتها فكأنه خندق طبيعي يزيد من حصانتها، وهي في نفس الوقت تستفيد من ميزات البحر في الصيد والتجارة إلا أنها لا توجد على ساحله وبتالى تكون بعيدة عن هجمات الغزاة المسيحيين الذين قد يطيلونها بأذائهم.

أما الصفة العامة للمدينة فحصانتها الطبيعية، بوجود السور الذي يحميها والواد الذي يعيق من يريد الهجوم عليها. زد على ذلك وجود مكان ممتنع عال بداخل السور خصص لإنشاء القلعة، فهذه الأخيرة إذن في غاية التحصين، حيث استفادت من تحصين المدينة بمجرى الوادي والسور، ومن مكانها الممتنع وأسوارها العالية، هذا الموقع الفريد للقلعة جعل موظفي الدولة يتخذونها مكان لإقامتهم وعملهم.

بعد وصف تحصينات المدينة يعود البكري لذكر أهم معالمها "بها مسجد جامع وأسواق كثيرة... وبها حمامات وتنس هذه هي التي تسمى تنس الحديثة"، علما أن وجود هذين المنشأتين هي من الميزات التي تفرق المدينة عن القرية وبما أن المدينة مكونة من مجمعين عمرانيين كما كان الحال بنسبه لمدن جزائرية كثيرة تعود إلى تلك الحقبة كبونه، وجيجل وتاهرت، فإن البكري يحدد المدينة التي وصفها بكونها المدينة الحديثة، ثم يصف لنا المدينة القديمة بقوله "وعلى البحر

حصن يذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة"[39] ليعود ويكمل وصفة للحدثية فيذكر مؤسسيها وهم على حسب قوله بحارة من الأندلس منهم الكركرني وأبو عائشة الصقر وصهيب وغيرهم وذلك 262 هـ، علما أن مساهمة أهل الأندلس في تأسيس وتجديد وتمصير الكثير من المدن كانت كبيرة.

أما سكان المدينة ففرقتين من الأندلس هما أهل مدينة الميرة وأهل تدمير، سكانها وأصحابها من الجزائريين من أولاد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي.

يحدد البكري مراحل نمو وتطور مدينة تنس بمرحلة استقرار الأندلسيين بميناء المدينة[40] "وكان هؤلاء البحارة من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس، في مرسى على ساحل البحر، فتجمع إليهم برير ذلك القطر، ورغبوا في الانتقال إلى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة وللعشرة فأجابوهم إلى ذلك وانتقلوا إلى القلعة وخيموا بها".

وقد تبعت مرحلة الاستقرار هؤلاء للأندلسيين بالميناء الاتفاق مع أصحاب المكان على تأسيس المدينة حول القلعة[41]، وبعد قبول الأندلسيين لعرض خيموا أول الأمر قرب القلعة[42]. والتحق بهم قوم مِن مَن جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم وخيموا هناك، إلا أن الوباء أصاب أهل المدينة مع دخول الربيع، فإستوبؤا المناخ وغادر بعضهم المدينة وبقي البعض الأخر.

أما المرحلة الثانية في نمو المدينة فتبدأ بعد مرحلة الأفول التي تبعت هجرة جزء من سكان المدينة بعد انتشار الوباء فيها، يقول البكري : "فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبؤا الموضع فركب البحريون من أهل الأندلس مراكبهم وأظهروا لمن بقي منهم أنهم يمتارون... أما الباقون في تنس فلم يزالوا في تزيد ثورة وعدد، ورحل إليهم أهل سوق إبراهيم وكانوا في أربع ماية بيت، وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن

الذي فيها اليوم". عرفت المدينة في هذه المرحلة اتساعا من حيث النسيج العمراني، وازدهرت اقتصاديتها وساهمت مساهمة فعالة في التجارة الدولية، الأمر الذي جعل منها مرحلة مهمه على المسالك البرية والطرق البحرية لذلك الزمان.

ثم يذكر البكري أبواب المدينة في زمانه فيقول "ولها بابان إلى القبلة باب البحر وباب ابن ناصح وباب الخوخة شرقى" وخارج باب الخوخة توجد عين غزيرة المياه.

7. وصف المدن الموجودة على الطريق الواصل بين القيروان ومرسى الزيتونة :

ذكر البكري المدن الهامة الموجودة على مقطع من الطريق العظيم، الذي كان يوصل بين مختلف أرجاء المغرب، وهذا المقطع كان يربط ما بين القيروان عاصمة إفريقية الزيرية ومدينة مرسى الزيتونة. تنطق الطريق من مجانة وقد سبق ذكرها في الجزء الذي خصص المقطع الطريق الموصول بين القيروان والقلعة[43] ثم يكمل وصف مدينة تيجيس[44] الذي تقدم ذكرها فيقول "مدينة تيجبس عليها سور صخر رومي، ولها ربض وبها أسواق وجامع وحمام، وبها قبائل البربر نفزة وورغروسة وبنو اوكزنايه وحمزة من زناته، ثم تسير من مدينة تيجبس إلى مدينة قسنطينة"[45].

1. مدينة قسنطينة :

أما مدينة قسنطينة فيقول عنها أنها أولية كبيرة أهله ذات حصانه ومنعه، ليس يعرف أحصن منها وقد استعمل المؤلف هذه العبارة لمدن أخرى كأشير حيث يقول "وهي جليلة حصينة، يذكر أنه ليس بتلك الأقطار أحصن منها"[46]. كما يؤكد البكري كلامه حول هذه الحصانة الطبيعية المتميزة بقوله "وهي على ثلاثة أنهار تجرى فيها السفن قد احاطت بها... وتقع هذه الأنهار خندق بعيد القعر متناهي البعد" أما الوسيلة الوحيدة التي توصل ("جزيزة" قسنطينة أن صح القول) بما جاورها من يابسة فقنطرة، تعد معلما من معالم العمارة إذن "تقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر

متناهي قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بني عليها قنطرة ثانية ثم على الثانية ثالثة من ثلاث حنايا ثم فوقهن بيت ساوى حافتي الخندق يعبر عليه للمدينة"، ويظهر أن هذه القنطرة أعجبت البكري فأطال في وصفها وبالمدينة أسواق جامعة ومتاجر رابحة، أما سكانها فمن قبائل نفزاوه وقسطينية وكتامة ومن أهل مدينة ميلة.

2. مدينة ميلة :

أما مدينة ميلة فيبدأ البكري وصفه لها وهي في المرحلة التي عرفت فيها الخراب وتهديم سورها وتفريغها من السكان وتسيرهم إلى باغايه على يد المنصور بن بولوكين سنة (378 هـ)، وبقيت المدينة على حالها هذا مدة من الزمن، ثم عمرت من جديد ويقول البكري "إن عليها سور صخر وحولها ربض ولها جامع وأسواق وحمامات، ثم يتعرض إلى ريف المدينة فيقول أنه مسقي بمياه جارية، وسكانها من الجند العرب والمولدين، كما يشرب أهلها من المياه المجلوبة من جبل بني ياروت، وقد جاء في النص" ويليه "أي باب القبلي"[47] داخل المدينة عين تعرف بعين أبي السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بني ياروت يشق منها سوقها ساقية، فإذا قل الماء في الصيف أجريت يوم السبت والأحد من الجمعة لا غير". وللمدينة حمامات بريضها ومن أبوابها باب الرؤوس على مقربة من جامعها وهو ملاصق لدار الإمارة وباب جوفي يعرف بالباب الداخلي.

8. وصف مدن الطريق الواصل بين أشير إلى مرسى الدجاج.

وأول مرحلة في هذا الطريق قرية شعبه منها إلى مدينة حمزة "البويرة"

1. حمزة[48] :

وهي مدينة البويرة اليوم، أسسها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بني علي بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهي مدينة عليها سور وخندق ولها أبار عذبة وهي لصنهاجة، تخرج من حمزة إلى بلياس.

2. مرسى الدجاج :

يذكر البكري اسمها مجردا فلا يقول أنها جليلة أو لطيفة، أما موقعها فهي على شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاثة جهات، عليها سور مضروب من الضفة الشرقية لضفة الغربية، وهي الجهة التي يدخل منها إلى المدينة لأنها المقابلة لليابسة، ويدخل إلى أسواقها ومسجدها الجامع من بابها الوحيد، أما مرفأ المدينة ففير مأمون وشرب ماء أهلها من عيون طيبة. يسكنها الأندلسيون وقبائل من كتامة. في شرق المدنية مدينة أبي جناد وهي صغيرة وهناك مدن صغيرة أخرى بجوار مرسى الدجاج، كسوق ماكسن الموجود على وادي الشلف والتي يقول عنها المؤلف "وهي مدينة على وادي الشلف لصنهاجة عليها سور ولها عيون إلى سوق حمزة..." ومنها إلى مدينة بني أجناد.

9. وصف المدن الموجودة على الطريق الواصل بين أشير إلى جزائر بني مزغنة وأهم مراحله.

المدية وهي بلد قديم، ولا يزيد البكري شيء عن هذه المعلومة تليها فزرونه.

1. فزرونــه :

وهي مدينة قرب البليدة الحالية يقول عنها البكري أنها "مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين، ويقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح، وهي أكثر تلك النواحي كتانا، ومنها يحمل وفيها عيون سائحة وطواحين[49]، ومنها يسير المسافر إلى مدينة أعرز".

2. مدينة جزائر بني مزغنه :

وهي على حسب البكري "مدينة جليلة قديمة البنيان فيها أثار للأول"، هذا كله يدل على مستوى معين من النمو العمراني، فالمدينة رغم أنها أسست في المرحلة التي سبقت الفتح الإسلامي، إلا أنها جليلة أي تتصدر السلم الهرمي لمدن المغرب مع كونها

متحضرة. وفي المدينة آثار أولية قديمة باقية على رونقها حتى زمن البكري، يذكرها بقوله" فيها آثار للأول وأزاج محكمة، تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار، مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يخيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون"[50].

ثم يتحدث لنا البكري عن كنيسة كانت للنصارى بالمدينة بقوله "وكانت بمدينة بني مزغنى كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبله الشريفة للعيدين".

أما معالم المدينة فمسجدها الجامع وأسواقها العامرة، ومرساها مأمون له عين عذبه يقصد إليه أهل السفن من إفريقية والأندلس وغيرها.

10. وصف المدن الواقعة بين القيروان وتنس:

ثم نصل إلى الفقرة من النص التي تتحدث عن المدن الجزائرية الواقعة بين مدينة القيروان أم مدن إفريقية ومدينة تنس إحدى المدن الجزائرية المتوسطة، فيذكر مدينة العزة بعد أن ذكر لنا عدد من الحواضر التونسية ويذكر بعد هذه المدينة تاجنه.

1. مدينة تاجنة :

وهي مدينة على بعد حوالي 10 أميال مني جنوب غرب تنس"[51] سهيلة أهلة عليها سور بها جامع، سكانها برفجانه وحولها كزيانه، ومن مدينة تاجنة إلى مدينة تنس فإن أردت العزة إلى مدينة تاهرت فمن مدينة تاحموت على مضيق مكناسة إلى عين الصبحي عين حزارة في سفح جبل لمطماطة إلى تاغريبت إلى تيهرت ولا يعلمنا البكري هل تاحمونت وتغريت مدن أم قرى أما منازل قبائل بدونه"[52].

2. تاهرت :

أما تاهرت فمدينتين قديمة وحديثة والبكري وصف لنا الحديثة مطولا لأنها كانت الأكثر ازدهارا ونموا زمانه ويبدأ وصفها من الخارج إلى الداخل حيث يذكر

"ومدينة تاهرت مسورة لها ثلاثة أبواب، باب الصبا وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها وهي في سفح جبل يقال له جزول ولها قصبه مشرفة على السوق تسمى المعصومة" أما شراب أهلها ومياه سقي حقولها وبساتينها" وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينه، وهو في قبليها ونهر أخر يجرى من عيون تجتمع تسمى تاتش... وهو في شرقيها. "أما بداخل المدينة فأهم معلم هي قصبة تسمى المعصومة تشرق على سوقها[53].

ويعود المؤلف لذكر جامعها لكنه قبل وصف هذا المعلم يذكر الظروف الصعبة التي أسست فيها المدينة[54] والتي لن نذكرها في هذا المكان ويقول واصفا لها "ويقال أنهم لما أرادوا بناء تاهرت كانوا يبنون النهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنياهم قد تهدم. فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة"، أما جامع المدينة فهو حسب قوله "وهو مسجد جامعها وهو من أربعة بلاطات"[55]. ثم يذكر البكري المدينة الثانية أي تاهرت القديمة "وهي حصن لبرفجانه وهو في شرقي الحديثة" وهذه المدينة حصن بزنطي في الأصل لم يكن يحتوي على الماء وهذا الأمر هو الذي جعل عبد الرحمن بن رستم يبتعد عليها.

كما تشهر المناطق المجاورة للمدينة والمنتجة لميرتها بكثرة إنتاجها من الحبوب ومختلف الثمار، ويتميز سفرجلها بنوعيته الجيدة فهو "يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ومشما، وسفرجلها يسمى بالفارس".

أما الواصلية الذين كانوا يقطنون بجهة تاهرت فيقول عنهم "وكان مجمع الواصليه قريبا من تاهرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها". وكان موضع المدنية لقوم مستضعفين، طلب منهم عبد الرحمن بن رستم شراءه منهم فأبوا "فوافقهم على أن يؤدوا إليهم الخراج من الأسواق ويبيحوا بنيان المساكن فاختطوا وبنوا وسمي الموضع" معسكر عبد الرحمن "وبالمدينة حمامات وأسواق عامرة وحولها مواضع تقطنها قبائل كلواطهبجنوبها الشرقي،

وهوراة بالغرب وزواغة بجوفها ومطماطة وزناتة ومكناسة.

3. مدينة حليداسن :

تحتوي الطريق من تنس إلى أشير على مراحل هامة، منها بني حليداسن وهي مدينة لطيفة أهلها من لمطغرة كان يسكنها الأندلسيون[56] والقرويون، وهي مقسمة إلى عدويتين كما كان حال بالنسبة إلى فاس الأولى للقرويين والثانية للأندلسيين.

4. مدينة الشلف :

مدينة نهرية بها سوق عامرة، تعرف بشلف بني والطيل[57] ملك لقبيلة زواغة[58]، ومن هذه المدينة يتجه المسافر إلى مدينة واريفن لمطغرة[59] على نهر الشلف بها حوانيت، ومنها إلى مليانة.

5. مليانـة :

وهي من المدن القديمة التي جددها الزيريون وأعاروا لها اهتماما كبيرا، وجعلوا منها نقطة مركزية في استحكاماتهم العسكرية الغربية الموجهة للوقوف ضد زناتة عدوهم التقليدي[60]. وقد وصفها البكري وصفا مطولا، إذا ما قرنت بالمدن الأخرى، ويرجع ذلك بدون شك إلى أهميتها في عهده، وقد جاء في ذكرها "إلى مدينة مليانة وهي أوليه شريفة جددها زيري من مناد وأسكنها ولده بلجين" والمدينة كما هو الحال في عموم مدن صنهاجة ذات موقع استراتيجي متميز فهي حسب المؤلف "مشرفة على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنو واريفن وغيرهم". أي أن المدينة تحرس السهل الكبير الغني بانتاجه الفلاحي والذي تتخلله طرق تجارية يمر بها التجار وتستعملها الجيوش المعادية، أما عن سكانها فهم كثر يعتمدون في تلبية حاجتهم من مياه الشرب والسقي على الأبار والنهر المجاور، أما عن النشاط التجاري لهذه المدينة فلا يذكره البكري بل يكتفي بذكر سوقها الجامع، كما يهمل ذكر معالمها الأخرى (الجامع والحمامات).

ويعود البكري لذكر مقطع من الطريق الذي يربط تاهرت بالساحل : "وأن أردت شلف بني واطيل ومن هناك إلى البحر فإنك تمر بين قبائل البربر حتى تاتي شلف

بني واطيل، ومن هناك إلى العزة يومان والعزة ساحل تاهرت وبالقرب من هذا الموقع على البحر قلعة مغيلة دلول ,هي في أعلى جبل منيف هناك شديدة الحصانة بينها وبين البحر خمسة فراسخ وبها عين ماء تسمى عين كردس"[61] وبين هذه القلعة ومدنية مستغانم مرحلة.

6. مدن إقليم مستغانم :

ومن المدن الساحلية المتوسطة التي يوصل إليها هذا الطريق مدينة مستغانم، وهي مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء، والمدينة تقع قرب مصب نهر الشلف الذي كان وما زال أعظم نهر في الجزائر، تحف جوانبه العديد من المدن والقرى، وهو يسقي أراضي سهلية واسعة الأمر الذي يجعلها تنتج محصولات تحتاج إلى كثير من الماء كالقطن الذي كان ينتج في جهة المستغانمية بكثره.

وتوجد على مقربة من مدينة مستغانم على ثلاثة أميال منها بالتحديد، مدينة تامزعران وهي كما جاء في النص، مدينة مسورة لها مسجد جامع، وعلى مقربة منها قلعة هوارة التي تدعى تاسقدالت تقع هذه القلعة على قمة جبل، وتبعها أراضي خصبة ذات محاصيل متنوعة، وبأسفل الجبل الذي أنشأت عليها القلعة يسير نهر سيرات، الذي يسقي السهل الذي يحمل نفس الاسم، والذي تميز بشساعته "يسقي به" أي نهر "فحص سيرات وطول الفحص نحو أربعين ميلا ليس منه شيء لا يناله ماء هذا النهر"[62].

أما بساحل هذا السهل فتوجد مدينة أرزاو الرومية، وهي خالية غير مؤهولة إلا أن أثارها القديمة مازالت شاهدة عن ما ضيها التليد، وقرب هذه المدينة جبل غني بمعدن الحديد والزئبق يحتوي على ثلاثة قلاع، ومن هذه المدينة إلى وهران أربعين ميلا.

7. وهــران :

أما وهران فتعجب البكري في حصانتها ومياهها السائحة ثم يعود لذكر مؤسسيها وهم محمد بن أبي عون ومحمد بن عون ومحمد بن عبدون وجماعة من أهل ألأندلس البحارة، التي جرت عندهم العادة زيارة ميناء المدينة وذلك برضا

قبيلة مزنة وبني مسقن، أسست المدينة سنة 290 هـ وخرجت بعد فتن سنة 297 هـ، لكنه أعيد ترميمها على أحسن حال مما كانت عليه في السنة الموالية، وبقت على عمارة وكمال، ثم خربت من جديد من طرف يعلى بن محمد بن[63] اليفريني سنة 343 هـ، وعادت المدينة إلى حالها.

الطريق من وهران إلى القيروان :

يخرج المسافر من مدينة وهران التي كانت تعتبر من المدن الساحلية الهامة زمن البكري، إلى قرية تانسالمت[64] وهي قرية لأزداجة لها سوق وعين عذبة، ومنها إلى جراوة لعزيزوا[65] وهي سوق عبدون ابن سنان الأزداجي، ومنها إلى قصر سنان ثم الجادة، أما الشطر الثاني من الطريق ففيه قرية ثم سوق ثم قصر إلى الجادة وهي الطريق السريع في ذلك الحين.

وهناك طريق آخر يمر بقصر سنان 12 إلى العلويين وهي مدينة يعلى بن باديس، مسورة على نهر كبير.

1. مدن بنطيوس :

وهي ثلاثة مدن متقاربة، في كل واحدة منها مسجد جامع، يسكن واحدة العجم من الفرس من بني خرج، أما الثانية فأهلها مولدون والثالثة بربر. تأخذ هذه المدن احتياجاتها من الماء الشروب ومن ماء السقي من نهر جار يأتي من الجهة الغربية. تقع هذه المدن في سهل شاسع تكسوه غابات النخيل وبساتين الزيتون، وعلى كل من هذه المدن خندق وسور، أما بناحيتها الغربية فهناك عدد كبير من القرى.

2. طولقـه :

وهي أيضا مكونة من ثلاث مدن[66]، مسورة بأسوار من طوب وعليها خنادق، تسقى بساتينها من النخيل والزيتون من الأنهار. أما سكان مدنها فمن أصول مختلفة، فواحدة يسكنها المولدون والثانية اليمنيون والثالثة القيسيون، ومن هذه المدن يوصل الطريق إلى بسكرة (التي سبق وصفها).

3. تاهـودا :

وهي المدينة التي استشهد في ناحيتها سيدنا عقبة بن نافع الفهري الفاتح العظيم والصحابي بالمولد، وقد كانت هذه المدينة عامرة أهلة بالسكان زمان البكري، سكانها من العرب ومن قريش(67). أسست في المرحلة القديمة فهي أولية على حسب ما جاء في النص. مبنية بالحجر على عكس المدن الصحراوية الأخرى، التي عادة ما يستعمل في بناءها الطوب. وحول المدينة ربض أحيط بخندق أما داخل المدينة فجامع جليل ومساجد أحياء كثيرة وأسواق وحمامات وفنادق.

تسقى المدينة وريفها من نهر يأتي من شمالها من جبل الأوراس، فيسقى جنائنها فهي "كثيرة الثمار والنخيل والزرع". وكان أهلها إذا ما حوصروا صبوا ماء نهرها في خندقها، فإحتموا به وشربوا منه.

4. باديـس :

كانت مدينة باديس من المدن الهامة استراتيجيا، فهي مكونة من "حصنان لها جامع وأسواق وبسائط ومزارع جليلة يزرعون بها الشعير مرتين في العام من مياه سائحة كثيرة عندهم. ثم يدخل الطريق إلى الأراضي التونسية ثم يرجع البكري للحديث عن المدن الجزائرية، فيذكر مدنية الخضراء الواقعة قرب مدينة تنس، بين هذه الأخيرة ومدينة أغرز، أما أغرز فكانت كبيرة على نهر عليه أرحاء".

5. مدينة سطيف :

لقد لعبت مدينة سطيف منذ العهد البيزنطي(68) وفي الوسيط دورا هاما في الدفاع عن الأراضي التي كانت خاضعة للسلطة، فكانت مدينة استراتيجية(69) ونقطة قوية في المنظومة الدفاعية بإفريقية.حيث أن المدينة كانت تتحكم في سهل وادي السلام، وتراقب جبال البابور، وتحرس الطريق الهام الآتي من غرب البيبان، افتتحها المسلمون بداية القرن الثامن، وقطنت بها حامية من الجند العرب، عملت على تأمين الحدود الغربية للامارة الأغلبية وعلى جمع ضرائب الناحية. لقد

ساهمت هذه المدينة القلعة كبلزمة وميلة في الوقوف أمام المد الشيعي الكتامي، وكان لها دورا هام كنقطة تجمع للقوات الأغلبية. عمل الداعي على السيطرة على هذه المدينة لكونها هي و ميلة أكثر المدن تمثيلا لنظام الأغالبة في المنطقة، وتمكن من دخولها سنة (291 هـ/90463)(70) فهدم سورها وقتل حاميتها، أما في العهد الزيري فقد أصبحت سطيف مدينة كتامة ولعبت دورا هاما في مقاومة السيطرة الصنهاجية.

يصف البكري سطيف بقوله : "مدينة كبيرة جليلة أولية". والمعروف على البكري أنه لا يضفي هذه الأوصاف على المدن بطريقة عشوائية، بل هذه الأوصاف عنده كسلم لترتيب المدن.فالمدينة الكبيرة الجليلة أهم من المدينة الجليلة أو الكبيرة فقط. ثم يعود إلى وصف دفاعات المدينة بقوله" :كان عليها سور خربته كتامة مع أبي عبد الله، لأنها كانت في الأول لكتامة ثم غلبهم عليها العرب فكانوا يعشرونهم إذ دخولها وهي اليوم دون سور"(71).

بقت المدينة بدون سور مدة من الزمن، لكونها فقدت وظيفتها الأساسية بعد تمكن كتامة منها، إلا أنها أصبحت من المدن النشيطة اقتصاديا "عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار" فالمدينة تقع وسط منطقة خصبة كثيرة المنتوجات، توجد بها عدد كثير من القرى والمدن الصغيرة والمتوسطة كلها على صلة تجارية بسطيف.

أما المسافة التي تفصلها على القيروان فعشرة مراحل، وكذلك الحال للمسافة بينها وبين أفرونه، أما مدينة تاناجلت فعلى مرحلة من سطيف، ثم يصف لنا مدينة تاناقلت بقوله : "مدينة لكتامة عامرة آهلة ليس بها مسجد"(72).

6. تلمســان :

وهي من أهم مدن المغرب زمن البكري، ورغم وجود القلعة وأشير فإن هذه المدينة تبقى" قاعدة المغرب الأوسط... دار مملكة زناته ومتوسط قبائل البربر

ومقصد التجار... دار العلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمة الله. "والمدينة مسورة في سفح جبل شجره الجوز، لها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة، وهي باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة وفي الشرق باب العقبة وباب أبي قرة. وبالمدينة مسجد جامع ومساجد وأسواق عامرة، لقد لفت انتباه البكري بالمدينة وجود كنيسة معمورة ووجود جالية مسيحية. أما ماء شرب سكانها فمجلوب من عين تبعد على المدينة بستة أميال تسمى عين لوريط، أما النهر الذي يسقي ريفها فنهر الصفصاف هذا ما ورد عند البكري عن مدينة تلمسان(73).

وفي جنوب مدينة تلمسان توجد قلعة بني جاهل، وهي قلعة منيعة كثيرة الأشجار والبساتين، يتصل بها جبل تارني وهو وما يليه من الجبال كثير القرى المعمورة. وبعد هذا الجبل يصل إلى تيزيل وهي أول الصحراء يتفرع منها الطريق إلى طرق تؤدي إلى سجلماسة وورجلان، ثم تأتي القلعة وهي مدينة معمورة فيها أثار للأول.

7. أرشقول :

توجد هذه المدينة على الساحل ومنها تصدر تلمسان سلعها عن طريق البحر "وأرشقوان ساحل تلمسان" يقول البكري : "وبينها وبين تلمسان سهل واسع يسمى بسهل زيدور طوله خمس وعشر ميلا، وان دّل ذلك فإنما يدل على غنا من الناحية الزراعية، خاصة وان هذا السهل تسقيه أنهار كالتافنا، التافنا هو مصدر المياه التي تحتاجها المدينة وناحيتها للشرب والزراعة، وهو في نفس الوقت يزيد أرشقول تحصينا حيث "يقبل من قبلتها ويستدير بشرقيها" وهو بذلك مسلكا نهريا مهما "تدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة".

أما المدينة فمسورة بها جامع حسن فيه سبع بلاطات وفي صحنه جب كبير وصومعة متقنة البناء، أما من ناحية النظافة العامة ففي أرشقول حمامات، وأبوابها باب الفتوح غربي وباب الأمير قبلي وباب مرنسية شرقي محنية، وعرض سورها

ثلاثة أشبار وأمنع جهاته الجهة الجوفية، وبها أبار عذبة لا تغور تفي حاجة أهلها، ولها ربض من جهة الجنوب الشرقي.

ذكر حصون ساحل تلمسان :

هذه الحصون كانت مهمتها الأساسية الدفاع على سواحل المنطقة من ضربات المسيحيين، ومن هذه الحصون بعد أرشقول.

1. حصن أسلن :

توجد هذه المدينة القديمة شرق أرشقول[74] يحيط بها سور، وبها جامع وسوق لها نهر يصب في البحر تسكنها قبيلة مغيلة.

ومن الحصون المهمة التي تلي مدينة أسلن قصر سنان.

2. حصن تاذكرمت :

وهو على ساحل له مزارع واسعة وبسائط خصيبة.

3. حصن فكان :

وهو عبارة عن مدينة تبعد على أسلن بمرحلتين، كانت هذه المدينة زمن البكري" سوقا من أسواق زناتة فمدنها يعلى بن محمد بن صالح البخريني "وكان ابتداء تأسيسها سنة (338 هـ) وارتحل إليها أهل تاهرت ومعسكر ويلل وشاطئ بني واطيل ووهران وقصر الفلوس[75]، فتمصرت وتمدنت وعظمت. وهي في سفح أوشيلان، والمدينة مسورة بسور طوب، بها جامع وحمام وفنادق، وبينها وبين حصن مرنسية ثلاثة أميال.

4. حصن مرنسية :

وهو عبارة عن مدينة مسورة بسور طوب، بها جامع و حمام وفنادق، وبينها وبين حصن مرنسية ثلاثة أميال وهو حصن حصين ومنه إلى حصن زيني ثلاثة أميال أيضا ولهذا الحصن نهر كثير الثمار ومن بين زيني إلى حصن الغروس ميلان وهو على قمة جبل على ضفة البحر[76]. ومنها إلى حصن الوردانية ميلان وهو على جبل بساحل البحر ومنها إلى حصن هنين أربعة أميال.

5. حصن هنين :

وهو على مرسى جيد مقصود وهو أكثر الحصون المتقدمة بساتين وضروب ثمر تسكنه قبيلة كومية، وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المسمى بتاجرة، والمسافة بين هذا الحصن والجبل ثلاثة عشر ميلا.

6. ندرومة :

تقع هذه المدينة على طرف جبل تاجرة، وهي ذات موقع استراتجي، حيث يمكنها هذا الموقع من السيطرة على سهول واسعة توجد من الناحية الشرقية والغربية للمدينة. تبعد على البحر بعشرة أميال، أما ساحلها فواد مسين وهو نهر كثير الثمار مصبه ميناء مأمون عليه حصنان ورباط حسن يقصده الناس لتبرك، وندرومة مسورة جليلة لها نهر وبساتين

7. مدينة ترنانا :

توجد على مسافة عشرة أميال من مرسى ماسين، وهي مسورة بها مسجد جامع وسوق[77] وبساتين، تبعد على ندرومة بثمانية أميال، ويسكنها بنو يلول فرع من بني دمر. وعلى ساحل ترنانا حصن تاونت منيع في جبل عال قد أحاطه به البحر من ثلاثة جهات، وله مرتقى وعر من ناحية الشرق لا يطمع فيه أحد، ينزله قبيل من البربر من بني منصور، وفي جبل الحصن معدن الأثمد وله بساتين، ومن أهم محاصلها زبيب التين "التين المجفف" الذي يصدر إلى أماكن بعيدة، وعلى الساحل أيضا حصن أبي جنون وحصن كاربيوا.

11. ذكر المراسي الهامة المتواجدة على ساحل بلاد الجزائر:

ثم يذكر لنا البكري المراسي المتواجدة على الساحل، فيبدأ بذكر مرسى أسلن ومنه في إتجاه الشرق مرسى الماء المدفون، وبعيد بثلاثة عشر ميلا عن أسلف وبه بعض المساكن وعيون من الماء، يليه شرقا مرسى عين فروخ وهو مرسى شتوي

مأمون له أبار ماء والسكنى منه قريبة تفصله على وهران أربعين ميلا. ثم يليه مرسى قصر الفلوس وهي مدينة بحرية فيها ماء مجلوب وأبار، أما مرساها فغير مأمون، ثم يليه مرسى مغيلة بني هاشم، وهو صيفي لا يكن من الريح وله رباط على ضفة البحر مسكون، أما ماؤه فغزير وبينه وبين قصر الفلوس خمسة وثلاثين ميلا. ثم يأتي مرسى مدينة تنس وهو صيفي له عيون ماء وبينه وبين المرسى اللاحق مراس لطاف. ثم يأتي مرسى جزيرة وقور على بعد عشرين ميلا وله نهر لطيف يصب في البحر والجزيرة قريبة من البر. ثم مرسى شرشال[78]، وعليه مدينة عظيمة للأول مسكونة وله أحساء ماء علما أن للمدينة فيما مضى ميناء إرتدم، وفي المدينة رباطات يجتمع فيها في كل عام خلق كثير، ويليه مرسى بجبل شنوة يسمى بطال، وهو غير مسكون ثم يأتي مرسى هور، إلى أنف القناطر حيث أثار قناطر قائمة ثم مرسى الذبان، ويليه مرسى جنابيه وله جزيرة وله مدينة للأول غير مسكونة لها نهر يريق بالبحر ويليه مرسى الجزائر بني مزغنى وهو مرسى مأمون مشتى، ثم يلي هذا المرسى مرسى الدجاج وهو صيفي غير مأمون، ثم مرسى بجاية وبجاية مدينة أزلية آهلة عامرة بأهل الأندلس تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون مشتي ثم مرسى بونة مرسى مأمون، ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي طويل ثم مرسى سبيبة في جبال كتامة، ثم جزائر العافية، فمرسى جيجل فيه أثار الأول وهو معمور اليوم[79].

يليه مرسى الزيتونة ثم يأتي مرسى الخراطين، ومرسى الشجرة وفي آخره ومنه إلى مرسى أستورة وهو مرسى مدينة تاسقدة وهي مدينة قديمة، ثم يأتي مرسى الروم وهو مشتى مأمون إلى مرسى تكوش، ومرسى مأمون فيه قرى كثيرة يتصل به جبل كثير الفاكهة ثم إلى رأس الحمراء ثم إلى مرسى ابن الألبيري ثم إلى مرسى الخروبة ثم إلى مرسى بونة المنيع ومنه تخرج الشوافي غازية إلى بلاد الروم ثم مرسى الخرز، وهو آخر مراسي الجزائر يأتي بعده مرسى طبرقة بتونس[80].

ذكر مدن جزائرية أخرى على الطريق من القيروان إلى فاس :

أما في ذكره لأهم مراحل الطريق ما بين فاس والقيروان، فإن المؤلف يذكر بعض المدن التي تطرق إليها سابقا وبعض المدن والقرى والمواقع التي وصفت لأول مرة[81].

ولمعرفة أهمية هذه المدن لابد من القول أن هذه الطريق قسمت لأربعين مرحلة، أشهرها في القطر الجزائري مدينة ترنانة، وهي سوق عامرة مرحلة ومن هذه الأخيرة إلى تلمسان مرحلة ثم إلى مدينة تافده وهي كبيرة آهلة على نهرين، أحدهما يخرج من عين وهو ماء معدني ومنه شرب أهل المدينة وعليه أرحائهم ومن هذه المدينة إلى قصر ابن سنان[82] الأزداجي حوله بساتين كثيرة على نهر كدال إلى مدينة يلل، وهي كبيرة آهلة كثيرة الأشجار تسكنها هوارة، وبها مسجد جامع ومنها إلى مدينة الغرة تسكنها مكناسة وهي مدينة شريفة على نهر الشلف كثيرة الأشجار تسكنها هوارة وبها مسجد جامع ومنها إلى معدنة تاهرت، ثلاث مراحل ويقطع الماضي مرحلتين للوصول إلى حصن تاملغين وهذا حصن المبني بالطوب كان له ربض وسوق، تسكنه فرع من قبيلة زناتة المسمى ببنوا دمر إلى إيزمامة حصن له سوق وفيه فنادق تسكنه لواته ونفزاوة إلى مدينة هاز على نهر شتوي ومدينة هازخالية، أخلى أهلها زيري بن مناء ومنها إلى بورة "نهر جار يسكن حوله بني يزناتن وهم أهل هاز، و بهذا التجمع السكاني سويقة. ومنها إلى حصن موزية قرية قصر من بناء الأول، قرية مدينة خالية من السكان قد بنيت بالصخر، وهناك بالناحية مدينة للأول" أثرية قديمة"، خالية تسمى تاورست ومن حصن موزية يتجه المسافر إلى المسيلة ومنها إلى أدنه وهي مدينة خربها علي بن حمدون سنة 324 م وهي زمن البكري خالية لها بلد كثير الأنهار والعيون العذبة، أما شرقي أدنه فقرى وادي مقرة السبع. منها قرية يكسم وزيتها أطيب الزيوت، أما من أدنه إلى طبنة فمرحلتان يمر المسافر بقرى أوراس إلى باغاية، وهي حصن صخر قديم

حوله ربض كبير من ثلاثة نواحي وليس فيها في الناحية الغربية ربض، إنما يخرج الزائر للحصن منه إلى البساتين وأنهارها وفي أرباضها فنادقها وأسواقها، وجامعها داخل الحصن وهي بساط من الأرض عريض كثير المياه، ويسكن في حصن هذه المدينة قبائل مزانة وخريسة وهم إباضية[83].

حواشي

1. Abou –Obeid – El –Bekri, Description de L'Afrique septentrionale, traduit par Mac Guckin de Slane, Paris, 1965.

2. البكري، المصدر نفسه، ص.49

3. لقد كانت المدينة مرحلة هامة في الطريق إلى الزاب إلا أن البكري وبعده الإدريسي لم يتحدثوا عن سور المدنية، فهل خزبها الزيريون.

4. Diehl Ch, Monuments antiques de L'Algerie, Paris 1901, t 11, P357.

5. Talbi M, L'emirat aghlabide, histoire politique Paris 1968,, P 263.

6. البكري، المصدر نفسه، ص.50

7. S .Gsell, Les monuments antiques de L'Algerie, T, II, P 359.

8. المصدر نفسه، ص.50

9. Ch, Diehl, op cit, P 252.

10. لقد قطن في هذه القلعة الجند التميمين الذين امتازوا بقوة شكيمتهم وبفروسيتهم وشجاعتهم المنقطعة النظير.

11. المصدر نفسه، ص 50.

12. المصدر نفسه، ص 50.

13. M.Talbi,l'Emirat. .op cit, P 96 et 5.

14. البكري، المصدر نفسه ص 51.

15. البكري، المصدر نفسه ص 52.

16. P, L, Combuzat, L'Evolution, op.cit. p.61 et s

17. البكري، المصدر نفسه ص 52.

18. البكري، المصدر نفسه، ص 52.

19 - S, Gsell, Atlas archéologique de L'Algérie, avec un texte explicatif, Paris – Alger 1911, F° 48.

20. البكري، المصدر نفسه، ص 52.

21. البكري المصدر نفسه ص 53.

22. أنظر: E, Marec : Hippone antique, antique Hippo Reguis, Alger 1950.

23. البكري، المصدر نفسه، ص 55.

24. البكري، المصدر نفسه ص 55.

25. C.F.P, Massiera: Msila du X° au XV° siècle, Bulletin de la société d'histoire et de géographie de Sétif, 1941. T II.PP, 183 –27 215.

26. C.F.P, Massiera: Msila du X° au XV° siècle, Bulletin de la société d'histoire et de géographie de Sétif, 1941. t. II. pp. 183-215.

27. المصدر نفسه، ص 59.

28. كانت تسمى هذه في العهد البيزنطي (LE MELLEF) لومالاف.

29. البكري، المصدر نفسه ص 60.

30. S .Gsell, Atlas… F°.26 .n°.13.

31. Sur la fondation de cette ville voir, L, GoLvin, le Maghrib central à L'époque des Zirides, Paris, 1957 et H, R, idris, la Berberie orientale sous les Zirides X° – XII° siècle, Paris 1962 P 14 et 5.

32. P. L. Combuzat, L'évolution des cites, T. I. P.117 et 118.

33. البكري المصدر نفسه، ص60.

34. L .Golvin, le Maghib, p.

35. هذين العينين قليلة المياه في أيامنا هذه.

36. المصدر نفسه ص 60.

37. عادة ما يعقد سوق أسبوعي أو موسمي جهوي في القرى التي يبداء اسمها بكلمة سوق.

38. P. L. Cambuzat, L'évolution… T1. P 137.

39. المصدر نفسه ص 61.

40. يحدد شاو.

41. البكري، المصدر نفسه ص 61.

42. المصدر نفسه ص 61.

43. المصدر نفسه ص 61.

44. كان الأندلسيون يستقرون في هذا المكان عندما يشتد هيجان البحر ويصبح خطر على الملاحة، ذلك أن سفن تلك الحقبة لم تكن بالمثانة والقوة وتقدم التكنولوجي الذي يسمح لها

بمقاومة التيارات القوية والرياح العارمة الشتوية والعواطف.

45. إن تمصير الأماكن المجاورة للقلعة ناتج عن مطلب أو حاجة سكان المناطق المجاورة في سوق، فأهل المنطقة سيستفدون بعد تأسيس المدينة من سوق لبيع منتجاتهم الزراعية والحرفية وشراء ما يحتاجونه من سلع، وهم فوق ذلك سيستفيدون من تجربة وحنكة الأندلسيين في العمارة والعمران والفنون والزراعة والتجارة... إلخ."

46. إن مرحلة التخييم حول القلعة أو المكان المحصن مرحلة متقدمة لتأسيس المدن عرفتها العديد من المدن المغربية كسوس والرباط وتنس.

47. وصف البكري هذه المدينة في الصفحة 49 من االنص العربي.

48. وصف البكري هذه المدينة في الصفحة 53 من النص العربي.

49. المصدر نفسه، ص 63.

50. المصدر نفسه ص 49.

51. المصدر نفسه، ص 63.

52. المصدر نفسه، ص 64.

53. المصدر نفسه 66.

54. المصدر نفسه 66.

55. أن خريطة مقاطعة وهران الصادرة من 1856.

56. المصدر نفسه ص 22.

57. المصدر نفسه ص 66.

58. أنظر حول هذه الظروف.

59. المصدر نفسه ص 68.

60. المصدر نفسه، ص 69.

61. تقع هذه المدينة عند التقاء نهر مينة بالشلف.

62. المصدر نفسه ص 64-69 إن هذه البلدة تقع عند إلتقاء نهر الشلف وواد فضه في شرق الشلف.

63. P. L. Cambuzat, L'évolution… t 1, p. 137.

64. توجد هذه العين على حسب الخرائط العسكرية الفرنسية شمال مزونه على بعد عدة كلومترات من مصب واد الخميس.

65. المصدر نفسه، ص 69.

66. المصدر نفسه، ص 70.

67. توجد هذه البلدة على أربعة كيلومترات غرب ميسرغين، على الطريق الرابط بين وهران وتلمسان.

68. الأطلال المتبقية من هذه البلدة يطلق عليه اليوم مدينة العرون وهي ظاهرة على الضفة اليسرى من الريو سلادو Rio-Salado على أربعة كيلومترات من الجسر.

69. وهو اسم مدينة عين تموشنت في ذلك الوقت.

70. المصدر نفسه، ص 72.

71. المصدر نفسه، ص 72.

72. لعبت سطيف (SITIFIS) دورا مهما في الدفاع على التخوم البيزنطية، لقد عمل سلومون Salomon على تحصينها وجعل تحت قيادتها عددا من التحصينات مكنتها من لعب دورها الأمني على أحسن حال.

73. Ch, Diehl, Afrique byzantine, p. 258.

74. المصدر نفسه، ص 76.

75. M, Talbi, L'Emirat Aghlabite, P.649.

76. المصدر نفسه ص 76.

77. Sar Tlemcen G, Marcais, les monument araba de Tlemcen TI .

78. لقد قطن في هذه القلعة الجند التميمين الذين امتازوا بقوة شكيمتهم وبفروسيتهم وشجاعتهم المنقطعة النظير.

79. المصدر نفسه، ص 50.

جدول هرم المجمعات العمرانية واوصافها

	إسم المجمع	نوعية العمران أصلاً	وصف الموقع والموضع	وصف التحصين	التأسيس ومراحل التمصير	دورها الإداري والعسكري
01	قلعة أبي طويل	قلعة	قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة	-*-	تمصرت عند خراب القيروان	مستقر مملكة صنهاجة
02	مجانة المطاحن	مدينة	-*-	-*-	مدينة قديمة	-*-
03	تبسة	مدينة	-*-	-*-	مدينة أولية	-*-
04	مسكيانة	قرية	-*-	-*-	-*-	-*-
05	باغاية	مدينة	-*-	-*-	مدينة جليلة أولية	-*-
06	قصاص	مدينة	-*-	-*-	مدينة قديمة	-*-
07	بلزمة لمزاته	حصن	في بساط من الأرض كثير القرى	-*-	حصن أولي تمصر وأصبح مدينة	-*-
08	مدينة اللوز	مدينة	-*- -*-	-*-	-*-	-*-

09	مدينة طبنه	مدينة	مدينة كبيرة قال عنها محمد بن يوسف مخبر البكري وهو من المصادر التي أعتمد عليها صاحب هذا التاليف : قصر طبنة قديم أولي كبير جليل مبني بالصخر وليس من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها.	سورها في عهد البكري من بناء المنصور أبي الدوانيق. ..وهو مبنى بالطوب وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة.	بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزار مرد	ينزله العمال أي أن المدينة كانت عاصمة مقاطعة إدارية.
10	مقرة	مدينة	وهو بلد كبير	وهي مسورة عليها خندق	-*-	-*-
11	بسكرة	كورة	كورة فيها مدن كثيرة قاعدتها بسكرة مدينة كبيرة.تعرف ببسكرة النخيل ومن مدنها مدينة حمونة ومدينة طولقة ومدينة مليلي ومدينة بنطيوس.	-*-	وحول بسكرة أرباض خارجة عن الخندق المذكور.	-*-
12	مشلون	قرية	-*-	-*-	-*-	-*-
13	تيجس	مدينة أولية	شامخة البناء	-*-	-*-	
14	توبرت	مدينة	في الطريق إلى بلاد كتامه ويسمى هذا الطريق بالجناح الأخضر. .	-*-	-*-	-*-

15	تابشكلي	مدينة	وهي صغيرة في سفح جبل يسمى أنف النسر.	-*-	-*-	-*-
16	النهريين	مجموعة قرى	وهي قرى كثيرة في فحص عريض وبساط من الأرض مديد.	.-*-	.-*-	-*-
17	تاسلمت	مدينة	وهي مدينة جليلة الزرع والضرع.	.-*-	.-*-	-*-
18	دكمة	مدينة	.-*-	.-*-	.-*-	-*-
19	مدينة الغدير	مدينة	.-*-		.-*-	-*-
20	بونة	مدينة	وهي على ساحل البحر في نشز" تلة "من الأرض منيع مطل على مدينة سبوس والمدينة بريه بحرية.	وقد سورت بونه الحديثة بعد الخمسين وأربعاميه (450هـ)	.-*-	-*-
21	سبوس	مدينة	تسمى أيام البكرى مدينة الزاوي بينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال.	.-*-	.-*-	-*-
22	مرسى الخرز	مدينة	مدينة مرسي الخرز فيها المرجان	وهي مدينة قد أحاط بها البحر، إلا مسلك لطيف ربما قطعه البحر في الشتاء، عليها سور.	-*-	يقصد الغزاة من كل أفق" مرسى الخرز "لأن مقطعها يقرب من جزيرة سردينيا.

23	المسيلة	مدينة	وهي مدينة جليلة على نهر يسمى بنهر سهر – في بساط من الأرض.	عليها سوران بينهما جدول ماء جار مستدير بالمدينة له منافذ تسقي منها عند الحاجة.	أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله سنة (313هـ) وكان المتولي لبنائها علي ابن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذلمي المعروف بابن الأندلسي.	كان مقراً لعمالة واستعمله القائم عليها فلم يزل بها إلى أن هلك في فتنة أبي يزيد وبقي ابنه جعفر فيها وصار أميراً على الدار إلى أن خرج عنها سنة 360 هـ.
24	بشليقة	مدينة	مدينة للأول خربه	-*-.	-*-.	
25	غدير واروا	مدينة	مدينة كبيرة أولية بين جبال	-*-	-*-	-*-
26	طرفلة	قرية	قرية أولية لا تعدل بها قرية يقال عنها طرفلة طرف من الجنة.	-*-	-*-	-*-
27	أشير	مدينة	وهي جليلة حصينة	حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراماً، ويوصل إلى شيء منها و لا يوصل بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال، وهو في شرقيها، الذي ينفذ إلى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون... وهي في ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها.	وخربها يوسف بن حماد ابن زيري واستباح أموالها وفضح حرماتها وذلك بعد (440هـ) ثم تراجع الناس إليها سنة (455هـ).	-*-

				والذي بنى سورها بلكين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة (367 هـ).		
28	سوق هوارة	قرية	-*-	-*-	-*-	-*-
29	سوق كرام	قرية	هي على نهر الشلف	-*-	-*-	-*-
30	مدينة مليانة	مدينة	وهي مدينة رومية فيها آثار. ..وهي عامرة	-*-	جددها زيري بن مناد وأسكنها إبنه بلكين.	-*-
31	مدينة الخضراء	مدينة	مدينة جليلة كثيرة البساتين	-*-	-*-	-*-
32	مدينة بني واريفن	مدينة	مدينة قديمة	-*-	-*-	-*-
33	مدينة قارية	مدينة	مدينة لطيفة على سفح جبل	-*-	-*-	-*-
34	تنس	مدينة	وتنس هذه هي التي تسمى تنس الحديثة	وهي مسورة حصينة داخلها قلعة، وهي على نهر يستدير بها من جهة الجوف والشرق ويريق في البحر.	وتنس الحديثة اسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس. ..سنة (262هـ...) وكان البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الاندلس في مرسى على ساحل البحر فتجمع إليهم بربر ذلك القطر ورغبوا في	-*-

					الانتقال إلى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلونها سكنى ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة فأجابوهم إلى ذلك وانتقلوا إلى القلعة وحكموا بها، وانتقل إليهم من جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم (إلاّ أنه رحل بعضهم بعد وباء و بقي الأخرون). أما الباقون في تنس لم يزالوا في تزايد وثروة وعدد، ورحل إليهم أهل سوق إبراهيم فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم،وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيها.	
35	تيجس	مدينة	عليها سور صخر رومي		لها ربض	-*-
36	قسنطينة	مدينة	مدينة كبيرة أولية.	ذات حصانة ومنعه لا يعرف أحصن منها، وهي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن قد أحاطت بها. ..تقع هذه الأنهار في قعر متناهي البعد.	-*-	-*-

37	ميلة	مدينة	-*-	وعليها سور صخر اليوم (في عهد البكري)	أمر المنصور بهدم سورها سنة (378هـ)	وتسير (ترحيل) من فيها إلى باغاية ف فخرجوا بجماعتهم يريدونها وقد حملوا ما خف من أمتعتهم فلقيهم مسكن بن زيري بعسكره فأخذ جميع ما معهم.
38	شعبة	قرية	-*-	-*-		-*-
39	حمزة	مدينة	-*-	-*-	نزلها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي.	-*-
40	بلباس		-*-		-*-	-*-
41	مرسى الدجاج	مدينة	ومدينة مرسى الدجاج قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح.	وقد ضرب عليها بسور من (الجهة الباقية) الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية ومن هناك يدخل إليها.	-*-	-*-
42	مدينة بني جنباد	مدينة	أصغر من مرسى الدجاج		-*-	-*-
43	سوق ماسكن	مدينة	مدينة على واد الشلف	عليها سور وخندق	-*-	-*-
44	سوق حمزة	مدينة	-*-	عليها سور وخندق	-*-	-*-

45	المدية	مدينة	وهي بلد جليل قديم		-*-	-*-
46	فزرونة	مدينة	يقال لها متيجة		-*-	-*-
47	أغرو	مدينة	-*-		-*-	-*-
48	جزائر بني مزغنة		مدينة جليلة قديمة البنيان		-*-	-*-
49	تامغلت	مدينة	على ثلاثين ميل من أشير		-*-	-*-
50	تيهرت	مدينة	مسورة. ..في سفح جبل يقال له جذول		بعد هروب عبد الرحمن بن رستم من القيروان" اجتمعت إليه الإباضية، واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا موضع تاهرت اليوم وهو غيطه أشبه. ..وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مراسة و صنهاجة، فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا إليهم الخراج من الأسواق ويبيحوا لهم ببنيان المساكن فاختطوا وبنوا، وسمي الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم.	-*-

50أ	تاهرت القديمة	حصن	لبرفجانه وهو شرقي الحديثة	-*-	-*-	-*-
50ب	مجمع الواصلة	مجمع	قريبا من تاهرت وكان عددهم ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها.	-*-	-*-	-*-
51	بني جليداسن	مدينة	لطيفة للمطفرة يسكنها الأندلسيون والقرويون وهي بلدة طيبة... مطلة على فحص الشلف	-*-	-*-	-*-
52	مدينة الشلف	مدينة	-*-	-*-	-*-	-*-
53	مليانة	مدينة	ذكرت فيما سبق مليانة مدينة أولية شريفة. ..عامرة آهلة على نهر ولها أبار عذبة وسوق جامعة.	-*-	جددها زيري بن مناد وأسكنها ولده بلكين، وهي مشرفة على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنو وارفين وغيرهم.	-*-
54	قلعة مغيلة دلول	قلعة	وهي في أعلى جبل منيف هناك شديدة الحصانة... بينها وبين البحر خمسة فراسخ وبينها و بين مدينة مستغانم مسيرة يومين.	-*-	-*-	-*-
55	مستغانم	مدينة	وهي على مقربة من البحر.	وهي مدينة مسورة	-*-	-*-

56	مدينة تامزغران	مدينة	على نحو ثلاثة أميال من مستغانم... وعلى مقربة منها قلعة هوارة	وهي مسورة	-*-	-*-
57	قلعة هوارة	قلعة	ويسمونها تاسقدالت وهي قلعة في جبل	-*-	هذا الفحص غامر غير عامر ولا أهل لأن الخوف أخلى أهله.	-*-
58	مدينة أرزاو	مدينة	خالية فيها أثار عظيمة للأول يحار من دخل فيها لكثرة عجائبها. قربها جبل كبير فيه قلاع ثلاثة مسورة وهي مدينة رومية.	-*-	-*-	-*-
59	وهران	مدينة	مدينة وهران مدينة حصينة	-*-	وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين، الذين ينتجعون مرسى وهران بإتفاق منهم مع نفزة وبني مسفن من أزداجة. وكانوا أصحاب القريشي سنة (297هـ) واستوطنوها 7 أعوام (...حوصرت المدينة مدة من القبائل المجاورة التي جاءت مطالبة لثأر وتغلبوا	

					على أهل وهران). خربت وهران وأضرمت ناراً سنة 297 ثم عاد إليها أهلها سنة 298 فعادت إلى أحسن حال وكمال وزيادة، إلى أن دخلها يعلى بن محمد اليفريني (343هـ) وملكها ثم نقل أهلها إلى المدينة المعروفة... وخرب المدينة وحرقها وبقيت كذلك سنين ثم تراجع الناس إليها وبنيت.	-*-
60	تانسالت	قرية	في طرف جبل جيدر	-*-	-*-	-*-
61	جراوة لعزيزوا	سوق	وهي سوق عبدون ابن سنان	-*-		-*-
62	العلويون	مدينة	-*-	عليها سور	مدينة يعلى بن باديس	
63	مدن بنطيوس الثلاثة	مدن	قريبة من بعضها البعض يسكن الأولى الفرس والثانية المولدون والثالثة البربر توجد هذه المدن الثلاث في سهلة عريضة أربضة... توجد هذه المدن في سهلة عريضة عليها أسوار وخنادق.	-*-	وبالقرب منها قرى كثيرة	-*-

64	طولقة	ثلاثة مدن	الأولى يسكنها المولدون والثانية اليمنيون والثالثة القيسيون	مسورة بالطوب ومخندق حولها.	-*-	-*-
65	تهودا	مدينة	مدينة أولية آهلة بنيانها بالحجر	إن كانت لهم بينهم وبين من يجاورهم حرب أسالوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا عن عدوهم به.	و حولها ربض قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة. ..وحولها أزيد من عشرين قرية.	سكانها العرب وقوم من قريش.
66	باديس	مدينة	وهي حصنان			-*-
67	قيطون بياضة		وهو اول بلد سماطه ومنه يفترق الطريق إلى بلاد السودان وإلى طرابلس والقيروان.	-*-	-*-	-*-
68	سطيف	مدينة	مدينة كبيرة جليلة أولية. ..وهي اليوم بدون سور لكنها عامرة جامعة	كان عليها سور خربته كتامة (أي زمن البكري)... واليوم فهي بدون سور.	كانت المدينة في أول الأمر لكتامة ثم غلبهم عليها العرب فكانوا يعشرونهم إذا دخلوها.	-*-
69	تانا جللت أوتانا قللت	مدينة	مدينة لكتامة عامرة أهلة ليس بها مسجد		-*-	-*-

70	تلمسان	مدينة	مدينة مسورة في سفح جبل اللوز	مسورة	-*-	بها بقية من النصارى إلى وقت البكرى لهم كنيسة معمورة وهي قاعدة المغرب الأوسط دار مملكة زناته ومتوسط قبائل البربر.
71	قلعة أبي جاهل	قلعة	قلعة منيعة يتصل بها جبل تارني وما يليه جبل معمورة	-*-	-*-	-*-
72	تيزيل	مدينة	وهي أول الصحراء ومنها يسافر إلى سجلمانه وإلى وارجلان.	-*-	-*-	-*-
73	القلعة	مدينة	وهي مدينة معمورة فيها أثار الأول.	-*-	-*-	-*-
74	أرشقول	وهي ساحل تلمسان	وأرشقول ساحل تلمسان بينها وبين تلمسان فحص زيدور طوله خمسة وعشرين ميل.	وهي مسورة... سعة سورها ثمانية أشبار وأمنع جهاتها جوفيها.	ولها ربض من جهة القبلة	-*-
75	أسلن	مدينة	وهي شرقي أرشقول حصينة وهي قديمة	عليها سور صخر	بناها وجددها محمد ابن أبي عامر حميد بن يزل.	-*-
76	حصن تانكرمت	حصن	على ستة أميال من أسلن على شاطئ البحر			-*-

77	فكان	مدينة حصن	توجد في سفح جبل أوثيلان.	على المدينة سور طوب	كانت سوقاً من أسواق زناتة عمرها يعلى بن محمد بن صالح اليعزيني، وكان إبتداء تأسيسه لها سنة (338هـ)، وارتحل لها أهل معسكر ومن أهل تاهرت و يلل وشاطئ بني واطيل ووهران وقصر الفلوس فعمرت وتمدنت وعظمت	-*-
78	حصن مرسينة	حصن	على بعد ثلاثة أميال من فكان وهو حصن حصين.			-*-
79	حصن ابن زيني	حصن	على ثلاثة أميال من حصن مرنيسة.			
80	حصن الغروس	حصن	على بعد ميلين من حصن بني زيني وهو على قمة جبل على ضفة البحر.			-*-
81	حصن الوردانيه		على بعد ميلين من حصن الغروس وهو على جبل بساحل البحر.			-*-
82	هنين	حصن	على بعد أربعة أميال من الوردانية		وهو على مرسى جيد مقصود	-*-

83	ندرومة	مدينة	ومدينة ندرومة هي في طرف جبل تاجرة وغربيها وشماليها بسائط طيبة.	مسورة		-*-
84	مرسى ترفانا	مدينة	بينها وبين ندرومة ثمانية أميال.	مسورة		-*-
85	حصن تاونت	حصن	حصن منيع في جبل منيف قد أحاط به البحر من ثلاثة جهات وله مرتقى وعر من ناحية الشرق لا يطمع فيه أحد.	-*-		-*-
86	حصن أبي جنون	حصن	-*-	-*-		-*-
87	حصن كاريو	حصن	-*-	-*-		

جدول النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للتجمعات العمرانية

	المدينة	مواردها المائية	نشاطها التجاري	مواردها الزراعية
01	قلعة أبي طويل	-*-	هي مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلدان المغرب.	-*-
02	مجانة	-*-	-*-	-*-
03	تبسة	-*-	-*-	كثيرة الثمار والأشجار.
04	مسكيانة	على نهر.	-*-	
05	باغاية	ذات أنهار.	-*-	كثيرة الثمار أي بساتين ومزارع ومسارح (مراعي).
06	قصاص	على نهر.	-*-	في بساط من الأرض كثير القرى والمزارع.
07	بلزمة	كثيرة الأنهار.		
08	مدينة طبنة	لها نهر يقع في صهريج كبير ومنه تسقى بساتينها إسمه بيطام إذا حمل سقى بساتينها وفحوصها.	ولها أسواق عديدة غير السماط المذكور.	لها بساتين كثيرة ملاسقة للربض.
09	مقرة	ذو أنهار	-*-	ذو ثمار ومزارع
				-*-

10	بسكرة	وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة منها في الجامع بير لا تجف وشرب بسكرة من نهر كبير يجري في جوفيها منحدر من جبل أوراس		كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار وحواليها بساتين كثيرة وهي في غابة كبيرة مقدارها ستة أميال فيها أجناس التمور منها بالكسبار والليارى وداخل المدينة جنان.
11	مشلون قرية من قرى بسكرة	-*-	-*-	-*-
12	تيجس (مدينة)	-*-	-*-	-*-
13	توبرت	-*-	-*-	-*-
14	تابشلكي	-*-	-*-	-*-
15	النهريين (مجموعة قرى)	-*-	-*-	-*-
16	تاسلمت	-*-	-*-	للزرع والضرع
17	دكمة	على نهر كبير	-*-	ذات مزارع ومسارح
18	مدينة الغدير	تخرج منها عيون نهر سهر وهو نهر المار بالمسيلة	-*-	وهي ذات ثمر وزرع

19	بونه	وفي بونة الحديثة بير على ضفة البحر منقورة في حجر صلد يسمى بير النثرة منها يشرب أكثر أهلها وبغربي المدينة ماء سائح يسقى بساتين وهو متنزه حسن.	وأكثر تجارها من الاندلسيين، ومستخلص" خراج "بونه غير جبايها لبيت المال عشرون ألف دينار.	المدينة برية بحرية كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لحمهم من البقر.
20	سبوس	-*-	وبها سوق عامرة	-*-
21	مرسى الخرز	وبإزاء المدينة بير وبيه الماء يعرف ببير أزراق	أما جباية المدينة فعشرة آلاف دينار	-*-
22	المسيلة	-*-	وللمدينة أسواق رخيصة السعر	وحولها بساتين كثيرة ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر
23	بشليقة	فيها جدولان من ماء عذب يقال لها ثرفا أنو ودي تفسيره ساقية السمن	-*-	-*-
24	غدير واروا	وفيها عين ثرة عليها أرجاء وعين أخرى تحتهما عين خرارة يقال لها عين مخلد تتجمع فيها ومن هناك منبعث نهر سهر.	وهي رخيصة الطعام	وبمدينة الغدير فواكه كثيرة رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار، 6 قنطار عنب فيها بدرهم.
25	طرفله	-*-	-*-	-*-
26	أشير	وداخل المدينة عينان ثرارتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر	-*-	-*-

		أحداهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تالا نتيرغ.		
27	سوق هوارة	-*-	-*-	-*-
28	سوق كرام	-*-	-*-	-*-
29	مليانة	ذات أنهار تطحن عليها الأرحاء	-*-	وأشجار
30	مدينة الخضراء	وهي على نهر إذا حمل دخل بعضها	-*-	كثيرة البساتين
31	بني واريفين	-*-	-*-	واسعة المسارح كثيرة الكلاء
32	مدينة قارية	ذات أعين	-*-	-*-
33	مدينة تنس	وهي على نهر يسمى تانتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم يأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق. ويريق في البحر يخرج منها" أي من باب خوخة" "الشرقية "إلى عين تعرف بعين عبد السلام ثرة عذبه.	-*-	-*-
34	تيجس	-*-	-*-	-*-

35	قسنطينة	وهي على ثلاثة أنهار عظام... تخرج من عيون تعرف بعيون أسفار تفسيره سود وتقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر.	وبها أسواق عامرة ومتاجرة رابحة.	-*-
36	ميلة	والمياه تطرد حولها" ويلي الباب السفلي "عين أبي السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بني يروث يشق منها سوقها ساقية.	-*-	-*-
37	شعبة	-*-	-*-	-*-
38	حمزة	-*-	-*-	-*-
39	يلياس	-*-	-*-	-*-
40	مرسى الدجاج	وبها عيون طيبة	-*-	-*-
41	مدينة بني جناد	-*-	-*-	-*-
42	سوق ماسكن	ولها عيون مياه	-*-	-*-
43	سوق حمزة	بها أبار عذبة	-*-	-*-
44	المدية	-*-	-*-	-*-

45	فزرونة	على نهر كبير عليه الأرجاء والبساتين، وفيها عيون سائحة وطواحين ماء.	-*-	على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل.
46	أغرز	-*-	-*-	-*-
47	جزائر بني مزغنة	ومرساها مأمون له عين عذبه	ومرساها مأمون له عين عذبة، يقصد إليه أهل السفن من إفريقية والأندلس.	-*-
48	تامغلت	-*-	-*-	-*-
49	تيهرت	ولها نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينه وهو في قبليها ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها وهو في شرقيها	-*-	وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما...
50	تاهرت القديمة	على أميال من الحديثة	-*-	-*-
51	بني جليداسن	بها عيون عذبة	-*-	-*-
52	مدينة الشلف	على نهر	-*-	-*-
53	مليانة	-*-	-*-	-*-
54	قلعة مغيلة دلوك	بها عين ماء تسمى عين كردي	-*-	وبساتين... ويبذر في أرضها القطن فيجود

55	مستغانم	ذات عيون...وهي بقرب مصب نهر الشلف في البحر.	-*-	-*-
56	مدينة تامزغران	تحتها يجري نهر سيرات وهو النهر يسقى فحص سيرات	تسيطر على فحص واسع" وطول فحص (سيرات) نحو أربعين ميلا ليس منه شيء لا يناله ماء هذا النهر.	لها ثمار ومزارع
57	قلعة هوارة	-*-	-*-	-*-
58	مدينة أرزاو	-*-	-*-	-*-
59	مدينة وهران	ذات مياه سائحة وأرجاء ماء		وبساتين.
60	تانسالت	عين عذبه	-*-	-*-
61	جراوة لعزيزوا	-*-	-*-	-*-
62	العلويون	وهي على نهر كبير وداخلها عيون	-*-	-*-
63	مدن بنطيوس	أما التي يسكنها قوم من الفرس فبغربها نهر جار ينحدر إليها من ناحية الجوف وهذا النهر يسقى المدن كلها.	-*-	أكثر تمارها النخل والزيتون. ..إذا كمل الرجل فيها زريعته عرف مبلغ إصابته من الطعام لا يخطي

64	(مدن) طولقة	حولها أنهار	-*-	وهي كثيرة البساتين بالنخيل والزيتون والأعناب والشجر وجميع الثمار.
65	تهودا	وفي المدينة بير لا تنزح أوليه وآبار كثيرة طيبة.... ونهر ينصب في جوفيها من جبل الأوراس	-*-	كثيرة الثمار والزرع. ..وحولها بساتين كثيرة وضروب البنر يجود بها البذور.
66	باديس	بها مياه سائحة كثيرة	-*-	-*-
67	قيطون بياضة	وهو أول بلد سماطه	-*-	وبسائط ومزارع جليلة، يزرعون حب الشعير مرتين في العام على مياه سائحة.
68	مدينة سطيف	-*-	كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار، بينها وبين القيروان عشرة مراحل.	-*-
69	تاناجلت	-*-	-*-	-*-
70	تلمسان	جلب إليها الماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة اميال... لها أنهار عليها طواحين	مقصد لتجار الآفاق	لها أشجار.
71	قلعة أبي جاهل	كثيرة الأنهار	كثيرة الثمار	-*-
72	تيزيل	-*-	-*-	

73	القلعة	على نهر تافتي يقبل من قبليها ويستدير بشرقها يدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلى المدينة... وبها أبار ماء عذبة لا تغور.	وكان يسكنها التجار.	-*-
74	أرسقول		-*-	-*-
75	أسلن	لها نهر يصيب في البحر يسقى بساتينهم وهي مقطوعة منحوتة السور من كل ناحية بنهر ولها عين تجري	-*-	لها نهر في شرفيها يسقى بساتينها
76	حصن تانكرمت	وبقبلتها نهر سيرة ومنبعه عيون وبشرقيها نفس النهر عليه أرحاء	-*-	له مزارع واسعة وبسائط حصية. ..كما توجد بساتين على صفتي نهر سبرة
77	مدينة فكان	-*-	-*-	
78	حصن مرنيسة البير	-*-	-*-	
79	حصن ابن زنيي	له نهر	-*-	له نهر كثير الثمار
80	حصن الغروس	-*-	-*-	

81	حصن الوردانية	-*-	-*-	
82	حصن هنين	-*-	-*-	وهو أكثر الحصون المنطقة بساتين وضروب النهر.
83	ندرومة	-*-	-*-	وغربيها وشماليها بساط طيبة ومزارع...
84	مرسى ترنانا	-*-	-*-	وبساتين كثيرة
85	حصن تاوتت	-*-	-*-	له بساتين وشجر كثر يحمل من زبيبها وتينها إلى غيره من النواحي.
86	حصن أبي جنون	-*-	-*-	
87	حصن كاربيوا	-*-	-*-	

الفصل التاسع

الجزائر الوسيطية في المصادر الأجنبية

1. ا لجزائر من خلال المصادر الفرنسية
2. العلاقات بين الجزائر و فرنسا

إعداد الدكتورة سامية أبوعمران

الجزائر الوسيطية في المصادر الأجنبية

1. الجزائر من خلال المصادر الفرنسية :

اخترنا في هذا البحث دراسة المصادر الفرنسية التي اهتمت بتاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، معتقدين أنها تمثل أهم ما كتبه الأوروبيون عن تاريخنا في هذه الفترة الطويلة. ولكننا لن نهمل ما يوجد من مراجع أخرى أوروبية من إسبانية وإيطالية وإنجليزية آملين العثور عليها للإستفادة منها في ظروف أخرى.

فإذا اهتم الباحثون بتاريخنا الوسيط فيجدر بنا أن نتساءل :ما هي طريقتهم في كتابته ؟ وما هي المادة التي عثروا عليها واتخذوها مصدرا لدراستهم ؟ ومتى اهتموا بهذه المرحلة من التاريخ وما كانت أغراضهم ؟

لما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 كانت تجهل كل شيء تقريبا عن هذه المنطقة[1]، ولكنها سرعان ما رأت السلطة الاستعمارية أن من فائدتها معرفة تاريخ الجزائر من بدايته إلى عهد الاحتلال. وكان الدافع الرئيسي في ذلك هو كشف ماضي الجزائر وأصول هذا الشعب الذي وقع تحت نفوذها ومعرفة مؤسساته ومعتقداته إلى غير ذلك. وما كانت لتتمكن من السيطرة على هذا البلد لو لا التعرف على تراثه وواقعه[2]. وقد ساعدها ذلك على التخطيط للاستيطان والتحكم في سلوك السكان الأصليين ولم يكن غرضها حب البحث والعلم فقط. وعلى سبيل المثال ذهب بعضهم إلى تساؤل غريب : ما هي الأسباب التي أدت إلى تدهور الاستعمار الروماني في الجزائر رغم القوة والعظمة التي كان يتصف بهما ؟[3]

يرجع اهتمامهم بتاريخنا القديم إلى عدة أسباب نذكر منها الجانب الفكري، إذ جاءوا إلى الجزائر حاملين مبدأ تفوقهم الحضاري على السكان الأصليين، فآمن معظم علمائهم بأفضلية الشعوب الأوروبية على الشعوب الأخرى ورأوا من الضروري "تمدين" هذه الشعوب معتقدين أن تلك هي رسالتهم في العالم وكان من واجبهم القيام بهذه الرسالة. أما الجانب الديني فتغذى بروح الحروب الصليبية[4] ولذلك اهتم الباحثون الفرنسيون بالدراسات الإسلامية اهتماما ملحوظا مركّزين على جوهر العقيدة والعادات والتاريخ واللغة وعلى الثقافة بصفة عامة، ذلك لاستغلالها في تسيير البلد والشعب طبقا لمصالحهم. وشيئا فشيئا أدركوا أن الإسلام هو صلب الشخصية الجزائرية[5] وهو الذي يفسر قوّة المقاومة ضد الاحتلال إذا تعدّدت الثورات في مختلف أنحاء القطر بقيادة شيوخ الزوايا وغيرهم من الأبطال.

بداية كتابة التاريخ في عهد الاستعمار:

في بداية الاحتلال كان جل الكتّاب بطبيعة الحال من الضباط المثقفين والمبشرين والصحفيين، وخاصة منهم المترجمون العسكريون وهم الذين اهتمّوا بكتابة تاريخ الجزائر لأن كانت لهم علاقات إدارية مع السكان. فسجّل بعضهم انطباعاتهم ومذكراتهم وحرّروا وتقارير رسمية كثيرة مدوّنين بحماس شديد كلّ ما وقع تحت أيديهم من مصادر مكتوبة وروايات شفوية وآثار قديمة، قد حصلوا عليها بمختلف الطرق والوسائل إما بالإغراء أوبالقوة[6]. وقد شجعتهم وزارة الحربية الفرنسية على هذه الأعمال وبصفة خاصة على دراسة التاريخ والآثار والفنون والعلوم الطبيعية، وتكوّنت لهذا الغرض "لجنة التنقيبات العلمية بالجزائر"[7] سنة، 1837 صدرت عنها مجموعة من المطبوعات[8] ابتداء من 1839 وقد اعتنت بصفة خاصة بالدراسات التاريخية وذلك إلى سنة. 1844 وفيما بعد تأسست جمعيات ثقافية مختلفة منها "جمعية قسنطينة للآثار" سنة 1853 التي نشرت أبحاثها في

تقويم ثم في شكل سلسلة من المطبوعات[9]. وتكوّنت الجمعية التاريخية[10] سنة 1856 بالمكتبة-المتحف[11] بالجزائر العاصمة التي أصدرت المجلة الإفريقية[12] وهي التي تعدّ مرجعا مفيدا لا زال الباحثون في تاريخ الجزائر يعتمدون عليه رغم الأخطاء التي وردت فيها هنا وهناك.

ثم تأسست سنة 1878 جمعية وهران للجغرافية والآثار[13] التي كانت تصدر دورية اعتنت بالدراسات التاريخية للغرب الجزائري[14]. ومن جهة أخرى اهتم الفرنسيون بإنشاء مكتبات محلية عديدة في المدن الكبرى وكذلك بفتح متاحف وجد فيها الباحث مخطوطات ومطبوعات.

ورأت النور كذلك أكاديمية عنّابة[15] سنة 1865 واشتهرت خاصة بالدراسات الأثرية، كما تأسست جمعية الجزائر وإفريقيا[16] سنة. 1896 وانتشرت كذلك الصحافة الأسبوعية واليومية وكانت تنشر فيها من حين إلى حين أبحاثا ودراسات متعلقة بالتاريخ القديم والوسيط. كما ساهم عدد كبير من الأساتذة الجامعيين الفرنسيين في كتابة هذا التاريخ إلا أن أكثرهم كانوا ينتمون إلى المدرسة الاستعمارية التي قدّم لها الحكم العم الفرنسي في الجزائرتسهيلات مادية ومعنوية معتبرة، فاتجه هؤلاء الباحثون خاصة إلى التاريخ والآثار قصد العثور على "فترات مجهولة من التاريخ الروماني-المسيحي"[17] من تاريخنا الأمر الذي أدّى إلى دراسات كثيرة أرّخت للفترة الرومانية، في حين أهملت الدراسات الخاصة بالفترة الإسلامية إلى حد كبير.

ويلاحظ أن معظم الباحثين اهتموا بالتاريخ القديم ووجدوا في الكتابات الرومانية منهجا اعتبروه علميا، مفيدا لهم ونفقوا أموالا كثيرة عليها. وأمّا المصادر العربية فبدت لهم غامضة[18] وغير مرتّبة[19] وضعيفة[20] ومعقدة. وهذا حكم لا أساس له من الصحة. ولم يصفوا الدراسات القديمة بهذه الصفات، والواقع أنهم حاولوا إبراز الحضارة الرومانية في بلادنا لكونها "أفضل من حضارتنا"[21] ولا غرابة في ذلك إذ الحضارة الفرنسية امتداد للحضارة الرومانية والإغريقية...

أهم هذه المصادر الفرنسية :

إذا أردنا دراسة هذه المصادر والتعريف بها فيجب علينا تصنيفها إلى قسمين أساسيين :

يشمل القسم الأول عددا من المؤرخين الذين تولوا جمع الوثائق والمخطوطات العربية فحققوها وترجموها ونشروها. نذكر على سبيل المثال "دي سلان" (De Slane) (المترجم العسكري) الذي قام بأعمال كثيرة ومهمّة، فحقق وترجم أجزاء من كتاب العبر للعلامة ابن خلدون بعنوان تاريخ البربر[22]. وترجم كذلك المقدمة[23] وجغرافية الإدريسي سنة 1841 كما نقل إلى لغته جزءا من كتاب المسالك والممالك للبكري تحت عنوان وصف شمال إفريقيا[24] الذي يعدّ من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس. وترجم تلميذه ثم زميله "فانيان" تاريخ الموحدين[25] للمراكشي وتاريخ الدولتين للزركشي والكامل في التاريخ[26] لابن الأثير والرسالة[27] لبن أبي زيد القيرواني، ووضع فهرسا نفيسا لأهم المخطوطات العربية والتركية والفارسية الموجودة في المكتبة-المتحف في العاصمة سنة 1893. أمّا الأستاذ "ليفي-بروفنسال" فقد نشر وترجم مثلا تاريخ الموحدين[28] والمسند لابن مرزوق التلمساني... وترجم "ألفرد بال" تاريخ بني عبد الواد لصاحبه يحيى بن خلدون[29].

تمتاز هذه المجموعة الأولى بأعمال إيجابية حيث نشرت جوانب معتبرة من تراثنا التاريخي والثقافي التي نعترف بأهميتها، لقد أفادونا بجمع هذه المصادر وتحقيقها بعدما كانت مبعثرة أومنسية فطبعوها ونقلوها إلى لغتهم كما صنفوا المواد حسب الاختصاص ونظّموا فهارس البعض منها إلى غير ذلك. ويلاحظ أن رغم الصعوبات التي واجهوها فقد تحلوا إلى حدّ كبير بالموضوعية العلمية ولم يتأثروا كثيرا بالإيديولوجيا الاستعمارية فوجهوا نشاطهم خاصة إلى التحقيق والترجمة والنشر. وأفادت كثيرا أعمال هذا القسم المؤرخين اللاحقين الذين اعتمدوا عليها.

أما القسم الثاني فيشمل مجموعة من الكتّاب الذين اعتمدوا على المصادر المترجمة لعدم معرفتهم اللغة العربية[30]. فانحرف أكثرهم عن الصواب متأثرين بإيديولوجيتهم. قد أجمعوا الرأي في معظمهم على أن الدراسات العربية ما هي إلا عبارة عن مجموعة أحداث يسودها الغموض بسبب الروايات والأساطير[31]. وادعوا أنها منقولة عن مصادر مختلفة من حيث الزمان والمكان[32] وأنها ليست خاصة بالجزائر بل بإفريقيا الشمالية إلى مصر. ولذلك يواجه الباحث في نظرهم مشكلة التناقض بين المعلومات واعتبروا أن ما يوجد فيها من أخبار يتّصف بطريقة سطحية وإجمالية المراحل التي وقع فيها الفتح الإسلامي في المغرب وذهبوا كذلك إلى القول إن دراسة هذه الفترة تتطلب من المؤرخ أن يصفي الخليط من المعلومات التي أصبح يتعثّر عليها[33]. ويرجعون هذا الضعف إلى" الروايات "التي كانت تنقل شفهيا وفي وقت متأخر جدّا[34]. وفي نظرهم قد كتبت هذه الأحداث بتحيّز لا غبار عليه لأنها تخضع ل "نزعة قبلية" التي تمثل النظام السائد في المجتمع المغربي[35]. ففي الغالب نستطيع أن نقول إنهم شككوا كثيرا في المصادر العربية ورغم ذلك نسجل أن هذه المؤلفات تمتاز بوصف أحداث كثيرة ومفصلة تعتمد على مادة غزيرة[36]، كرّس أصحابها حياتهم كلها لجمعها ونشرها، إلا أنه إذا تحلى أحدهم أحيانا بشيء من الموضوعية[37] فسرعان ما يتخلى عنها وينحاز إلى آراء مسبقة من جديد.

ورأى المؤرخ" غوتيه"[38] (Gauthier) من جهة أنه يوجد في تاريخ الجزائر مراحل "منيرة تتمثل في فترة التاريخ الروماني-المسيحي"[39] وأخرى "مظلمة نساها التاريخ"، وفي الواقع لم يتعرف على تاريخ المغرب وحضارته، أما "وليام مارسيه"(W. Marçais) فرأى أن تاريخ المغرب معقد جدا، إذ أنه متقاطع إذا قرناه بالتاريخ الأوروبي الذي يمتاز بالتواصل والوضوح[40]. وهذا أيضا تحيّز ظاهر كما ادعى" غوتيه "أن لا علاقة للمغرب بالحضارة، وأنه يعدّ أكثر تخلفا في العالم[41]. ولكنه

اعترف في مكان آخر أن الفترة الممتدة من القرن 1 هـ/7 م تمتاز ب "العظمة"حيث اتسعت الفتوحات نحو غرب البحر الأبيض المتوسط[42]. وفاته هنا أن هذه الفترة هي عصر الحضارة الإسلامية بالذات. وقالك "فرغم ماعرفت (هذه الفترة) من عظمة فإننا لا نعلم شيئا عنها، فهي بالتالي حقبة تاريخية مظلمة"[43] ولم يستطع هذا المؤرخ أن يتجرد من عنصريته الأصلية حيث ادعى أن النقص الفاضح في المصادر العربية سببه فشل "الإنسان العربي" في كتابة التاريخ فإن "العربي متخلف ولا يستطيع كتابة تاريخه"[44] وهنا تظهر عداوته للعالم العربي بوضوح وأضاف من جهة أخرى أن" الإنسان العربي لا يعرف المنطق، "فكيف يمكن له أن يحلّل الأحداث التاريخية ؟[45] فهذا أمر غريب إذ المنطق قاسم مشترك بين الشعوب. وأضاف "غوتيه" أن القرن ال 14م هو عصر العلامة ابن خلدون وهو في نفس الوقت عصر ابن رشد وابن سينا الين اهتموا اهتموا طوال حياتهم بجمع معلومات كثيرة دون تحليلها[46]. فهذا كلام يدل على جهله العام للتاريخ الإسلامي إذ قد توفي ابن سينا في بداية القرن 11 م (سنة 1037) وابن رشد في القرن 12 م (سنة 1198) والفرق شاسع بين هذه العصور.

وقال هذا المؤرخ أيضا أن لا صلة للفكر العربي بالفكر الأوروبي حيث لا توجد في اللغة العربية مصطلحات علمية دقيقة مثلما توجد في اللغة الفرنسية، الأمر الذي يجعل الترجمة الدقيقة مستحيلة من اللغة الأولى إلى الثانية[47]. وفي شأن ابن خلدون إنه في الواقع "كاتب عبقري"[48] ولكن "فكره عربي، فلا نستطيع إذا أن ندرس مؤلفاته إلا إذا راجعناها"[49]. فهذا كله كلام غير صحيح، إذ ساد ابن خلدون عصره وما زالت كتبه تدرس في مختلف الجامعات العالمية. ويظهر أن "غوتييه" لم يتفهم ابن خلدون رغم وجود ترجمة "دي سلان."

أما المؤرخ "جورج مارسيه" فكاد أن يوجه عنايته كلها إلى قضية بني هلال وجعل منها المصدر الأساسي في تاريخ بلادنا. فوصفها ب "قبائل وحشية وهمجية" دمّرت جزءا كبيرا من الجزائر[50]. وذلك لأنه تبنى ما كتبه ابن خلدون في

مقدمته : " العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرعوا الخراب والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وعدم الانقياد للسياسة. ..وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له"[51]. ولم يشرح هذا المؤرخ المتحيّز أن ما يقصده[52] ابن خلدون بمصطلح "عرب" هو "الأعراب" أي البدو الرحل الذين لا علاقة لهم بالحضارة في بداية أمرهم[53]. فلماذا قد تمسك بهذه الأفكار ضدّ بني هلال ؟[54] يبدولنا أن ذلك راجع إلى أنهم كانوا عربا من المشرق وليسوا من الغرب المتحضّر. وفاته أنهم اختلطوا بالسكان الأصليين ونشروا بينهم الدين الإسلامي واللغة العربية، وفاته أيضا أنه إذا قامت حروب بينهم فهذا راجع إلى عوامل سياسية وذلك لأن أمراء المغرب تخلوا عن الدولة الفاطمية[55] ورفضوا المذهب الشيعي وعادوا إلى المذهب المالكي فانتقمت منهم الدولة الفاطمية.

وأجمع هؤلاء المؤرخون الفرنسيون على أن العرب "غزاة" استعمروا المغرب ليستغلوا ثرواته[56] وهذا غير صحيح. لم يأت العرب من أوطانهم ليستغلوا البلاد كما فعل قبلهم الرومان والبيزنطيون والوندال، بل جاءوا لنشر رسالة حضارية,فاعتنق سكان المغرب الدين الإسلامي وتعلموا لغة القرآن واختلط العنصر العربي القليل مع الأمازيغ، ومن ذلك برزت حضارة عاش على نورها المغرب الكبير والأندلس[57]. وهناك دليل آخر ينفي هذا الادعاء الاستعماري هو أن السلطة السياسية تولاها السكان الأصليون من الأمازيغ، فظهرت دولة المرابطين التي أسسها "يوسف ابن تاشفين" ودولة الموحدين التي أسسها "ابن تومرت" ودول أخرى منها بني مرّين وبني زيان وبني حفص وما إلى ذلك.

وتبنى هؤلاء المؤرخون الفرنسيون نظرية غير صحيحة هي أن الجزائر محلّ عبور مرّت عليها عدّة حضارات ولم تستقر فيها، وذلك لتبرير وجود الاستعمار الفرنسي في بلادنا، ففي نظرهم لم تكن لهذا الشعب رغبة في التوحيد، وهو لا يعير أي احترام لحكامه[58]. وهذا كلام لا أساس له من الصحة. وذهب "مارسيه" إلى

أبعد من ذلك حيث قال" :لا وجود سياسي للجزائر قبل القرن ال16[59]. ويرجع فضل تأسيس الجزائر بحدودها المعروفة في رأيه إلى الأتراك لكونهم "نصف أوروبيين"[60]. فهذا رأي لا يمكن الاعتماد عليه لأن الأتراك أصلهم من آسيا والدليل في ذلك أن لم ترض أوروبا بانتمائهم إليها إلى يومنا هذا. وأضاف أن الجزائريين لم يكوّنوا "مجتمعا موحّدا"[61] بل كانوا قبائل متصارعة لم تعرف إلا" خوض الحرب وذلك من عهد حنبعل إلى الأمير عبد القادر[62]، وهذا قول غريب.

و"ألفرد بال" هو الآخر شاطر "غوتيه" في الرأي حيث قال : "إن الإسلام يعتمد على "العواطف فقط"[63] وانتشر في المغرب بواسطة دعاة "متعصبين، ضيقي الفكر"[64]، ولم يتقبل العرب والبربر في ممارسة دينهم" إلا المذهب المالكي لأنه ضيق جدّا[65]. "ولم" يرضوا إلا بمذهب بسيط نابع من دين مختلف[66] بل من بدعة"[67]، فكل هذا الكلام غير صحيح إذ يفسره التعصب الاستعماري. وفي الواقع برز علماء كبار في المذهب المالكي سواء في المغرب أوالأندلس أوفي أفريقيا ولم يكونوا متعصبين. وهكذا نجد مغالطات تتكرّر من مؤرخ إلى آخر للأسباب التي ذكرناها. ومن المعروف أن الإسلام متفتح فلو كان حقيقة متعصبا فكيف نفسّر سرعة انتشاره في المغرب وفي غيره من أقطار العالم في العصور الوسطى ؟

إن هذه الملاحظات التي أبديناها في حق بعض مؤلفات المؤرخين الفرنسيين تبيّن لنا أنهم لم يتخلصوا عن ذاتيتهم وتعصبهم لمبدأ التفوق الحضاري، وذلك رغم اعترافهم ببعض الحقائق التاريخية هنا وهناك، فإنهم لم يحترموا مميّزات الشخصية الجزائرية سواء كانت فكرية أوحضارية أواجتماعية، بل تجاهلوا عمدا لتبرير سياسة بلادهم الاستعمارية. فابتعدوا عن الموضوعية التي هي واجبة على الباحث وتبنوا آراء المستعمرين الفرنسيين. إلا أننا رغم ما تحمله هذه المراجع من نقص فإننا نجد فيها أحيانا جوانب تساعدنا على فهم حضارتنا لأنّ المؤرخ لا يستغني عن أية معلومة مهما كان مصدرها[68].

ومع ذلك نجد أقلية منهم تتحلى بشيء من الانصاف والموضوعية، إذ حاولوا الدقة والأمانة العلمية نذكر منهم على سبيل المثال مؤرخ شمال إفريقيا "شارل أندري جوليان" (Ch.A.Julien) الذي حاول تصحيح بعض الأخطاء، وإن لم يسلم منها لأنه متأثر بحضارة بلاده والأستاذ "ليفي بروفانسال" (Levy-Provençal) والعالم في الاجتماع "جاك بيرك" (J.Berque). فعلينا أن نعيد النظر في هذه الكتابات مع الرجوع إلى المصادر الأصلية والتركيز عليها ونصحح الأخطاء من أجل "تصفية" جانب من تاريخنا على حدّ تعبير المؤرخ "محمد شريف ساحلي"[(69)].

2. العلاقات بين الجزائر وفرنسا (من القرن 13 على القرن 15) :

اخترنا دراسة العلاقات التي كانت بين المغرب الإسلامي والغرب المسيحي من القرن 13م إلى القرن 15م. غرضنا من ذلك إظهار بعض العلاقات السلمية، التجارية منها والثقافية التي برزت آنذاك رغم حالة الحرب الشبه المستمرة التي اتصفت بها العلاقات بين الضفتين من البحر المتوسط منذ الفتح الإسلامي وانتشاره في المنطقة.

في هذه الدراسة حددنا موضوعنا في العلاقات بين المغرب الأوسط (الجزائر) وفرنسا. وقبل الشروع في بحثنا علينا أن نبيّن حدود الجزائر وفرنسا كما هي الآن. فيما يخض المغرب الإسلامي فقد مثّل الربع الثاني من القرن 13م نهاية الحكم الموحدي وتفتت السلطة ممّا أدّى إلى ظهور ثلاثة ممالك : 1- مملكة الحفصيين (1234م – 1494م) في الشرق (تونس وشرق الجزائر)، وعاصمتها تونس.

2- مملكة الزينيين (1235-1554) وحدودها الشرقية المملكة الحفصية والغربية المغرب الأقصى، وعاصمتها تلمسان.

3- مملكة المرينيين (1239-1465) وعاصمتها فاس.

ورغم أن الحروب المستمرة بين الممالك الثلاث لا تسمح بحدود ثابتة

سنخصص دراستنا على المغرب الأوسط في فترة حكم الزيانيين وفرنسا على حدودها الحالية بما فيها من مدن وأقاليم كانت تابعة تارة لإسبانيا وتارة لإيطاليا[70]. لماذا اخترنا هذه الفترة التاريخية ولم ندرس العلاقات بين الضفتين من بداية العصور الوسطى إلى نهايتها ؟ أي من ظهور الممالك المسيحية في أوروبا الغربية إلى نهاية الحكم الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا ؟

توقفنا عند هذه الفترة المتأخرة للعصور الوسطى نظرا لندرة الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع في الفترة المبكرة من العصور الوسطى[71] على عكس ما هو الحال مع مدن إيطاليا وإسبانيا حيث تتوفر الوثائق والمصادر. وهدفنا من هذه الدراسة هو العثور على بعض العلامات الاقتصادية أوالأخلاقية التي ساعدت المؤسسات التجارية التابعة لمدينة مارسيليا الفرنسية (Les compagnies de Marseille) مثلا ابتداء من نهاية القرن ال15م على نمو وتطور فكرة الاستعمار في الجزائر.

فكانت الصراعات السياسية والدينية بين المسلمين من جهة والنصارى من جهة أخرى مستمرة في البحر الأبيض المتوسط. وقد ساهم الفرنسيون كثيرا في تطور فكرة الحرب الصليبية. فمدّوا يد المساعدة إلى الصليبيين في المشرق بكل ما يملكونه من أموال وجيوش وكذلك في الغرب (إسبانيا). وهذه الفكرة الصليبية هي التي أدّت بطريقة غير مباشرة إلى تطور العلاقات التجارية والثقافية في القرنين 12 و13م[72].

فتطورت العلاقات وأبرمت معاهدات بين بعض مدن الجزائر وفرنسا[73]. ولكن روح التبشير ظلت سائدة عند المسيحيين الذين رفضوا أن يمثل الإسلام عائقا لانتشارهم في المنطقة[74] حيث لا ينبغي أن ننسى أن خلفية علاقات القوى الأوروبية المسيحية والإسلامية ارتكزت على العداوة بين ديانتين وحضارتين اصطدمتا بعنف. وأن المغاربة كانوا يعتبرون أنفسهم أولا وقبل كل شيء مسلمين والفرنسيون أولا وقبل كل شيء مسيحيين خاضعين روحيا لروما وملتزمين بطاعة

أوامر البابوية[75] ورغم عدم التفاهم بين الديانتين والحروب المستمرة منذ ظهور الإسلام كما أسلفنا فظل "الطرفان في اتصالات"[76]. وفي خلاصة دراستنا سنتساءل عن أهمية هذه العلاقات وبعدها.

- فكرة الحرب الصليبية واكتشاف الأراضي الإسلامية :

كلنا نعلم جيدا كيف حرّض البابا "أوربان الثاني" (Urbain II) الفرنسي المسيحيين على الحرب الصليبية ضد المسلمين في الشرق في أواخر القرن11 م. وبعد سقوط مملكة القدس استقر بعض الفرسان في بلاد الشام كما تحصلوا كذلك على بعض المصارف في المنطقة. ولكن الأزمة التي عاشتها القدس في سنة 1244 جعلت ملك فرنسا "لويس التاسع" يعدّ حربا صليبية من أجل الاستيلاء ثانية على المملكة المصرية، وقد انتهت هذه الحرب بالفشل وصار يحضر حملة صليبية أخرى ضد تونس في 1270.

ويستخلص من هذه الحملات انطلاق ونمو الملاحة بواسطة الموانئ الفرنسية (بروفانس، لانجدوك) التي صارت لها علاقات منتظمة مع المشرق ووقع تنافس مستمر مع المدن الإيطالية مثل بيزة وجنوة[77]. وهنا نتسائل : هل كانت الحروب الصليبية الدافع الوحيد في نمو الموانئ الفرنسية ؟

لم تكن الحروب الصليبية هي الدافع الوحيد في نمو الموانئ الفرنسية ولكنها ساهمت كثيرا في تطويرها وثرائها[78]. فاتجهت الأنظار نحو المغرب منذ القرن 13 لأن "بلاد الإسلام كانت جذابة ومفيدة ذات أرباح كثيرة"[79].

وكانت مساهمة الفرنسيين في حركة استرجاع الأندلس بعد الانهزام الكبير الذي مني به المسيحيون في معركة الأراك (Alarcos) بالأندلس سنة591ه/1209م، سيطر المسلمون (المتكونون من محاربين مغاربة) على قلعة "سلفاتيرا" (Salvatiera) التي كانت تحمي فرسان جمعية" كلاترافا" (Calatrava) التابعة لجماعة السيسترسيين[80] (Cisterciens) الفرنسية. ولكن هل لهذا الحدث وحده

أثر على موا قف رجال الدين الذين كانوا يعتبرون الإسلام خطرا عليهم ؟ وشهدت الأندلس بعد هذه المعركة حدثا له أهمية كبرى وهو معركة العقاب (Las Navas de Tolosa) 612هـ/1212م شارك فيها جيش من المغاربة[81]. وقد قاد هذه الحرب ونظمها "أرنولد امالريك" (Arnaud Amalric) رئيس أساقفة مدينة ناربونة الفرنسية[82] وهزيمة المسلمين في هذه المعركة قد دفعت ملك اراغونة "جاك الفاتح" إلى احتلال جزر "الباليار" (Baleares) المسلمة وذلك في سنة 1230م[83]؟ كان هذا الجيش متكونا أساسا من عناصر فرنسية جائت من مدن "مونبيلييه" و"ناربونة" و"مارسيليا" ومعهم أسطول عظيم[84]. وبعد مشاركة الفرنسيين في استرجاع إسبانيا حصلوا على امتيازات كثيرة منها امتلاك أراضي زراعية ومراكز تجارية في هذه الجزر التي تمثل موقعا استراتيجيا للتجارة مع المغرب، فأصبحت للفرنسيين 300 بيت في مدينة "بالما"[85] (Palma) الأمر الذي سهل لهم التجارة مباشرة مع المغرب. ومن جهة أخرى فقد شنّ الفرنسيون حملة أخرى بالإشتراك مع الجنويين ضد مدينة المهدية سنة 1390م[86]. ونتسائل هنا عن هدف الفرنسيين من هذه" الغزوات"؟ هل كان الدافع دينيا أم إقتصاديا؟ فمن المعلوم أن فكرة الحروب الصليبية كانت راسخة في ذهن الفرنسيين، مع الرغبة في الاحتلال والاستيطان في المغرب مثلما كان الأمر في المشرق[87].

3. العلاقات التجارية :

ولا نجد في الوثائق التي نشرها "ماس لاتري" إلا القليل من الإشارات إلى معاهدات الهدنة والتبادلات التجارية بين المغرب ومملكة فرنسا والمقاطعات الجنوبية مثل مقاطعة "بروفانسا" (Provence) و"لانجدوك" (Languedoc) ومدينة مارسيليا وذلك قبيل الفتح العثماني[88]، يبدوأن ذلك يعود إلى فقدان أكثر الوثائق بسبب الحروب المختلفة التي تعرّضت لها المدن الأوروبية وإلى تحويل هذه

الوثائق من منطقة إلى أخرى...[89] فعلى سبيل المثال نذكر أن الملك الإسباني "ألفونسوالخامس" (Alfonso V) استولى على منطقة "بروفانسا" سنة 1425م واحرق معظم الوثائق الموجودة فيها وكذلك مكتبة القصر الزاخرة بالوثائق.فلم تنج إلا رسالة واحدة هي التي بعث بها الملك الفرنسي "لويس 11" إلى ملك المغرب الثلاثة سنة 1482م. وكانت تنص على رغبة الفرنسيين في تواصل العلاقات التجارية بين منطقة "بروفانسا" والمغرب[90] وقد انعقدت اتفاقيات ومعاهدات بين الطرفين وكيف كان ذلك ؟ وضحه لنا المؤرخ "دي فورك" بقوله : "في ذلك العهد لم يكن هناك قانون دولي يربط بين المسلمين والمسيحيين، فكانت العلاقات العادية بين شعب مسلم وشعب مسيحي هي الحرب فقط ومن ثمّ فكل المعاهدات المتعلقة بالسلام والتجارة والصداقة المبرمة بين دول مختلفة الديانات تسمى "معاهدات هدنة". وكان الأمر يتطلب عدة سفارات أولية ثم تليها سفارة فوق العادة مفوضة وفي النهاية كان نص المعاهدة يتم تحريره بلغة البلد الذي يصل إليه السفير المفوض فوق العادة. وكان نص المعاهدة يقع في نسختين ويوضع في رسالتين تختم كل واحدة منهما بالشمع الأحمر ويوقع الملك عليها بخاتمه ويرجع السفير إلى بلاده حاملا معه الترجمة باللاتينية للمعاهدة المحرّرة بالعربية. كانت هذه الترجمة تكتب وبعد ذلك يأتي دور الملك المسيحي الذي كان يصادق على المعاهدة بواسطة توقيعه بخاتمه في النسختين المترجمتين وبعد إبرام معاهدة توقع من طرف الجانبين فيعلن عنها بصوت عال في عاصمة الدولة. وإذا مات أحد المسؤولين تفسخ المعاهدة تلقائيا ويتحتّم على الحاكم الجديد أن يبادر بتجديدها"[91].

ونظرا للجوّ العام في ذلك العصر الذي تمي.ذز بالحروب والقرصنة فإن السلام المتفق عليه كان نسبيا وغير مستقر: لن الدافع التجاري قويا وعملية النقل والإبحار متواصلة وإن كان هنا خرق الهدنة أحيانا، ولم يسد السلام إلا قليلا.

واشتكى البابوات كثيرا من بعض الأمراء المسيحيين الذين كانوا "يضحون" بالقضية الصليبية من أجل التجارة والثراء[92]. وبالرغم من موقف الكنيسة أوبعض فقهاء الإسلام، ظل النشاط مستمرا في ظروف صعبة[93].

فكانت إذا هذه المقاطعات تبرم لتسهل العلاقات التجارية بين الفرنسيين والمغاربة. فكانت تحددها قوانين وشروط تضمن واجبات وحقوق التجار كما تضمن لهم الأمن والحماية في الموانئ المختلفة وحتى في البحار[94]. فبالنسبة لدراستنا هذه تطرح لنا إشكالية ترتيب المعاهدات. هل يتعيّن أن نعرّفها حسب الترتيب الزمني والجغرافي فيما يخص المغرب الأوسط وفرنسا (معاهدات "مارسيليا" وبجاية ثم "ناربونة" والجزائر ثم "مونبلييه" ووهران الخ...). ما هو المنهج الذي يجب أن نتبعه لتكون لنا فكرة واضحة عن أهمية هذه العلاقات خلال هذه القرون الأخيرة من العصر الوسيط ؟ رأينا من المفيد أن نقدم بعض الأمثلة في هذا المقال ونترك التفاصيل لدراسة أخرى. من جملة هذه المعاهدات نذكر[95] :

1228 : معاهدة تجارية بين مدينة مارسيليا ومدينة وهران تنص على بيع الخمر.

1255 : معاهدة تؤكد إنشاء قنصليات فرنسية في المدن المغربية.

1268 : معاهدة تجارية بين مدينة مرسيليا ومدينة بجاية

1293 : رسالة بعثها تجار مارسيليا إلى حاكم بجاية يطالبون فيها بتخفيض الضرائب واحترام المعاهدات.

1317 : رسالة بعثها ممثلو تجار مارسيليا إلى حاكم بجاية يطالبون فيها بالتعويض عن الأضرار التي تسبب فيها تجار بجاية. ويظهر أن أول معاهدة تجارية أبرمها تجار "مارسيليا" وبجاية كانت في 6 سبتمبر 1210[96].

فيما يخص معاهدات السلام فإنما كانت ترمي إلى تحديد الهدنة لمدة 15 سنة يتمتع فيها التجار بالأمن سواء في المدن أوفي أملاكهم أوفي تعويض أضرارهم وأيضا في حالة غرق سفنهم، وتحميهم من خطر القرصنة وتضمن لهم حرية

العبادات[97]، فمن جهة أخرى سمحت هذه المعاهدات للتجار الأوروبيين بإنشاء مقرّات خاصة بهم يعيشون فيها ويقومون بنشاطهم سميت هذه المؤسسات "بالفنادق" (Fondoucs) وهي عبارة عن قنصليات مسيحية[98] مستقلة على أساس فندق لكل دولة لها ممثل (أي قنصل) يتولى السلطة بين التجار والسلطة.

كانت هذه الفنادق الأجنبية موجودة عادة في وسط المدينة وفي بعض الأحيان في نواحيها مثل فندق الفرنسيين وفندق الإيطاليين... في المدن التجارية منها الجزائر وتلمسان وهنين وبجاية وقسنطينة... كانت هذه الفنادق تتمتع بحرية تامة حيث نجد فيها كنيسة ومحلات خاصة وحمامات ومقاهي...[99] ولكن لا يحق للمسلمين الدخول في هذه المؤسسات إلا لأسباب تجارية.

كانت عمليات التبادل التجاري في تلك المؤسسات تتم تحت رقابة الجمارك التي كانت تقبض المبالغ المالية المفروضة على التجار الأوروبيين وتمنحهم "تأشيرة" تسمح لهم بالتنقل في المدينة[100]. أما الضرائب فكانت تقدر بسنبة مائوية تساوي خمسة من سعر البضائع المصدرة[101].

ما هي البضائع التي كانت تستورد من فرنسا والبضائع التي كانت تصدّر إليها؟ وفي تلك الفترة كان المغرب الأوسط يشكّل أسواقا مهمة لبعض المنتوجات الشرقية والإفريقية وهي ما كان يحتاج إليها الأوروبيون. إن المغرب الأوسط كان يعتبر "باب إفريقيا السوداء" وكانت تلمسان عاصمة الزيانيين بمثابة همزة وصل بين الغرب والسودان[102]. فنجد في هذه الأسواق منتوجات خاصة بتربية المواشي ويوجد فيها الصوف والجلود والتمور والصناعات التقليدية والكثير من المواد الأولية التي تحتاجها أوروبا وكذلك منتوجات السودان من ملح وعاج ومسك وتوابل مثل "فلفل غينيا" الذي كان يطلبه تجار مارسيليا ويسمى "حبّة الجنة "[103] وأيضا العنبر والشب. كانت تصل هذه المواد إلى مدينة تلمسان بواسطة القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى من مدينة سجلماسة وحاملة معها كميات من التبر[104].

وتأسست عدّة شركات تجارية من أهمها شركة الإخوة المقري حيث يقول أحدهم : ... "اشتهرت ذرية المقري بالتجارة فعهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجارة واتخذوا طبلا للرحل وراية تقدم عند المسير. وكان أولاد يحي الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ما ملكوه على السواء بينهم وكان الاعتدال... فكان أبو بكر بتلمسان ومحمد شقيق الأكبر بسجلماسة والشقيقان الصغيران بإيولاتن... فكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر... حتى اتسعت أموالهم... حيث كان أبو حمو يقول : "لو لا الشناعة لم أنزل بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون التبر، ومن سواهم يحمل منها الذهب ويأتي إلينا بما يضمحل عن قريب ويذهب منه ما يغير من الفوائد..."(105).

كانت لهذه التجارة مع الصحراء فوائد كبيرة على دولة الزيانيين حيث بعث الملك أبو تاشفين برسالة إلى "جاك الثاني" ملك الأراغون والبروفانس يقول فيها : "إذا قبلتم بشروطنا فسينتشر السلام بينكم وبيننا وإذا كنتم في حاجة إلى الذهب فسنساعدكم بشرط، أن تعطونا ضمانا ة إذا لم تقبلوا بشروطنا فسنوقف التبادلات بيننا"(106). كما بعث الملك الفرنسي شارل السابع برسالة إلى ملك بجاية وحاكم وهران سنة 1460 يطلب منهم "منح مساعدات للتجار الفرنسيين داخل أراضي المغرب"(107).

أما الفقهاء المغاربة فكانوا يكونون عداوة لمتاجرة المسلمين مع المسيحيين. وجدنا بعض الوثائق يطالبون فيه التجار المسلمين بالحذر في علاقاتهم مع المسيحيين وينصحونهم بعدم بيع "الخيول وكل ما يأذي المسلمين"(108) ومن جهة أخرى حرم البابا على المسيحيين بيع بعض السلع المؤذية للمسيحيين مثل الأسلحة والحديد والخشب والقمح وحبال السفن والرصاص ألخ...(109).

4. دور المدن والموانئ الجزائرية والفرنسية في الملاحة والتجار :

ذكرت الوثائق خمسة مدن وموانئ مهمة كانت محل تبادل بين التجار الجزائريين والفرنسيين.

أ- المدن الجزائرية :

1. تلمسان : هي عاصمة الدولة الزيانية والموقع الاستراتيجي بطرق التجارة الرئيسية التي تربط إفريقيا بالبحر الأبيض المتوسط من جهة والمغرب الأقصى وتونس من جهة أخرى: انت تلمسان ملتقى التجار الوافدين من سجلماسة بالجنوب حاملين التبر الذي كان الغرب يلح على طلبه[110]. وكان ميناء هنين قريب عن مدينة تلمسان يمثل المخرج التجاري لهذه المدينة. وكانت منطقة تلمسان "تنتج إلا القليل ولكنها تمثل نقطة وصل بين الغرب المسيحي والسودان.

2. وهران : يمثل ميناء مدينة وهران مخرجا ثانيا لمدينة تلمسان وكان فيه النظام الجمركي منظم إلى أقصى حد.

3. تنس : لم يكن لهذا الميناء دور حسب وثائقنل إلا في القرن 14 م.

4. الجزائر : لم يكن لميناء الجزائر أهمية كبيرة قبل القرن 14 م حيث نجده مذكورا في الوثائق في علاقاته مع ميناء مدينة مارسيليا في سنة 1333م وكانت السفينة "سانتا فنتورا" (Santa Ventura) تحمل البضائع التي يحتاجها سكان الجزائر من مارسيليا[111].

5. بجاية : كانت مدينة بجاية مركزا إداريا مهما وصناعيا. وميناء هذه المدينة مكانة خاصة في البحر الأبيض المتوسط.

6. المدن والموانئ الفرنسية :

1. مارسيليا (Marseille) : بموقعها الاستراتيجي تمثل مدينة مارسيليا همزة وصل بين الغرب والشرق. ساهمت كثيرا في إعداد الجيوش للحملات الصليبية مما

أعيد لها بالإزدهار الإقتصادي[112]. انخفظ النشاط في مينائها بسبب حرب مائة عام بين فرنسا وإنجلترا.

2. آغ مورت (Aigues-Mortes) : أسس هذه المدينة الملك لويس التاسع والهدف من ذلك استعمال ميناء المدينة للركاب المتجهين إلى بيت المقدس للمشاركة في الحروب الصليبية. ومن هنا انطلقت الحملة الصليبية ضد تونس في 1270 م.

3. مونبيلييه (Montpellier) :

كانت هذه المدينة تابعة للمملكة الإسبانية إلى سنة 1282م. لعب ميناءها دولرا كبيرا في التجارة مع الغرب وخاصة في القرن 14م.

4. ناربونة (Narbonne) : انظمت هذه المدينة إلى المملكة الفرنسية في سنة 1225م. وكان مينائها عبارة عن مخزن لبضائع إسبانيا والمغرب

5. كوليور : هو ميناء مدينة بربينيان ونشاطه مع المغرب مهم جدا (Collioure).

5. الفرسان، التجار، الملاحين، رجال الدين وعلاقاتهم بالمغرب.

من بين التجار الذين يظهرون في الوثائق الموجودة لدينا، نجد عائلة "ماندويل" (Manduel) التي ترددت على مدن المغرب الأوسط طوال القرنين 13م و14م[113]. أما التجار الأغنياء فلم يتاجروا مباشرة مع المغرب بل كانوا يستعملون "وسطاء" مقيمين في أغلب الأحيان في مدينة مارسيليا[114]. وأغلبية هؤلاء كانوا يهودا يسافرون إلى مدن بجاية ووهران عدّة مرّات في السنة. وعرف التجار اليهود اضطهادات كثيرة من طرف الفرنسيين. واضطر البعض منهم إلى اللجوء إلى تلمسان الأكثر تسامحا[115]. أما الرحلات فتنظم في أغلب الأحيان على شكل مواكب خوفا من خطر القرصنة [116]. واستمرّ التجار الفرنسيون في نشاطاتهم في الجزائر حتى بني لهم في القرن 16م حصنا في مدينة الجزائر وهو حصن فرنسا[117].

وإذا كان التجار الفرنسيون يقصدون الجزائر، ألم يكن هناك مسلمون يتجهون إلى فرنسا خاصة والغرب المسيحي عامة ؟ الشيء المؤكد هو أنه لم يكن يوجد فندق أوقنصلية إسلامية في المدن الغربية[118]. وإقامة التجار المغاربة في الغرب لم تكن إلا بمبادرات فردية مثل التاجر الزياني[119] الذي قصد مدينة "مونبلييه" (Montpellier) سنة 1250 واشترى كمية كبيرة من الفضة. فإن الدولة الزيانية لم تشجع إقامة المسلمين في البلدان المسيحية لأن الفقهاء لم يقبلوا بذلك. قال أحد المؤرخين : "إن المسلمين لا يستطيعون التوجه إلى بلاد الكفار مهما كانت ضرورة حاجياتهم الاقتصادية وإذا ذهبوا إليها فإنهم يحصلون على أموال باهضة يدفعونها إليهم فيستعملونها في الحرب ضدهم"[120] ففي الحقيقة لا يرجع عدم وجود المسلمين في الغرب إلى "ضعف سفنهم"[121] بل إلى "المانع الروحي".

أما نشاط رجال الدين المسيحيين فلم نجد في الوثائق أسماء فرنسية تذكر. وما نعلمه أن في سنة 1198م تأسست جمعية القساوسة "الثليثيين" (trinitaires) بمدينة "مارسيليا" وكان هدفهم إنقاذ الأسرى المسيحيين الموجودين في المغرب[122]. وفي سنة 1402م اهتمت جمعية أخرى من القساوسة الفرنسية بعتق عدد من الأسرى المسيحيين الذين كانوا في الدولة الزيانية[123]. ولعبت هذه الجمعية دورا في "تحسين العلاقات بين المسيحيين والمسلمين"[124]. ومن جهة أخرى نلاحظ أن الفيلسوف الإسباني "رامون لول" المايوركي أثر على بعض رجال الدين الفرنسيين حيث تولى الأستاذية في بعض المدن الفرنسية مثل "مونبيليي" و"باريس" ما بين سنة 1274م و1305م. وكان هذا المفكر ينتقد الإسلام ويعتقد أن اللجوء إلى القوة اصبح ضروريا ضد المسلمين الذين لا يرغبون في اعتناق المسيحية[125].

وكان "رامون لول" (Ramon Llull) يعتقد أن على رجال الكنيسة أن يبشروا بدينهم في المغرب بطريقة سليمة وأن يحاربوا القرآن والمسلمين في بلدهم. أما

في فرنسا، فكان أغلب رجال الدين يعتقدون أتن عليهم بمحاربة المسلمين أينما كانوا. فقد حاول "رامون لول" تتصير المسلمين وسافر إلى بجاية في سنة 1314م وأعلن عدوانه ضد الدين الإسلامي هناك. طرده سكان المدينة رافضين تماما أفكاره[126].

وكان الفرانسيسكان "خيمانس" (Ximenes) من أصل إسباني ومقيم في فرنسا في القرن 15م واعتقد هذا الأخير أن الحرب ضد المسلمين ليست الحل الوحيد ونشر أفكاره في فرنسا محاولا " التفاهم مع مسلمي المغرب في نطاق الإحترام المتبادل للديانتين"[127].

وفي الخلاصة وانطلاقا من الوثائق الموجودة عندنا نلاحظ أن معظم العلاقات كانت تجارية بين فرنسا ودولة بني زيان خاصة وبين الغرب ودول المغرب عامة. وكانت هذه العلاقات مستمرة رغم حالة الحرب الشبه مستمرة بين الطرفين... ولكن، حسب الوثائق نظمت التبادلات خاصة من طرف المسيحيين ولم نجد وثيقة عربية تصف التجار المغاربة ما عدا الوثائق الموجودة في "مملكة آراغونة"[128] (Aragon). ويظهر لنا الأمر غير صحيح ونعتقد أن الوثائق العربية ضاعت ولم نجدها بعد... فمن خلال دراستنا المتواضعة أردنا أن نفتح المجال للبحث في هذا الموضوع في الوثائق الموجودة في المكتبات الإسبانية والفرنسية التي هي في معظمها باللغة اللآتينية.

حواشي

1. أنظر: Tailliart (Ch.), L'Algérie dans la littérature française, p. 45.
2. أنظر: Bel (A.), Histoire et Historiens de l'Algérie, p. 180.
3. أنظر: Gsell (S.), Histoire et Historiens, p. 1.
4. أنظر: د. أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج1، ص. 19
5. راجع: Bel (A.), op.cit., p.180.
6. أنظر: Gsel l (S.),op.cit., p .11.
7. Commission de l'exploration scientifique de l'Algérie.
8. Collections de l'exploration scientifique de l'Algérie.
9. Annuaire ensuite Recueil annuel de notices et de mémoires.
10. La société historique algérienne.
11. هي نواة المكتبة الوطنية التي اشتهرت فيما بعد.
12. La Revue Africaine / توقفت هده المجلة قبيل الإستعمار بقليل.
13. La Société de géographie et d'archéologie d'Oran.
14. للمزيد من المعلومات أنظر. Esquer (E.), Histoire et hist., p .423.
15. Académie d'Hippone.
16. Société d'Algérie et d'Afrique.
17. Gsell (S.), op.cit., p .12.
18. Tailliart (Ch.), op.cit., p .176.
19. Marçais (W.), Hist .Et hist., p .156.
20. Tailliart (Ch.), op.cit., p .177.
21. Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale, Hist .Et hist., p.180.
22. Histoire des Berbères, 4 vol., Alger, 1852.
23. Les prolégomètres, Paris, 1863-1868.
24. De Slane, Description de l'Algérie septentrionale, Alger, 1911.

25. في المجلة الإفريقية من 1891 إلى 1893 تحت عنوان Histoire des Almohades

26. Annales du Maghreb et de l'Espagne, Jourdan, Alger, 1901.

27. La Rissala, Alger-Paris, 1914.

28. Documents inédits d'histoire almohade, Paris, 1928.

29. Histoire des Beni Abd al-Wâd, Alger, 1904-1913.

30. اعترف بذلك المؤرخ غوتيه في كتابه
Gauthier (E.F.), Le passé de l'Afrique du Nord, p. 67.

31. نفس المرجع السابق و الصفحة، راجع كذلك د.حاجيات، الجزائر في التاريخو ج3 وص 45-46.

32. Tailliart (Ch.), op.cit., p.176-177.

33. نفس المرجع، ص 193.

34. نفس المرجع، ص 179-181.

35. Marçais (G.), Hist. et hist., p. 151.

36. Courtois (Ch.), Bibliographie de l'histoire, p.444-448.

37. Gauthier (E.F.), op.cit .p.389.

38. صاحب كتاب "العصور المظلمة لتاريخ شمال أفريقيا "Les si
Les siècles obscurs de l'Afrique du Nord, Paris, 1927. كان هذا الكاتب محور انتقادات كثيرة فقرذر الناشر تغييره ب "تاريخ ماضي شمال إفريقيا"
Le passé de l'Afrique du Nord, paris, 1952.

39. Gauthier (E.F.), Le passé..., p. 19. ويكتب نفس الكلام Gsell, Hist. et hist., p .15

40. Marçais (W.), op.cit., p.1.

41. Gauthier (E.F.), op.cit., p.23.

42. نفس المرجع، ص 48.

43. نفس المرجع والصفحة.

44. نفس المرجع، ص 72

45. نفس المرجع والصفحة.

46. نفس المرجع، ص 59-61.

47. نفس المرجع، ص 67.

48. Gauthier (E.F.), Considération…, p. 69.

49. نفس المرجع و الصفحة.

50. أنظر: .Marçais (G.), La Berbérie musulmane, p. 13 وشبه "غزال" بني هلال ب: "جماعات من الذئاب غزوا المغرب ثم نشروا لغتهم في وسط البربر، أنظر.Gsell (S.), Hist. et hist., p.5

51. أنظر المجلد 1، ص 149.

52. Laroui (A.), Histoire du Maghreb, pp. 203-206.

53. Monteil (V.), Discours sur l'histoire universelle, p.295.

54. Berque (J.), Opera Minora, t.II, edit Bouchene, Paris, 2001, p. 226.

55. أنظر رشيد بورويبة، الجزائر في التاريخ، ج 3، ص 205-207

56. Marçais (W.), Hist. et historiens, pp.143-145.

57. أنظر أبو عبيد البكري، تاريخ المغرب، باريس، 1965.

58. Carette, Hist. et historiens, p. 144.

59. Gsell, Marçais, Yver, in Revue Africaine, n° 68, p .559.

60. نفس المرجع و الصفحة.

61. Gauthier (E.F.), Considerations..., p. 52.

62. نفس المرجع، ص 66.

63. Bel (A.), Hist. et historiens, p .192.

64. نفس المرجع، ص 189.

65. نفس المرجع والصفحة.

66. نفس المرجع، ص 191-192.

67. .Gsell, Marçais, Yver, op.cit., p. 559 هذه المقولة مصدرها "يوحنا الدمشقي" المسيحي الذي عاش في البلاط الأموي في القرن1ه/7م.

68. Emerit (M.), Les pieges de l'histoire du Maghreb, pp.52-53.

69. Sahli (M.Ch.), Decoloniser l'histoire, edit. Maspero, Paris, 1965.

70. Dufourcq (Ch.E.), L'Espagne catalane et le Maghreb, p .22.

71. أنظر
Garcin (J.C.), Etats, sociétés et culture du monde musulman médiéval, t. II, pp. 245-246.

72. نفس المرجع، ص 21.

73. أنظر: Mas-Latrie, Traites de paix et de commerce, Paris, 1866.

74. أنظر:: Dufeil (M.), Vision d'Islam depuis l'Europe au debut du 14e s., pp. 242-243.

75. راجع عطاء الله دهينة، الجزائر في التاريخ، ص 482.

76. أنظر : Gardet (L.), Regards chretiens sur l'Islam, p. 82.

77. Dufourcq (Ch.E.), La vie quotidienne dans les ports mediterraneens, pp .99-101.

78. راجع Baratier et Raynaud, Histoire du commerce de Marseille, t.III, p .98.

79. راجع Guichard (P.), Reconquista, in Cahiers de Fanjeaux, p .119.

80. جماعة دينية تأسست سنة 1098 م في مدينة سيتو (Citeaux) بفرنسا و انتشرت في أوروبا الغربية و خاصة في إسبانيا، أنظر

Davy (H/M/), Les Cisterciens, Dictionnaire du Moyen age, pp. 236-238.

81. أنظر ابن خلدون، تاريخ العبر، ج7، ص 189.

82. راجع. Dufourcq, L'Espagne..., pp. 26-27

83. راجع. Mu'nis (H.), E.I., t.III, pp .1081-1082

84. انظر Guichard (P.), op.cit., pp.118-119.

85. راجع. Dufourcq (Ch.E.), op.cit., pp .23-24

86. أنظر ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص 625-669 و904-905.

87. راجع Dufourcq (Ch.E.), op.cit., pp .21-22.

88. Mas-Latrie, op.cit., p .8.

89. نفس المصدر و الصفحة.

90. نفس المصدر، ص 9.

91. Dufourcq (Ch.E.), L'Espagne.., p.409.

92. راجع Dhina (A.), Les Etats..., pp.390-391.

93. Garcin (J.C.), op.cit., t.2, p.271.

94. راجع

Dufourcq (Ch.E.), Commerce du Maghreb medievaldu Congres d'hist.

Actes Du Maghreb, Tunis, 1971, pp. 184-185.

95. راجع Mas-Latrie, op.cit., pp.89-136.

96. راجع
Blancard, Documents inedits sur le commerce de Marseille au Moyen age, t.I, p .7

97. أنظر Dufourcq (Ch.E.), Les ports, pp .105-107.

98. راجع Garcin (J.C.), op.cit., p.272.

99. أنظر Dufourcq (Ch.E.), Les ports, p.116-117.

100. Baratier et Raynaud, op.cit., t.II, pp.112-113

101. Dhina (A.), op.cit., pp .381-382.

102. أنظر Dufourcq (Ch.E.), L'Espagne..., p.135.

103. La graine du paradis.

104. Dufourcq (Ch.E.), op.cit., p.475.

105. أنظر المقري، نفح الطيب، ذكره عطاء الله دهينة، نفس المرجع، ص 485.

106. لا يوجد النص العربي الأصلي لهذه الرسالة، راجع.
Dufourcq (ChE.), L'Espagne, p. 475

107. أنظر Dufourcq (Ch.E.), Les ports, p .112.

108. أنظر عطاء الله دهينة، نفس المرجع، ص 482.

109. نفس المرجع والصفحة.

110. أنظر Julien (Ch.A.), op.cit., t .II, p.70.

111. راجع Baratier et Raynaud, op.cit., p .96.

112. المرجع السابق، ص 113.

113. راجع Dufourcq (Ch.E.), Les ports, p.42.

114. راجع Baratier et Raynaud, op.cit., p.98.

115. أنظر Dufourcq (Ch.E.), op.cit., p .4478-480.

116. أنظر Baratier et Raynaud, op.cit., p .99-110.

117. نفس المرجع، ص 43.

118. Dufourcq (Ch.E.), Les ports, pp .112-115.

119. نفس المرجع، ص 114.

120. أنظر دهينة، نفس المرجع، ص 480-481.

121. أنظر برونشفيك، ذكره دهينة، نفس المرجع، ص 481.

.122 Giulio Cippelone, L'ordre de la Sainte Trinite et de la Redemption des captifs, Cahiers de Fanjeaux, p .135.

.123 نفس المرجع والصفحة.

.124 نفس المرجع، ص 138.

.125 Sugranyes de Franche, L'apologetique de R .Llull, in Cahiers de Fanjeaux, pp.378-379

.126 نفس المرجع، ص 382.

.127 Dufourcq (Ch.E.), Les ports, p .108.

.128 انظر Dufourcq (Ch.E.), L'Espagne, p.292.

المصادر والمراجع

البحث الأول

العربية :

- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت. 1968.
- البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، ط، دي سلان، باريس 1965.
- بورويبة رشيد، عبد الحميد حاجيات،... الجزائر في التاريخ، ج، 3العهد الإسلامي، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1984.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- ميكال أندري : جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة إبراهيم خوري، القسم 2، ج4، دمشق 1995.

الفرنسية :

Alazard (J.) et collectif, Histoire et historiens de l'Algérie, édit. F. Alcan, Paris, 1951.

Braudel (F.), L'Algérie dans la littérature française de Ch. Tailliart, Revue Africaine, n°68, pp.123-127.

Braudel (F.), Un voyage à travers le passé de l'Algérie, R.A., n°71, 1930, pp. 154-165.

Cahen (Cl.), Introduction à l'histoire du monde musulman médiéval, VIIè-XVè s., édit.A.Maisonneuve, Paris, 1982.

Courtois (Ch.), Bibliographie de l'Afrique du Nord, des origines à la fin du Moyen Age, R.A., n°96, 1952, pp.416-448.

Emerit (M.), Les pièges de l'histoire maghrébine, dans Revue d'histoire maghrébine, n° 13-14, janvier 1979, Tunis, pp.51-54.

Encyclopédie de l'Islâm, t.I et III.

Fagnan, catalogue des manuscrits de la Bibliothèque Nationale d'Alger, Paris, 1893.

Gauthier (E.F.), Le passé de l'Afrique du Nord, édit.Payot, Paris, 1952.

Gauthier (E.F.), Considérations sur l'histoire du Maghreb, dans R.A., n°68, 1927, pp.47-73.

البحث الثاني

العربية:

ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت 1959.

- ابن عذاري، البيان، تطوان 1956-1961.

- عطاء الله دهينة و ماعة من الأساتذة، الجزائر في التاريخ، من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني، الجزائر ،198.

- مؤنس حسين : تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ط1، 1966.

الفرنسية:

Baratier (E.) et Raynaud (F.), Histoire du commerce de Marseille, édit. Plon, Paris, 1951, 2 t.

Blancard, Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen âge, 2 vol., Marseille, 1884.

Bono (Salvatore), Les corsaires en Méditerranée, édit. La Porte, Paris, 1998.

Cahiers de Fanjeaux, Islam et chrétiens du Midi (XII^e^-XIV^e^s.), édit. Privat, Toulouse, 1983.

Dhina (A.), Les Etats de l'Occident musulman aux XIII^e^, XIV^e^ et XV^e^ s., édit. OPU-ENAL, Alger, 1984.

Dufourcq (Ch.E.), L'Espagne catalane et le Maghreb aux 13^e^ et 14^e^ s., édit. PUF, Paris, 1966.

Dufourcq (Ch.E.), La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Age, édit. Hachette, Paris, 1975.

Dufourcq (Ch.E.), Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane, actes du congrès d'histoire et civilisation du Maghreb, Tunis, décembre 1971.

Garcin (J.C.) et collectif, Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, X^e^-XV^e^ s., édit. PUF, Paris, 2000; t. 2 :Sociétés et cultures.

Hauchecorne (F.), Chrétiens et musulmans au Maghreb, de l'Eglise d'Afrique à la présence chrétienne, Paris, 1963.

Julien (Ch.A.), Histoire de l'Afrique du Nord, t.I, Paris, 1952.

Marçais (G.), La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, édit. Aubier, Paris, 1946.

Mas-Latrie (L.de), Traités de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age, Paris, 1866

Poupard (P.), Dictionnaire des religions, édit. PUF, Paris, 1985/

Vergé-Franceschini (M.), Guerre et commerce en Méditerranée, IX^e^-XX^e^ s., Paris, 1991.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث :

نتائج حملة حسان وأثرها على المجتمع.

الفصل الرابع :

دراسة نقدية لأهم المصادر المعتمدة في البحث.

الفصل الخامس :
مصادر تاريخ مدارس تلمسان في العهد الزياني

الفصل السادس :
مصادر تاريخ مدارس تلمسان في المعهد المريني

الفصل السابع :
المغرب الأوسط في كتابة الرحالة والجغرافيين العرب

الفصل الثامن :
أوصاف الجزائر في كتابات أبي عبيد الله البكري

الفصل التاسع :

الجزائر الوسيطية في المصادر الأجنبية

طبع هذا الكتاب في ماي 2007
بمطابع دار القصبة للنشر
حي سعيد حمدين، رقم 6، 16012، الجزائر.
الهاتف : 11 / 10 79 54 021 الفاكس : 77 72 54 021
الموقع الإلكتروني : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2007.

ردمك: 7- 37- 846- 9961- 978